حداثة الحضارات القديمة

خفايا وأسرار الماضي الكبرى

تأليف : آلن وسالي لاندسبرغ

نقلته إلى الفرنسية : جاكلين أوويه (Jacqueline Huet)

بعنوان :

A LA RECHERCHE DES GRANDS

MYSTÈRES DU PASSÉ

ونقله إلى العربية : سمير شيخاني

منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت

حداثة الحضارات القديمة

خفايا وأسرار الماضي الكبرى

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

«لطالما كان لديّ الانطباع بأن الإنسان كان غريباً على كوكبه. غريباً تماماً. ولطالما طاب لي أن أتصوَّر أن أصوله إنما كانت، ربما، في الفضاء الخارجي للأرض، الأمر الذي يفسّر الأولوية التي نوليها، في اهتماماتنا، السماء، والنجوم، والآلهة، في مكان ما، هناك في الكون».

إريك هوفر

المقــــدمة

بقلم

رود سترلنغ

إن ارتباطي الطويل مع آلن لاندسبرغ يقدم في حد ذاته طابعاً استثنائياً، فعلى نقيض العلاقات المألوفة بين الكاتب ومنتجه، فنحن لم نهدد قط بالتضارب. حتى في المجال الفنّي لم نعرف قط خلافاً ــ وهو عملة رائجة في ميدان التليڤيزيون ــ لم يحسم قط، بتسوية مرضية للواحد أو للآخر. ولا يعزونَّ أحد خاصة، السبب في هذه الظروف إلى دماثة خلقي الاحتمالية، فأنا، بالحري، من النوع الذي يحتجّ ويقاوم. وآلن لاندسبرغ، على النقيض، امرؤ هادىء، ورصين، يتوصّل إلى التعبير عن وجهة نظره من غير أن يرفع الصوت في الحين الذي يكون فيه صدى صيحاتك ما يزال يرنّ عبر القاعة.

إن كل ذلك لأخلص إلى الاعجاب الذي أكنّه لامرىء خارق للطبيعة، توصّل، بفضل سلامة ذوقه واهتمامه الدائم بالنوعية، إلى تحويل عدد من إنتاجاتي الأدبية إلى ذهب مُصْمَت (ذهب ممتلىء، متماسك لا جوف له).

من «**بعض الرجال الشرفاء**» وهي مسرحية مدتها نحو ساعتين اثنتين، من بطولة ڤان هفلن، إلى «**عاصفة في الصيف**»، وهي من بطولة پيتر أوستينوف، التي أكسبتنا المكافأة التي تمنح لأفضل مسرحيات السنة، مروراً

بمسرحية «**عالم القومندان كوستو الكائن تحت الماء**»[1]، التي أنتجها آلن مع تعليقاتي، اكتشفت لدى هذا المنتج المُجدّ والنشيط رأياً أو تمييزاً، وذوقاً بلا ضعف. وقد كانت دوماً الاذاعة المتلفزة «**مرور الزمن**»، و«**سلسلة ناشنال دجيوغرافيك**»[2]، «**السيرة**» (ترجمة حياة)، و«**المستكشفون الجدد**»، و«**الخارجيات**» (المشاهد المصورة خارج الاستوديو، وفي مواقعها الطبيعية)، إذاعات ذات نوعية تفوق المتوسط.

منذ أكثر من عام (هذا الكتاب مطبوع سنة ١٩٧٨)، اتصل بي آلن تلفونياً، ذات يوم، ليعلن لي أنه يقتحم ميداناً جديداً، ميدان الأشخاص من خارج الأرض أو جوِّها. وبصراحة تامة، كان لذلك تأثير غريب فيّ. فلقد طالما وثقت بآلن بالنسبة إلى كل ما هو مستحدث وأصيل، ولكن هناك، ألفيت أنه يقع، بالحري، في النوع الظلامي (من يعارض تثقيف العامّة)، وهو فضلاً عن ذلك، متّزن وفعال في تقديره. وقبلت لمجرد الصداقة الصرف أن أتناقش وإياه في فكرته عن «الفضاء الخارجي».

كان صديقي، وهو عادة واضح ومنطقي يقدح بكيفية مفككة تماماً؛ على الأقل، ذلك كان الاستنتاج الذي توصلت إليه عقب ربع ساعة من الحديث. بالنسبة إليّ، كنا كلياً في موطن الخيال، وفي مجال هو مبتذل على نحو خاص، علاوة على ذلك.

قال لي:

ــ إني أعتقد بذلك، يا رود، وأعتقد حتى أن بالوسع أن أبرهن على مرور شكل من الحياة الذكية على الأرض.

وأحزنني أن أشهد تلف تفكير منطقيّ وسليم، قلت:

ــ حسناً، اتفقنا، لنرَ ذلك.

وكان البرهان الأول صورة فوتوغرافية لمهبط مُلْتَقَطة من ارتفاع ثمانمئة متر.

قال:

ـ إنه مطار، حسب الظاهر. . . له هيئة الميادين، لكأنه قاعدة عسكرية.

ذلك كان، على الأقل، انطباعي.

ـ إن عمر ذلك أربعة آلاف سنة، يا رود!

وانطلق الأمر! وواحدة بعد الأخرى، راح آلن يسحب من محفظته صوراً فوتوغرافية من جميع أركان العالم، مظهرة أماكن وأشياء ما كان ينبغي أن توجد فيه. رسوم بطاريات (= حاشدات)، ومركبات فضائية، وترانزستورات، يعود تاريخها جميعاً إلى ما قبل التاريخ ـ تشكّل الأدلّة المثبتة التي جمعها من هنا وهناك. ولو أن أحداً آخر أراني الأشياء نفسها والصور الفوتوغرافية عينها، لكنت اعتبرته مشعوذاً، ولكنت بحثت عن التزييف. غير أنه يكفيني التفكير في السنوات التي قضيتها في العمل معه في سلسلة الاذاعات المتلفزة عن القومندان كوستو لكي أقتنع بأن آلن كان أبعد من كونه هاوياً في الميدان الأركيولوجي (المتعلق بعلم الآثار)، والبيولوجي (المتعلّق بعلم الأحياء)، وفي ميدان البحث العلمي، ويستحيل التفكير في التزييف.

ولمّا فرغنا من استعراض كل شيء، كنت قد اقتنعت بأننا ندخل ميدان بحث جديداً وممتعاً. وإذ ننكبُّ على ذلك بنيّة الصمود والمقاومة، نستطيع أن نأمل اكتشاف عناصر جديدة تجيب عن السؤال الأساسي الشهير: «**من أين نأتي؟**».

أنا اليوم لست بعيداً عن الاعتقاد بأن الإنسانُ ولد تماماً في مكان ما من الفضاء الخارجي للأرض. وما هو غير مرضٍ في التليڤيزيون هو أن المرء لا يتصرَّف، عموماً، بسوى خمسين دقيقة لعرض نظرياته. وفي الصفحات التالية، ستحصلون، على النقيض، على الوقت جميعاً لمتابعة آلن في المناطق

المظلمة التي يستكشفها، وأعتقد أنكم، مثلي، لن تلبثوا أن تشرعوا في اللعبة.

هوامش المترجم

(١) **جاك ـ ايف كوستو** ، ضابط بحريّ فرنسي، وأُقيانوغرافي [عالِم بالمحيطات أو الأوقيانوسات] وسينمائي، من مواليد سنة ١٩١٠ . صنع مع أ. غانيان، المغطسة المستقلة ـ وهي صدرة الغوص، وقام بعدة حملات استكشافية أوقيانوسية على متن سفينته الشهيرة **كاليسو**، مُجرياً باختبارات حول الحياة تحت الماء، وقد أنتج الشريطين السينمائيين المعروفين «**عالم السكون**» (١٩٥٥) و«**العالم الذي لا يعرف الحياة**» (١٩٦٤).

(٢) «**ناشنال دجيوغرافيك**» هو عنوان مجلة أميركية لجعل العلوم في متناول الجميع، ويتعلّق الأمر، والحالة هذه، بسلسلة من الاذاعات المتلفزة على نحو متسلسل.

١

كيف بدأ كل شيء

الكاميرا (= آلة التصوير) جاهزة. والدكتور لسلي أوردجل يثبّت ميكروفوناً في عنقه. وفريق التقنيين ينتظر.

ويضغط التوتر على عنقي مدى لحظة من الوقت. ويسود الصمت الأكبر. ليس هناك أي أثر للحياة في الجوار؛ لا شيء سوى جدران رمادية وعارية. وخامرتني فكرة: إن المحيط هو ملائم لموضوعنا. في خلال هذه المقابلة، سنتحدث عن أحد الأسرار التي بقيت مكتومة على خير وجه، عبر العصور: **كيف ظهرت الحياة على أرض بلا حياة؟**

لقد وضع السرّ دوماً العلم في الحيرة والاضطراب. والعالِم الذي يواجهني في الفناء الرخامي في معهد سولك دو لا جولاّ، في كاليفورنيا، اقترح جواباً سيؤدي ربما إلى إعادة التفكير كلياً في تاريخ البشرية.

ويراقبني الدكتور أوردجل بعين متحيرة قليلاً. إنه يتوقّع بوضوح أن

أطرح سؤالي الأول. كيف اتفق أنني أتهيّب اليوم، بعد أن مضى عليّ خمس عشرة سنة وأنا أقوم بتصوير برامج تليفيزيونية توثيقية؟

لنقل إنني أستشعر نوعاً من الإثارة حيال العلم في فجر اختراع جديد. ذلك بأن النظريات العلمية الكبيرة هي، قبل كل شيء، اختراعات كبيرة ولّدتها المخيّلات البشرية. إن الذرّة هي اختراع؛ والكون هو اختراع.

وهناك من المفاهيم عن الكون أكثر ممّا هناك من أنواع السيارات. أنا الآن أقوم بتحقيق حول نظرية جديدة، يجب أن تكون أسئلتي محدَّدة وثاقبة الفكر من أجل أن تُعرض أفكار المنظِّر على نحو جلّي، على الشريط الصوتي (الشريط السينمائي الذي تسجَّل عليه الأصوات).

إن الأكثر سهولة هو البدء بالأسئلة الاعتيادية. فأطلب إليه، إذاً، أن يقدّم إليّ ملخصاً موجزاً عن مجرى حياته ومهنته.

قال:

ـ ولكن، بكل تأكيد، دراسات في أوكسفورد... أولاً كنت كيميائياً، ثم انتقلت إلى علم الأحياء (= البيولوجيا) شيئاً فشيئاً... وخصوصاً دراسة عملية هرم (التقدم في السّن) الخلايا الفردية...

ويتابع، غير أنه يُسقط ذكر الحقبة الوجيزة التي حدثت مؤخراً في مجرى حياته ومهنته، وكنت أحبّ أن أسمعه يتحدث عنها.

لقد اشترك في تحرير مقال نُشر في «**إيكاروس**» المجلة الشهرية المخصصة للدراسات في المنظومة الشمسية. وقد لفت انتباهي المقال الذي أثار بعض الهيجان في صميم الأوساط العلمية، فطلبت إليه، إذاً، أن يكلّمني عنه.

قال:

ـ لمّا كتبنا، فرنسيس كريك[١] وأنا، هذا المقال، فكّرنا، بالحري، في اللهو أو التسلية.

غير أن بعض الأشخاص أخذوه على محمل الجد. إنه لمن الصعب تجاهل نظرية ما، حتى لو أنها بدت متعلقة بالخيال الروائي العلمي، عندما يقول بها عالمان [بريطانيان] من أمثال أوردجل وكريك. وفسرت منشورات مشهورة بجديتها المقال المنشور في مجلة «**إيكاروس**»، وحلّلته، وناقشته، على نطاق واسع.

وسألت الدكتور أوردجل بغية حمله على توضيح نظريته:

ـ هل أنا مصيب في الاعتقاد بأنه يُعزى، عموماً، ظهور أول جُزيء حيّ على الأرض إلى التركيب العَرَضي لمواد كيمائية، أحدثها قذف الشعاعات الشمسية، أو الصاعقة مثلاً؟

ويبدأ بالقول:

ـ إنه لمن الممكن، طبعاً، أن تكون الحياة قد ظهرت على الأرض تلقائياً أو عفوياً، وإذا أردت معرفة رأيي الشخصي، فأنا أميل بسرور أكثر إلى هذه الفرضية أكثر من الفرضية التي تنطوي على القول إنها من مصدر آخر. ولكن، بغياب البرهان العلمي، ينبغي أن نبقى، حتماً، منفتحين.

ـ والفرضية الأخرى، بكلمتين اثنتين، هل ستكون أن أصل الحياة الأرضي هو في الكون؟

ـ أجل، وسنخطىء فيها لو استخففنا بهذا الاحتمال. إن الغاية التي سعينا إليها، في كتابة هذا المقال، لم تكن أن نبرهن على أنه يجب البحث عن أصل الحياة في مكان آخر، ولكن أن نذكر الاحتمال.

ـ أفلم يواجهوها الآن لكي يرفضوها؟

ـ في القرن التاسع عشر، دافعت نظريتان اثنتان عن هذه الفكرة. أكّد لورد كالفن، في انكلترا، أن الحياة حُملت إلى الأرض في حالة بَوْغ (أو غُبَيْرَة: خلية تنفصل عن نبات ما ثم تُنْتِش دون تناسِل شِقّي. توجد في مستورات الزهر كالطحالب والفطور والسرخس، لكن احتمال الحياة في هذه الشعبة النباتية لا يتمّ أغلب الأحيان دون تكوين خلايا تناسلية ودون اللقاح المعروف)، بفعل حجر نيزكي. وفي السويد، أشار عالم كيميائي يدعى سڤانت آرينيوس[٢] إلى أن بَوْغاً قد استطاع الانجراف عبر الفضاء آتياً من كوكب ينتمي إلى منظومة شمسية أخرى إلى الأرض.

كانت أعمال آرينيوس ذات عون قيّم لي في مستهلّ بحوثي. إنه العالم الذي ضبط مفهوم التأيين (= توليد أيونات أو تحويل إلى أيونات ـ والأيون أو الدالف، كيميائياً وفيزيائياً هو ذرّة أو مجموعة ذرّات ذات شحنة كهربائية). وقد نشر سنة ١٩٠٧ مؤلَفاً بعنوان **«عوالم تحت التكوين»**، وصف فيه كوناً تنجرف فيه الحياة الذي وُجدت دوماً، بلا تبصُّر عبر الفضاء، وتستعمر بين وقت وآخر كواكب جديدة. وفي شكل أبواغ، تتخلص من جو كوكب ما بحركات غير منتظمة، ومن ثم، فإن ضياء الشمس هو الذي يرفع، في ما بعد، الأبواغ عبر الفضاء (إن مثل هذا الضغط الذي يمارسه ضياء الشمس قد سبق التدليل عليه تجريبياً أو اختبارياً). عندما تسقط الأبواغ على كوكب ما، فإنها بحسب آرينيوس، تستيقظ على الحياة الفعالة، وتدخل في تنافس مع أشكال الحياة الموجودة، ما لم تحمل الحياة إلى كوكب ما، مع أنه قابل للسكنى، لم يكن قد عرف الحياة بعد.

وبدت النظرية مغرية طوال بعض الوقت، فالأبواغ البكتيرية، المجهزة بغشاء سميك واقٍ، تقاوم على نحو جيّد جداً البرد والاجتفاف، وهي تعيش، على وجه الاحتمال، ردحاً من الوقت في فراغ الفضاءات الواقعة أو الحادثة في ما بين النجوم؛ ولها، فضلاً عن ذلك، الحجم الملائم لكي يتغلّب الضغط المتسبب عن الاشعاع الشمسي على قوة جاذبيتها.

وأحاول مرة أخرى أن أعيد الدكتور أوردجل إلى نظريته الخاصة، وأطرح عليه سؤالاً جديداً:

ـ أليس آرينيوس من ابتكر كلمة «**پنسپرميا**» لوصف نظريته، وهي كلمة اعتمدتها بدورك؟

ـ هذا صحيح، خلال السنوات العشرين الأخيرة، بات جلياً أكثر فأكثر أن لا نظريته، ولا نظرية لورد كالڤن كانتا ثابتتين. وإنه لمحتمل جداً ألاّ يستطيع حجر نيزكي أن يغادر منظومة شمسية لكي ينتقل إلى منظومة شمسية أخرى. وإن بوغاً مسافراً عبر الفضاء ربما دُمِّر، حتى قبل بلوغه الأرض، بفعل الشعاعات فوق البنفسجية من الشمس، أو بفعل إشعاعات أخرى من مثل الشعاعات الكونية، والشعاعات المجهولة (شعاعات إيكس) من الشمس، أو بفعل جزيئات مشحونة مثل أحزمة ڤان آلن(٣) المحيطة بالأرض.

ـ الأمر الذي لا يحول بينك وبين الاعتقاد بأن الـ«**پنسپرميا**» ليست مستبعدة أو لا تُصدَّق.

إننا ندخل صلب اللغز.

ـ إن الـ«**پنسپرميا الموجَّهة**»، كما دعوناها، هي على نحو ما، محاولة يائسة لبعث النظرية القائلة بأن الحياة الأرضية قد جاءت من جهة أخرى، وهي تفترض أن الحياة قد أُرسلت طوعاً إلى الأرض بوساطة مجتمع متقدم تقنياً في كوكب ينتمي، على وجه الاحتمال، إلى مجرّتنا. ونعتقد أن الانتقال المحتمل قد تمّ بوساطة صاروخ. نحن، بالطبع، نهتم بجميع العناصر الجديدة التي تستطيع التدخل لمساندة هذه الاطروحة، ويسعنا الآن أن نعدّ بداية صغيرة جداً أو بدايتين اثنتين صغيرتين جداً من البرهان.

ويمضي إذ ذاك موضحاً الأسباب التقنية التي قادته، مع كريك، إلى مواجهة احتمال تعشير (= تلقيح) صناعي للأرض بوساطة أناس من خارج الأرض أو جوّها. لقد لاحظنا أن الموليبدين (= فلِزّ أبيض كالفضة، قابل

للكسر) هو عنصر أساسي في الحياة الحيوانية، ضروري للحياة النباتية، وضروري لإجراء عدد كبير من التفاعلات البيوكيميائية، ومع ذلك، فإن الموليبدين هو عنصر نادر، متوفر على نحو أقلّ كثيراً على الأرض، لنقل، ممّا هو متوفر الكروم أو النيكل اللذان ليس لهما سوى أهمية نسبية في عملية الحياة.

يقول الدكتور أوردجل:

ـ إنّ التركيب الكيميائي لجسم ما (بنية) يعكس طبيعياً بقدر معيَّن الوسط (البيئة) الذي نما فيها أو تطور.

في رأيه، إن بالوسع إذاً، أن نبحث، ربما، عن أصل الحياة على كوكب غنيّ بالموليبدين.

ومضى يقول:

ـ غير أن ما أذهلنا أكثر من أي شيء آخر هو تماثل الحياة الأرضية اليوم.

أحسب أنني أفهم ما يودّ قوله، فعلى الرغم من التنوع الهائل في الأجسام الحية، فإن المبدأ الأساسي هو عينه. والأرض والتحوّل الغذائي (قوة التجدد والدثور والبناء والهرم في الكائن الحيّ) الخليوي يتمّ دوماً تقريباً على النحو نفسه. ويكفي قانون وراثي مفرد لعرض الحياة الأرضية بأسرها أو تحليلها. كيف تستطيع تركيبات كيميائية طارئة الاشتراك في القانون ذاته؟

وواصل كلامه:

ـ لو أن الحياة قد ظهرت، وتطورت تلقائياً هنا، لماذا ليس هناك تشكيلة كبيرة مزاحمة من أشكال الحياة؟ نحن ندري أنه في الحقيقة تنبثق كل الأجسام الحية من خلية واحدة هي ذاتها ظهرت على الأرض منذ ثلاثة

مليارات سنة أو أربعة؛ وليس هناك، حسب الظاهر، أيّ أثر لأجسام مزاحمة تطورت على نحو مختلف. ومن دون اللجوء إلى السحر، أو إلى الأشخاص الآتين من الفضاء الخارجي، تلك ظاهرة قابلة للتفسير تماماً، بلغة البيولوجيا. ولكنّ الأمر الذي يظل مذهلاً هو أنه لم يُعثر قط على أدنى برهان على وجود أقسام مختلفة عن الأجسام التي هي تحت أنظارنا.

وتبدو التتمة منطقية. إن الخلية الأولى الحية، وهي حُتَي پروتوپلازمي، قد تناسلت بالمليارات بتواتر متسارع. وقد تطورت الأجسام الجديدة التي نسلت على هذه الصورة، وقد أرغمت على التكيّف مع الحرارة أو البرد، بكيفية متباينة. ومع مرور الزمن، أعطت الخمائر (الأنزيمات)، والجينات (أو المورِّثات)، والأنسولين، واليحمور أو خضاب الدم؛ وقد تنظمت عظاماً، وعضلات، وأعضاء، ونسّقت وظائفها، وعملت على جعل القلوب تخفق، والرئات تتنفس، والأعصاب ترتعش، وأخيراً، أحدثت الفكر.

وأوجز لي الدكتور أوردجل تفكيره:

ـ إذا كان منشأ الحياة كوكباً آخر، وسواء أأوصلت الحياة بصاروخ أم بخلاف ذلك، فإننا ندرك بيسر وجود شكل مفرد من الحياة. إننا نتحدّر جميعاً من سلف واحد أحد: ذاك الذي هبط هنا.

ـ إذا كانت تلك هي الحال، فما هو تاريخ الحدث؟

ـ نحن نعلم أن الأرض تكوّنت منذ حوالى أربعة مليارات ونصف المليار من السنين، ونعلم كذلك أن الحياة بأشكالها البدائية ظهرت منذ أكثر من ثلاثة مليارات ونصف المليار من السنين. وعلى ذلك، إذا كان ما ندّعيه صحيحاً، فإن ذلك قد يكون حدث اضطراراً قبل أكثر من ثلاثة مليارات ونصف المليار من السنين، وأقلّ من أربعة مليارات ونصف المليار من السنين.

إن لديّ إذاً، ما أردته: بلغة واضحة، تعريف الـ«**پنسپرميا الموجَّهة**»؛

رؤية عالَم ناءٍ، في ما وراء منظومتنا الشمسية كثيراً، حيث تقرر كائنات مفكرة إيفاد مركبة فضائية لكي تضع على الأرض، على شكل طحالب (أو أشنات) صغيرة جداً أو أبواغ بكتيرية، جرثوم الحياة.

طلبت إلى الدكتور أوردجل أن يمنحني ساعة من وقته من أجل مقابلتنا المصوّرة على شريط. وكان مضى على محادثتنا ثلاثة أرباع الساعة، وقد توصلت تماماً إلى استشفاف ركام من الاحتمالات البعض منها أكثر غرابة وأروع من البعض الآخر.

ولديّ بعد أسئلة تستغرق، على الأقل، خمس عشرة ساعة. أسلافنا من عالم آخر، أي نوع من الكائنات كانوا، إذاً؟ بحسب كل بداهة، بلغت حضارتهم مرحلة أكثر تقدماً من حضارتنا. لأي سبب العمل على تلقيح كوكبنا؟ هل أن عملاً مثل ذلك يسهم في مشروع أكثر اتساعاً، مشروع يغطي عصوراً عدة؟

سوى أنه في عالم العلم الكثير الأشغال، فإن لي نوعاً ما تأثير الدخيل، فأتوقف إذاً هناك. وأطرح عليه، وأنا أرافقه إلى مكتبه مع ذلك، سؤالاً أخيراً:

ــ هل تعتقد أن الـ«**پنسپرميا الموجَّهة**» هي التفسير الحقيقي للحياة على الأرض؟

فيجيب:

ــ لا، إنها ليست سوى احتمال مثير للاهتمام.

ويغادرني وهو يتلفّظ بهذه الكلمات.

لدى عودتي إلى لوس أنجيليس، تبين لي أنني أُصبت بخيبة أمل، فالمقابلة لم تحمل إلي أي أجوبة، إنها وسّعت، وحسب، مجال البحث الذي أقوم به.

في سنة ١٩٧٢، أنتجت إذاعة متلفزة بعنوان «**على خطى روّاد الفضاء في الماضي**». وقدّمنا فيها عدداً من الوقائع التي تتيح تصوُّر أنه في العصور السحيقة مرّ على الأرض روّاد فضاء أقبلوا من مكان آخر... حيث اعتُبروا، على وجه الاحتمال، آلهة.

غير أن ذلك لم يكن سوى عمل استكشافي بسيط. واليوم، إنه بحث معمَّق أباشره.

لقد وضعت نُصب عينيّ هدف اكتشاف الدليل على أن شعباً مؤلفاً من أشخاص في الفضاء الخارجي قد يكون مسؤولاً عن جانب كامل من تاريخ البشرية. ولست أدّعي، بالطبع، أنني أحمل البرهان الحاسم على ذلك ـ فحيوات عدة مخصّصة للأركيولوجيا والبيولوجيا، لا تكفي لذلك، على وجه الاحتمال ـ ولكن أن أنكبّ وحسب، على عدد معيّن من الألغاز التاريخية التي لم تحلّ قط، والتي يجعلها تدخُّل التأثيرات المتوقعة في الفضاء الخارجي قابلة للتفسير.

إن الإذاعة المتلفزة هي الآن جاهزة. إنها بعنوان «**أسرار الماضي الكبرى**»، ولا يتبقّى علي، بعد، غير أن أجوب العالم لجمع المواد.

لمّا اطلعت زوجتي سالي على مشروعي، أبدت لي الملاحظة التالية:

ــ يبدو، لمن يسمعك، أن الأرض بأسرها ستكون موضع اختبار عالِم مجنون!

الواقع أن ذلك هو الحال، ربما. أفلم يكن تشارلز فورت، الذي كرّس حياته لأجل مقابلة أو مراجعة الظواهر التي لا يستطيع العلم تفسيرها، يقول على سبيل الدعابة: «وأنا أعتقد أننا لسنا مطلقاً سوى مِلكية، وأننا مِلك لأحد ما. وأنا أشك، من جهة أخرى، في أن عدداً ما من البشر، أعضاء سلك أو عبادة ما، هم على اطّلاع وإلمام بالأمر على الدوام، وهم يقودوننا نحن جميعاً كالخراف، بحسب تعليمات يتلقونها لا ندري من أين».

وبقدر ما كنا نتناقش في هذه الفكرة، سالي وأنا، بقدر ما كانت تطرح أسئلة، وبقدر ما كنت اضطر إلى اللجوء إلى المعارف التي كنت قد كدّستها خلال السنين الخوالي في كتابة نصوص أفلام مخصصة للطبيعة والعلم، وإخراجها.

في إذاعات متلفزة من مثل «**عالم القومندان كوستو الكائن تحت الماء**»، والسلسلة المكرّسة لـ «**جمعية ناشنال دجيوغرافيك**»، و«**فن البقاء**»، و«**المستكشفون الجدد**»، ثابرت، بوجه خاص، على التعلق بظواهر يمكن مراقبتها وملاحظتها أو إحداثها، بحسب الرغبة أو الإرادة. وبكثير من الصبر وقليل من الحظ، استطعت أن أصوّر بعض الظواهر اللافتة للنظر والرائعة في الحياة، أو أمثلة على توازنات بيئية، وعلاقات غريبة، أو ردود أفعال بيولوجية يسهل عليّ توضيحها بعبارات مفهومة للجمهور العريض. ولكن في «**أسرار الماضي الكبرى**»، ليس هناك مسألة توضيحات وشروح، بل يتعلق الأمر بالمجازفة بفرضيات متعددة. وقد استنتج مدير برامج شبكة «**أن. بي. سي.**» التي ستقدّم إذاعتي، من ذلك أنها ستشبه برنامج «**خالص أو ضعف**» من دون الأسئلة.».

[هذا البرنامج هو كناية عن رهان يستطيع فيه اللاعب، حين يقبل الاختيار المطروح، أن يضاعف أو يخسر الربح المكتسب سابقاً].

في خلال المناقشة، عرضت أمام سالي بعض الألغاز المحتملة أن تتضمن عناصر شرح أو توضيح جديد لتاريخ الإنسان. لماذا نجد، في جميع الثقافات الموجودة على الأرض، أسطورة طوفان عالمي؟ لماذا يضع البشر آلهتهم، غالباً جداً، في السموات؟ من أين اكتسبت الشعوب القديمة، على حين غرّة، معرفة شاملة بعلم الفلك؟

ولم تلبث زوجتي، على الرغم من تشككها، أن أبدت حماستها. إذاً بات لديّ منذ ذلك الحين شريكة من الطراز الأول في مشروعي. وبصفة

كونها كاتبة، وأستاذة جامعية، فإنها تعرف كلياً جميع أساطير الماضي وخرافاته، وهي باحثة متحمسة، ومفعمة دهاء.

إن الكتاب الذي ستقرأونه هو قصة بحوثنا، وتقرير عما اكتشفنا.

وقد اشترك آخرون في وضعه. فالعلماء والاختصاصيون الذين منحونا عن طيب خاطر ـ ولكن من غير ريبة ـ جزءاً من وقتهم لكي يسلّمونا معارفهم، ومن جهة أخرى، فريد وورشوفسكي، الذي جعلنا نستفيد من أفكاره الكثيرة بقدر ما هي متنوعة.

ولكن من أجل تبسيط القصة، سأتمسك، من الآن وصاعداً، بوجهة نظر واحدة: **وجهة نظري**، وسيتذكر القراء، في خلال المطالعة، أن آخرين قد ساعدوني بكيفيات متعددة.

هوامش المترجم

---

(١) **فرنسيس هاري كومپتون كريك**، من مواليد سنة ١٩١٦، عالم بالطبيعات أو الفيزياء الحيوية، حاز سنة ١٩٦٢ بالاشتراك مع كل من دجيمس وطسن وموريس ولكنز، على جائزة نوبل في الفسيولوجيا أو الطب لتحديدهم البنية الجزيئية للمادة الكيميائية المسؤولة عن الضبط الوراثي لوظائف الحياة (DNA). وقد اعتُبر هذا الانجاز على نطاق واسع أحد أهم الاكتشافات في البيولوجيا في القرن العشرين. وقد أتاحوا هكذا القيام بخطوة كبيرة في البحوث حول الوراثة.

وفي كتاب له صادر سنة ١٩٨١ بعنوان «**الحياة نفسها**» تأمّل في احتمال أن تكون الحياة على الأرض قد نشأت من جرثومة آتية من خارج المنظومة الشمسية.

(٢) **سفانت آرينيوس** عالم بالطبيعات سويدي (١٨٥٩ ـ ١٩٢٧) صاحب نظرية **الأيونات** وفرضية **الپنسپرميا** ـ وهو حائز على جائزة نوبل في الكيمياء سنة ١٩٠٣.

(٣) **دجيمس ألفرد ڤان آلن** عالم بالطبيعات أميركي، مولود سنة ١٩١٤، وهو مكتشف أحزمة الإشعاع في الجو الأعلى

٣

أبــواغ وآثــــار

لدى التفكير في صاروخ الأبواغ الذي تحدَّث عنه الدكتور أوردجل، أغوص ذهنياً في الأعماق المذهلة للعصور الجيولوجية لكي أتمثّل مظهر الأرض في حقبة وصولها الافتراضيّ.

إن طفولة الأرض الأولى انتهت، ولا ريب، منذ ثلاثة مليارات سنة أو أربعة مليارات. وقد اكتست القشرة مظهر صحراء معدنية، ساحة وغيّ، حيث ثارت العناصر تحت الألق الأدكن للمواد المصهورة من الحمم وهدير الهزّات الأرضية. هل كان للأرض هذا المظهر لمّا دخل الصاروخ مجال الجاذبية الأرضية؟

إن قذيفة مندفعة عبر الجو ومخلّفة وراءها أثر رصاصة خطّاطة (أي رصاصة مزوّدة بمادة مضيئة)، قد غاصت في بحر فاتر أو اصدمت بصخرة، محدثةً واحداً من هذه الصدوع اللولبية التي نلاحظها بعد في بعض الأماكن من السطح الأرضي.

ربما إن تأكل الحاوي (المستوعب) قد استغرق عشرة آلاف سنة، ولكن الأمر سواء. فالجزيئات (أو الدقائق) التي كان يشتمل عليها، كانت قادرة على البقاء في سكون، في خلال زمن غير محدود. أما في ما يتعلق بالأرض، فلم تكن قط في عجلة من أمر بلوغها النضج.

في آخر الأمر، عندما خرجت الجراثيم البالغة الصغر، اضطرت، على وجه الاحتمال، إلى مجابهة صعوبات هائلة للعثور على العناصر الكيميائية المغذية الضرورية لحياتها. مع ذلك إذا كانت فرضية الدكتور أوردجل صحيحة، فقد انتهى بها الأمر إلى العثور عليها. وإنه لممكن أيضاً أن يكون صاروخ أو سفينة في المدار قد اطلقا عدة حصص عبر الكوكب بأسره، وأن يكون قد بقي حياً جسم واحد أو جسمان اثنان، وحسب.

وإنه لمن تلك اللحظة، إذا ما كانت الأمور قد سارت هكذا، على الوجه الحسن، شرعت الحياة في صعودها الغامض. فمن خلية بالغة الصغر، متحدرة من النجوم المخصّبة بكيفية عجائبية، أبصر النور شيء ما، ونما وتطور ليقدم كائناً قادراً على كتابة سنفونيات، وتقدير كتلة السُدُم (السديم: نجوم بعيدة تظهر كأنها سحابة رقيقة).

ولكن، فكّروا في الوقت الذي استغرقه ذلك! هل بوسعكم أن تتصوّروا ما يمثله مليار سنة؟ جرّبوا، إذاً، نفسكم بالتمرين الذهني التالي: حاولوا أن تقدّروا، على نحو تقريبي، عدد الدقائق المنقضية منذ ميلاد السيد المسيح.

تحسبون أنكم ستتوصلون إلى رقم لا يحصى ولا يُعَدّ، يتجاوز ما يسعكم تصوره. هوذا ما يعتقده معظم البشر. لقد مرّ، والحالة هذه، «بالكاد» أكثر من مليار دقيقة منذ أبصر السيد المسيح نور الحياة.

إذا كانت الحياة قد ظهرت على الأرض قبل ثلاثة مليارات ونصف المليار من السنين، وإذا كان قد انقضى مليونان من السنين على وجود الجنس البشري، كما يعتقد علماء الإناسة (الإناسة: علم يبحث في أصل الجنس

البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته)، إذاً فإن عملية التطور البطيئة التي تذهب من القطرة الأولى للمجمّدة البروتوپلازمية إلى الإنسان، الكائن المفكِّر، كانت تستطيع أن تتكرر ألفيّ مرة منذ وجود الأرض، وسيكون باستطاعتها بعد أن تتكرر آلاف المرات في خلال الخمسة مليارات سنة التي ستكون في خلالها كرتنا الأرضية قابلة للسكنى، بوجه الاحتمال.

من أجل مساعدتنا على تمثُّل مثل هذه الحقب الطويلة من الزمن، يقترح علينا السر دجيمس دجينز[١] صورة برج ايفل، تعلوه قطعة نقدية من فئة خمسة فرنكات، وُضع فوقها طابع بريدي. فنسبياً، يمثّل البرج عمر الأرض، وتمثّل القطعة النقدية عمر البشرية، ويمثّل الطابع البريدي الزمن المنقضي منذ خطرت في بال الإنسان فكرة تقصيب الحجر ليصنع منه أداة.

ويعيدني ذلك إلى سؤال يشغل بالي: ماذا كان يرجو مرسلو الصاروخ أن يحصلوا عليه ببذرهم حبة ستستغرق وقتاً بهذا القدر من الطول الخارق للطبيعة لكي تبلغ النضج؟

إن مشهد النجوم كما يتبدى للعالم الفلكي ربما يخفي في ذاته الجواب. ففوق، نستطيع أن نلاحظ نجوماً في جميع مراحل التطور. فهناك نجوم قزمة، وحمراء قانية كالدم، تبلغ حراراتها «بالكاد» ألفيّ درجة. وهناك نجوم طيفية أو شبحية، تبلغ حرارتها نحو خمسين ألف درجة، «بالكاد» تُرى، في نطاق وقوع معظم إشعاعاتها في المجال غير المرئي من الأشعة فوق البنفسجية.

والنجوم مثلها كمثل البشر، تعرف أو تكابد صروف الزمن وتقلباته، وتنتهي إلى الهرم والشيخوخة. وفي ذات يوم من الأيام، ستضطرم شمسنا بنار هائلة تشوي كلياً سطح الأرض، ثم إنها ستتجعّد وتتقلّص لكي تغدو نجمة قزمة، وتكون «بالكاد» أكبر من الأرض، ولا تعود ترسل أكثر من حرارة ضئيلة. وعلى كرتنا الأرضية، سيكون لضوء النهار السطوع الأدكن لأضواء القمر، وستهبط الحرارة إلى مستوى مئتي درجة تحت الصفر.

إن عدداً من الشموس قد بلغ الآن هذه المرحلة، وهناك شموس أخرى تقع لدى كل مراحل الشيخوخة. والحياة الموجودة على الكوكب الذي تبلغ فيه الشمس هذه المرحلة ليست لذلك، من جهة أخرى، محكوماً عليها. يكفيها أن تنتقل إلى منظومة شمسية أخرى ما إن تضطرم شمسها وتتقد. إن العلامات المنذرة ستكون كثيرة على نحو كافٍ. إن الهجرة شطر كواكب أخرى لا ينبغي أن تكون سوى لعبة أطفال بالنسبة إلى ذكاء نوع عرف عدة آلاف من قرون الحضارة. وقبل ردح طويل جداً من حلول الأجل، يجب أن يكون بمقدور جنس أو عرق متقدم، على نحو كبير، الشروع في الاستعداد لعالم جديد بالنسبة إلى الذرّية (الأعقاب، والخلف).

ولكن هل هناك جنس هو قريب منا كفاية لكي يبلغنا حتى بسفن تسير بسرعة الضوء؟

طلبت إلى البروفسور سو شو هوانغ، الذي يدرّس علم النفس في جامعة نورث وسترن الأميركية، أن يقدّر احتمالات وجود شكل من الحياة في المنظومات الشمسية المجاورة لمنظومتنا الشمسية.

وهو يقول:

ـ إن لديّ شبه يقين أن الحياة موجودة خارج منظومتنا الشمسية، وأنا أستند إلى الإحصاءات. هناك كل المبررات للاعتقاد بأن النجوم المنتمية إلى شمسنا إنما لها أنظمة كوكبية.

ـ وما هي هذه المبررات؟

ـ إن النجوم المنتمية إلى الشمس لا تبث طاقتها إلاّ بجرعة صغيرة، ويكون لها هكذا مدى حياة يبلغ نحو عشرة مليارات من السنين.

وينبغي، والحالة هذه، من أجل أن تكون الحياة ممكنة على كوكب ما، أن تتمتع الشمس بمدى حياة طويل، على نحو كافٍ. وإذا كانت الحياة

قد ظهرت على الأرض، فإنما مردّ ذلك إلى أن شمسنا هي ثابتة، على وجه الخصوص، وإلى أنها تشع بانتظام منذ خمسة مليارات من السنين، وإلى أنها ستظلّ تشع بعد في خلال خمسة مليارات سنة أخرى.

ـ كم هناك من النجوم المنتمية إلى شمسنا في مجرّتنا؟

ـ إذا ما اعتبرنا، وحسب، مجرّتنا وحدها، فإن فيها أكثر من مليار نجمة من هذا النوع. وإذا ما اعتبرنا أن جميع هذه النجوم تعيش في المتوسط عشرة مليارات سنة، فيمكننا الاعتقاد بأن كواكبها ستعرف شكلاً معيّناً من الحياة. ما إن تظهر الحياة، حتى تتطور على نحو طبيعي، وليس ثمة أي سبب في ألا تتوصّل إلى مستوى متفوق من الذكاء.

أنا أتذكر أيام كان سائداً الاعتقاد بأن الكواكب هي نتيجة عارض كونيّ على جانب كبير من الندرة. غير أن علم الفلك قد تقدم تقدماً كبيراً في خلال السنوات الثلاثين الماضية. وقد حصلنا على اليقين أن عدداً كبيراً من النجوم، إن لم يكن مجمل النجوم، لها كواكب في المدار. وفي سنة ١٩٤٢، لمحنا كوكباً في جوار نجمة البجعة ٦١ المزدوجة، التي لا تبعد كثيراً جداً عن الأرض. ولو أن الكواكب كانت نادرة جداً بقدر ما كنا نعتقد في ذلك الوقت، فإن وجود كوكب منها قريب جداً من كوكبنا سيكون مصادفة خارقة للطبيعة.

إن السبعة آلاف نجمة المرئية بالعين المجرّدة، وعشرات الآلاف الأخرى من النجوم المرئية بوساطة الراصدة (الجهاز الخاص برصد الأجرام السماوية وتقريبها) تنتمي جميعاً إلى السديم اللولبي الذي يكوّن مجرّتنا: درب اللبّانة أو الطريق اللّبنية. والنجوم الأكثر هرماً في مجرّتنا هي أسنُّ من الشمس (= أقدم) ويمكن أن يبلغ سنها، بحسب رأي عالم فلكيّ، حوالى ثمانية مليارات سنة. وقد خمّن العالم السويسري الشهير فريتز زويكي[٢]، المقيم في الولايات المتحدة الأميركية، المدة برقم يبلغ مليوناً من مليارات السنين.

إن شمسنا هي نجمة عادية، نجمة قزمة، صفراء، تقع في منتصف الطريق ما بين النجوم الأكبر والنجوم الأصغر، وما بين النجوم الأكثر حرارة أو النجوم الزرقاء، والنجوم الجبارة، الحمراء التي تُعتَبر حرارتها الأقلّ ارتفاعاً. ويقدّر سو شو هوانغ أن في المجرّة هناك مليار نجمة شبيهة جداً بالشمس. لذا راجعت مؤلفات فلكية لكي أقف على ما يقال فيها عن احتمالات أن يكون لها هي أيضاً قدرات كواكب شبيهة بالأرض.

في داخل «مجرّتنا»، بحسب تقديرات الدكتور كارل سيغان(٣)، إن كوكباً من ألفيّ كوكب تقريباً هو نسخة طبق الأصل عن الأرض. ونستطيع أن نتصور تماماً أننا إذ نحط فيه، نستطيع أن نتنشق نفحة من الهواء الغنيّ بالأوكسجين، وأن نرفع عيوننا نحو السماء الزرقاء، وأن نقفز أو نركض بالسهولة عينها (فالجاذبية هناك مساوية) مثلها هنا على الأرض.

إذا كان اثنان بالألف من الكواكب في المجرّة هما حقاً قابلان للسكنى بالحياة على الشكل الذي نعرفه، وإذا كانت الحياة قد تطورت فعلاً، وفقاً للقواعد نفسها، وللسلّم الزمني نفسه مثلما حدث على الأرض، فإن الدكتور سيغان مستعد للتأكيد أن هناك، على الأقلّ، خمسين ألف حضارة ذات مستوى ذكاء يفوق مستوى حضارتنا، الأمر الذي يبدو لي أنه كثير... ولكنه صحيح أن مجرّتنا مؤلفة من مئة مليار من النجوم!

انصرف الخبير في البحوث الفضائية ستيفن هـ. دول، إلى دراسة مفصلة عن الاحتمالات التي تشغلنا في كتابه «**كواكب قابلة لسكنى الإنسان**» الصادر في سنة ١٩٦٤ . فقد حسب الاحتمالات التي تمتلكها نجمة من الحجم الملائم في مدار كوكب من الحجم الموافق، تفصلها عنه مسافة وافية، وتدور حولها بالسرعة الملائمة على مدار مناسب. وبالنظر إلى ما يعتبره تقديراً معقولاً، توصّل إلى الاستنتاج أن هناك، على وجه الاحتمال، ستة ملايين كوكب مشابهة في مجرّتنا، وفي كل كوكب منها شكل عاديّ من الحياة.

ويعتبر دول، وهو يتصور أن هذه الكواكب القابلة للسكنى موزعة بكيفية منتظمة نوعاً ما عبر المجرة، أن أقرب الكواكب إلينا يقع على مسافة سبع وعشرين سنة ضوئية من الأرض، وأن هناك في شعاع من مئة سنة ضوئية حول الأرض ما مجموعه خمسون كوكباً قابلاً للسكنى.

إنه لمن غير المستحيل ألاّ يكون أحدها قد أرسل الينا صاروخاً مملوءاً أبواغاً، ولكن، هل هذا سيسمح بالهجرة الجماعية للكائنات الحية؟ من يدري. . . إذا كان بمقدورها أن تدخل إسباتاً أو بياتاً شتوياً (فتور الحياة شتاءً في النبات وبعض أجناس الحيوان والحشرات) في خلال قرون عدة. والخروج من ذلك لدى الوصول إلى جوار الأرض. . .

غير أن ملاحظة ذات شأن تفرض نفسها هنا. فخلال رحلة فضائية، يتمدد الوقت أو يتمطى، بحيث أن روّاد الفضاء يعيشون، بلا علمهم، وقتاً أطول كثيراً. إن هذه الظاهرة المدهشة، التي كشفتها نظرية النسبية لألبرت آينشناين[٤]، قد تمّ التثبت منها اختبارياً منذ ذلك الحين. لقد قيس بدقة في الفضاء مدى حياة الجزيئات غير الثابتة المسمَّاة **مويون** (muons)، التي تنتقل بسرعة فائقة. وقد لوحظ أن حياتها كانت تمتد عندما كانت سرعتها تتضاعف. بالنسبة إلى جُزيئات المويون هذه، كان «الزمن» يبطىء. وعلى النحو عينه، إذا أنت وُجِدت على متن مركبة فضائية، فإنك لن تشيخ إلا بضع سنين، في حين أن البشر على الأرض إنما يحيون حياة كاملة.

ولكن لنعد إلى حسابات دول. إنّ وجود الحياة في شعاع قريب من الأرض يتكشف عن أنه محتمل أكثر فأكثر بقدر ما يتقدم في حساباته. ولقد عدَّ أربع عشرة نجمة من النوع المراد في شعاع من اثنتين وعشرين سنة ضوئية. وبحسب رأيه، فإن الاحتمالات هي الأكبر على كوكبيّ النجمتين الاثنتين الأقرب إلينا، بأقلّ من خمس سنوات ضوئية، وتنتميان إلى الشمس وهما ألفا (أ) و(ب) للعيُوق أو الظلمان (كوكبة تُمثَّل بشخص مقدمه مقدم إنسان من رأسه إلى آخر ظهره، ومؤخره مؤخر فرس)؛ إن هناك احتمالاً من

عشرة احتمالات، في رأيه، بالنسبة إلى النجمتين الاثنتين معاً، أي أنه بالنسبة إلى النجوم الأربع عشرة، هناك احتمال اجمالي قدره اثنان من خمسة.

في ما يتعلق بمجمل المجرّة، إذا ما كان كوكب قابل للسكنى، من بين ألفيّ كوكب، قد عرف شكلاً من الحياة الفطنة، فسنستطيع الاستنتاج أنه موجود ثلاثة آلاف حضارة. وعلى ذلك لن نكون وحدنا البتة.

إن حضارة واحدة، على الأقل، من هذه الحضارات الثلاثة آلاف، بوسعها أن تعيش عمرها ليس بآلاف السنين، بل بملايين السنين. وإذا ما اعتبرنا أن الأرض هي واحد من الكواكب الفتية أكثر من سواها القابلة للسكنى، فذلك احتمال لا ريب فيه على الاطلاق. علاوة على ذلك، إن الصبا المغالى فيه لنوعنا على المقياس الكوني (إذ إنه لم يظهر سوى في الألف السابع الأخير من تاريخ الأرض) يتيح لنا الاعتقاد بوجود مئات الحضارات المتقدمة على حضارتنا بألفيات عدة من السنين.

لبضع سنين خلت، وحدهم كتّاب روايات الخيال العلمي، كانوا يأخذون هذا النوع من الاحتمال على محمل الجدّ. ولكن منذ سنة ١٩٧٠، أقرّ معظم علماء الفلك باحتمال وجود كائنات ذكية على عدد من الكواكب. وقام علماء أميركيون، في إطار مشروع **أوزْما**، بالإصغاء إلى الإشارات اللاسلكية المحتملة الصادرة عن عوالم أخرى. في ما بعد، في إطار مشروع **سَيكلوب** أطلق أكثر من عشرين خبيراً في اختصاصات متنوعة، بحوثاً علمية حول وسائل كشف العقول التي تعيش في المنظومات الشمسية المجاورة.

في سنة ١٩٧٢، أعلن تقرير صادر عن «**أكاديمية العلوم الأهلية**»: «في هذه اللحظة بالذات، إن الوثيقة التي تحملونها بين أيديكم، ربما هي مخرّقة (= مثقوبة)، بموجات لاسلكية تبثّها مخلوقات نائية، موجات سيكون في وسعنا كشفها فيما لو استطعنا، وحسب، توجيه راصدة ـ لاسلكية في الاتجاه الصحيح، وضبطها على الذبذبة الصحيحة».

إن بوسعنا، نظرياً، أن نلتقط هكذا نوعين اثنين من الإشارات:

الإشارات التي سترسلها طوعاً، حضارة راغبة في التعريف بذاتها برسم سائر العوالم، والإشارات التي سترسلها، عَرَضاً، حضارات تبثّ مثلنا بوساطة الإذاعة (الراديو) والتليڤيزيون، وفي كلا الحالين، سيكون الخبراء قادرين على تمييزها عن الإذاعات اللاسلكية ذات المنشإ الطبيعي.

عند ذاك، اكتشفت أن علماء الفلك السوڤيات كانوا يقومون بالتنصُّت على حوالى خمسين نجمة قريبة. فمنذ سنة ١٩٦٣، عمدوا إلى تعيين موقع إذاعتيــــن لاسلكيتين محـدّدتين بدقة، صادرة إشاراتهما عن جوار نجوم صنّفها معـــهد كاليفورنيا للتكنولوجيا (CALTEC) تحت الاسمين CTA-21 و CTA-102 (الواحدة في كوكبة الحَمَل، والأخرى في كوكبة الفرس الأعظم). والطابع اللافت لهاتين الاذاعتين اللاسلكيتين إنما يتأتى من أن طول موجتيهما ـ وهو ما بين عشرة سنتيمترات إلى خمسة عشر سنتيمتراً ـ هو تماماً الطول الذي يختاره أي مرسل ذكيّ للاتصالات في ما بين الكواكب السيارة. فهو يسمح في الواقع، بتجنُّب أغلبية مخاطر التشويش الإذاعي والتداخلات، ولا تتعرض الاذاعتان لأن يخلط ما بينهما وبين الإذاعات الطبيعية التي يكون طول موجتها دوماً أعلى كثيراً.

في سنة ١٩٦٤، أطلق المتقدِّم بين علماء الفلك السوڤيات، نيكولاي كارداشيڤ، الفرضية الجريئة القائلة بأن الموجات اللاسلكية المشار إليها صادرة عن حضارة متقدمة كثيراً جداً على حضارتنا. لماذا؟ لأننا لن نكون قادرين على بثّ إشارات بمثل هذه القوة أو الشدة.

في أيّما اتجاه التفتُّ، أجدني مؤيِّداً في فكرة أن الحياة الفطنة والذكية ليست وقفاً على الأرض. ولكن يبقى هناك سؤال، مع ذلك: لماذا تمّ بالضبط اختيار الأرض لإرسال صاروخ الدكتور أوردجل ذي الأبواغ؟

إن تقريراً لإحدى لجان وكالة الفضاء الأميركية (ناسا) حول مشروع **سَيكلوب** أعطاني، بالنسبة إلى هذا الموضوع، شيئاً مؤقتاً:

إن إنسان اليوم، بصفة كونه نوعاً مسيطراً على الأرض، يجب أن يواجه تهديداً جديداً. ولاستعادة عبارات **بوغو** (حيوان خرافي صغير، فيلسوف إحدى القصص المصورة التي تُنشر في المجلات أو الصحف): «لقد حدّدنا هوية العدو: نحن أنفسنا!» إذا المرء لم يتعلم أن يجعل نبضاته الأساسية سامية من أجل البحث عن النوعية عوضاً عن الكمية، فإن الإخفاق لا مفرّ منه، وسيموت، ضحية جنونه الشخصي.

نحن لسنا، على وجه الاحتمال، أول عرق (جنس) في المجرّة يدرك هذه المشكلة؛ في الواقع يبدو تماماً أن وضعنا الحالي إنما هو النتيجة المباشرة للسيطرة التقنية على محيطنا، وهناك إذاً، فرص كثيرة لكي يجابه كل شكل من أشكال الحياة بلغ مرحلتنا من التطور، وضعاً مماثلاً.

وأكتشف، ليس من غير أي ذهول، أن التقرير يفترض كلية أن حضارة، ضيقة بتقنيتها الخاصة، كان بوسعها تماماً أن ترسل صاروخاً شطر كواكب أخرى بمثابة طوف إنقاذ.

إن بالوسع، ولا ريب، تصوُّر سيناريوات أخرى. كوكب يمطر المنظومات الشمسية الأقرب إليه بصواريخ أبواغ، لنقلْ مرة واحدة كل مئة ألف عام، ليجعل منها هدية للخلف، أو ببساطة، لكي يرى النتيجة على سبيل الاختبار.

في هذه الحالة الأخيرة، من السهل أن نتصوَّر أن المسؤولين عن الإرسال سيكونون راغبين في التثبت من صحة النتيجة بين وقت وآخر. ولقد قدّم دنكن لونان، كسند لهذه الفرضية، شروحاً مخالفة للمألوف. ولونان، الشاب الاسكتلندي، الملتحي، والمتحمس هو عضو **الجمعية البريطانية البَيْنسيّارية** (أي الواقعة بين السيارات). هوذا، بحسب عباراته الشخصية، ما عرضه لي:

ــ للمرة الأولى، في سنة ١٩٢٧، سُجّلت أصداء لاسلكية زمنية. وفي

خلال تجارب واختبارات مخصصة لدراسة الأصداء الطبيعية في وسط الجو الأرضي وفي ما وراءه، تلقت أوسلو (العاصمة النرويجية) في بعض فترات السنة أصداء فريدة جداً في نوعها بدت أنها صادرة من مسافة معادلة للمسافة التي تفصلنا عن القمر.

ولمّا سألته هل شاهد العلماء في تلك الفترة إشارات، هذا ما أجابني به:

ـــ لا. في تلك الفترة، اعتقد الباحثون أنهم إنما يواجهون نوعاً من الانعكاس الطبيعي، أو موجات لاسلكية مثلما يحدث في الفضاء. وقاموا بسلسلة من التجارب مباعدين ما بين الاشارات التي كانوا يبثونها. وعندما بثوا نبضات تباعد بين الواحدة منها والأخرى عشرون ثانية، حدث أمر غريب. انقطعت الأصداء في خلال حوالى خمسة عشر يوماً قبل أن تعود فتحدث من جديد، مسجّلةً، كما في السابق، تأخرها البالغ ثلاثاً وثلاثين ثانية. ولكن، بعد عشر دقائق، راحت تتباين، ولديّ هنا تسجيل لإحدى هذه التعاقبات.

لقد جذبني لونان إلى الوقوع في شركه.

ـــ على الجملة أنت تقول إن الإشارات كانت ذات معنى خاص.

فأجاب:

ـــ إن شرحي يستند إلى فرضية وجود مسبار فضائي سيكون هو من أرسل الأصداء.

إنه يقيم الدليل على وجود المسبار، بتفسيره رياضياً (= حسابياً) مظهر الإشارات التي أُرسلت نحو الأرض. وهو يتابعها على الخريطة حتى كوكبة بوتيس، موضحاً لي كيفية الترجمة بإحداثيات على الخريطة على شكل الإشارات. ويدلني على نجمة، ويمضي قائلاً:

ـ إن النجمة بعد أن تكون قد استنفدت احتياطيات الهيدروجين في

نواتها، كما يحدث ذلك طبيعياً في يوم أو في آخر، تقاسي مرحلة تتقلّص فيها نواتها، ويتمدد جوها الخارجي. وفي خلال هذه المرحلة، التي تُقدَّر بملايين السنين بدلاً من آلاف السنين، تطلق حرارة أكثر حدة، بحيث أن أشكال الحياة الذكية التي تقطن في منظومتها الكوكبية سترى نفسها مضطرة أولاً إلى الهجرة شطر كواكب أخرى في المنظومة نفسها، وسترسل إذاً مسابر فضائية لكي تذهب وتتعرف إلى كواكب قابلة للسكنى.

إن قسمين من العالم، دون أن يتّفقا، ومن استكشافهما مجالات بحث جد متباينة، حملا إذاً، الآن أجوبة عن أسئلتي. فصاروخ الدكتور أوردجل ذو الأبواغ، ومسبار الاستكشاف لدنكن لونان يضافان إلى لائحتي المتعلقة بالاحتمالات. غير أنه ما يزال لديّ بعد عدد كبير من الأسئلة للتفحّص.

لنسلّم بأن سفينة فريق بحري (= أميرال) قوية، وحدة آلية من نوع أو من آخر، تنتظر بين البرودات العملاقة في أسرة الشمس المشتتة. ألا ترسل بين آن وآخر، مركبات نحو الأرض؟

إن ذلك ليحملني على التكفير في الألغاز والأحاجي التي صادفتها في المؤلفات الفلكية. إن الجميع يجهلون لماذا يكون فوبوس الصغير، قمر كوكب المريخ الداخلي، الذي لا يزيد قطره على خمسة عشر كيلومتراً، كما تشير إليه أدواتنا المستعملة للقياس، أخفّ ألف مرة من الحجم نفسه من الماء؛ وإذا كان الرقم صحيحاً، يكون فوبوس، إذاً قوقعة مجوّفة، الأمر الذي حمل عالماً رياضياً سوڤياتياً شهيراً، هو الدكتور أ. س. شلوڤسكيي، على الاعتقاد بأن الأمر يتعلق، ربما، بقمر صناعي وضعه مستكشفون فضائيون في المدار. ولا شيء يسمح بالتأكيد، كذلك أن الأقرب من كوكب المشتري، من بين أقماره الاثني عشر، ليس مركبة فضائية عملاقة وُضِعت هناك. إن له، في الواقع العادة الشاذة وهي الاختفاء والعودة إلى الظهور بكيفية غير متوقعة كلياً، وتعديل مداره.

ولكن مهما تكن الحقيقة، فإنه سيبدو منطقياً أن مجتمعاً سبق أن كان

على اتصال بالأرض ـ حيث اكتشف شيئاً ما ذا قيمة ـ يجب أن يسعى إلى الاحتفاظ به، وعلى ذلك، إنه يرسل بين وقت وآخر مراقبين.

يذكّر ذلك بالدراسة التي قام بها سلاح الجو الأميركي حول الأشياء الطائرة التي لم تحدّد هويتها، وقد نُشر التقرير في سنة ١٩٦٩. فقد تفحّص سلاح الجو بالتفصيل تقارير قدمها ٩٩ شخصاً، للتوصل إلى الاستنتاج أن الأمر يتعلق، في معظمه بخداعات بصرية، ما لم يكن هؤلاء القوم هم شاهدوا أشياء عادية تماماً من مثل بالونات الأرصاد الجوية. غير أن ٤٤٠ حالة مستندةً إلى عدة شهادات، بقيت عصية على الشرح ودونما أي تفسير، ولعل السلاح الجوي الأميركي قطع تحقيقه لكي يقنّع حرجه وارتباكه.

وشيء آخر لا يمكن شرحه: لقد لوحظ أنه بانتظام كبير، وفي شهر أيلول من كل سنة، يتضاعف ظهور الأشياء الطائرة التي لم تحدَّد هويتها.

ولدى اطِّلاعي على أن شرطياً من ولاية جورجيا الأميركية شاهد شيئاً في أول أيلول ١٩٧٣، قرّرت الحصول على نص إفادته:

اسمه: ولتر كولدويل. وقد جرى الحدث الذي يروي قصته فيَ ما يلي، في مدينة مانشستر، من أعمال ولاية جورجيا:

ــ كان ذلك ليل أمس، حوالى الساعة الحادية عشرة. كنت واقفاً بجانب سيارتي عندما شاهدت نوراً يجتاز السماء. وفجأة توقّف، ورأيت شعاعاً ساطعاً يخرج من الأسفل. وبقي الشيء بلا حركة، ثم إنه انطلق بكل سرعة، ثم توقّف من جديد، واستدار أربع مرات متتالية بنسبة تسعين درجة، ثم عاد إلى وضعه الأولي، ولم أسعَ إلى تصوّر شيء. اتصلت لاسلكياً بزميل لي. فلما حضر، كنت ما أزال هناك، وقد شاهد الشيء نفسه قبلي.

ويسأل الشخص الذي يستجوبه:

ــ هل كان هناك شهود آخرون؟

ـ لقد استدعيت زملائي في پِيْن ماونتن، وزملائي في وورم سپرينغز، وأقبل أيضاً زميلان من لاغرانج. وقد بقينا ساعتين ونصف الساعة ونحن ننظر إلى هذه الآلة.

ـ هل كانت مرتفعة جداً؟

ـ ما بين ستة آلاف متر وثمانية آلاف تقريباً.

ـ كانت تؤلف زاوية من ٤٥ درجة، مع الأرض. وكنا نرى نوراً أزرق فوق، ولما كانت تقوم بالدوران، كنا نميز نورين أزرقين في كل جانب.

ـ في كل جانب؟

قال كولدويل:

ـ حسناً، كانت تبدو مستديرة. فضلاً عن الشعاع الساطع الذي كان يبدو في الأسفل، وكان يمكن القول إن هناك شيئاً آخر تحت، ولكنني لم أستطع أن أتبيّن ما هو.

ـ تودّ أن تقول إن الشعاع الساطع كان يضيء شيئاً معتماً أكثر في قاعدة الشيء؟

ـ كان يمكن القول إن ذراعين، أو لا أدري ماذا، كانتا تخرجان من الأسفل. أنا لم أرَ قط شيئاً مماثلاً. ويسألني كثيرون عمّا إذا كنت شاهدت صحناً طائراً، كما لو أنني قد رأيت من قبل صحناً طائراً! سوى أنني لم أرَ قط شيئاً من هذا النوع كذلك!

منذ القرن التاسع عشر، وقبل ابتكار حتى عبارة **الصحن الطائر** بوقت طويل، غزرت الروايات في الصحف عن أضواء تنتقل في السماء، وأشياء غامضة شوهدت في وضح النهار.

وما لم نرفض نهائياً جملة هذه الروايات، ينبغي حتماً الإقرار باحتمال

أن تكون مركبات فضائية قد دخلت، وغالباً، جونا. إن هناك كمية كبيرة من المؤلفات حول هذا الموضوع، ولكن مهما تكن وجهة النظر التي تدافع عنها، فإن قلة منها تعكف على تناول أسباب مثل هذه الزيارة المحتملة، يقوم بها أشخاص من خارج الأرض أو جوها.

إن نظرية تعرض بتماسك، تبعاً للتواريخ وللعدد، لسبب هذه الزيارات، ستكشف ربما، تاريخاً جديداً للجنس البشري، تاريخاً أطول وأكثر فرادة من التاريخ الذي يواجهه المؤرخون التقليديون. ربما سنكشف أن سكان الأرض يتحدرون من جنس جاء من مكان آخر. وإني أشرع، من جهة أخرى، في تلمُّس حدود نظرية شخصية بحتة.

هل تتوفر لديّ الآن العناصر الكافية؟ أنا أعرف، على الأقلّ، عدداً لا بأس به من الاكتشافات المتعذر شرحها (الغامضة) التي عثرت عليها في حوليات مختلف المجلات التقنية، حيث تغرق، رويداً رويداً، في طيّات النسيان.

إن سيل المعلومات الذي يتدفق منذ ثلاثين سنة في جميع مجالات المغامرة، أكره الباحثين على التركيز على اختصاصهم المحدَّد، فالاكتشافات التي لا تدخل الإطار الثابت والوطيد للمعرفة تميل إلى أن تُنسى بكيفية سريعة.

ولا يمنع ذلك من أن تغزر الاكتشافات الغامضة، وهذه إذاً، لائحة قصيرة بما أسميته «**أسرار الماضي**».

عرض لويس پويلز وجاك برجييه، وحلّلا، اكتشاف زخرفات ونقوش قديمة على هضبة في سلسلة جبال الأندز (في أميركا الجنوبية ـ أميركا اللاتينية) قام بها العالم الانثروپولوجي (= الإناسي) ج. أولدن ميسون، وكانت الزخارف من البلاتين المذاب. وإذا عرفنا، والحالة هذه، أن البلاتين يذوب على درجة ١٧٣٠، فإنه ليس لدينا أي برهان على أن شعباً قديماً قد

امتلك أفراناً عالية الحرارة أو أي تقنية أخرى قادرة على إحداث مثل هذه الحرارة.

ويشير الباحثان نفسهما إلى اكتشاف شيء مصنوع من مزيج الألمنيوم في ضريح قديم عمره ستة عشر قرناً. وطريقة استخراج الألمنيوم، وحدها، انطلاقاً من البوكسيت، هي الحلّ الكهربائي، التي اكتشفها العالم البريطاني مايكل فاراداي سنة ١٨٠٨.

ولمناسبة تصوير فيلم في كولومبيا، وجدت شخصياً شيئاً غريباً مصنوعاً من الذهب. كان بوضوح نموذجاً مصغراً لطائرة مطاردة نفاثة ذات جناح دلتا، يعود إلى ألفيّ سنة... ويتحدث إيڤانساندرسون، وهو ضابط استخبارات سابق في البحرية الملكية البريطانية، عن سلسلة من ذهب، صناعية الإنتاج، اكتُشفت في ولاية پنسلڤينيا الأميركية في عرق منجم حجري يعود تاريخها إلى ما يقلّ عن مليون سنة.

إن تقارير الأكاديمية الإرلندية الملكية بتاريخ تشرين الأول ١٨٥٢، تذكر اكتشاف أشخاص مختلفين حوالى ستين مكعباً «موزعة في مختلف أرجاء البلاد في ترتيب غريب ليس لديّ بشأنه أي حلّ أقدمه» ـ على ما يعلنه امرؤ يدعى الدكتور فريزر عقب تفحُّصها. والنقوش التي كانت تحملها بدت كأنها «حروف صينية قديمة جداً». وعلماء الآثار مجمعون على القول: لم يوجد قط أي صلة ما بين إرلندا والصين القديمة.

في صحراء موجاڤ [أو موهاڤ، في ولاية كاليفورنيا]، في طبقة صخرية تعود إلى ما قبل التاريخ، اكتُشف أثر خفّ أو نعل (صندل) لا يبدو أنه من إنتاج حِرَفيّ، ولكنه من إنتاج صناعي.

في سنة ١٩٠٠، عثر غوّاصون (غطّاسون) في عرض السواحل اليونانية، على قطعة من البرونز المتأكل. وقد اكتشف علماء الآثار الذين تفحصوها ونظفوها آلية معقدة كثيراً تشتمل على أكثر من عشرين دولاباً

(مجموع دواليب هذه الآلة)، مهمتها إدارة ميناءات تعطي معلومات فلكية دقيقة، على نحو مذهل ومعقّد، عن طلوع نجوم مختلفة، وغروبها، وسيرها. والنقوش التي تقدم طريقة الاستعمال هي بالإغريقية (اليونانية القديمة). ونحن لا نعلم أن الإغريق قد صنعوا قط آلات أو ماكنات من نوع أو من آخر.

في لا ڤنتا [موقع في ولاية تاباسكو، في المكسيك، كان حاضرة الحضارة الأولميكية ما بين سنة ١٠٠ و٦٠٠ قبل الميلاد]، يقال إنه اكتُشفت مرايا قديمة مقعّرة. ووفقاً لرأي المكتب الاثنولوجي الأميركي «في معهد سميثسونيان» يعادل صنعها، البالغ الدقة، مرايانا القطعية المتكافئة الحديثة، ونجهل ما كانت طريقة الصنع لدى المكسيكيين، ووجهة استعمالها من قِبلهم.

وفي سنة ١٩٦٨، اكتشف العالم البيولوجي كوريوم ميغرتشيان في أرمينيا، بقايا صناعة معدنية، كان يُستخدَم فيها عمّال يضعون قفازات في أيديهم ملاقط فولاذية، ويحملون مرشّحات فميّة واقية، الأمر الذي يحمل على الاعتقاد بأنهم كانوا يعالجون (أو يتعاملون بـ) تجميعات منمنمة ودقيقة، على وجه الخصوص. ويعود تاريخ هذه الأشياء، وفقاً لأقوال الخبراء والاختصاصيين، إلى نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.

وقبل ردح طويل من اختراع المقراب أو الراصدة (الجهاز الخاص برصد الأجرام السماوية وتقريبها)، كان **برج الرياح** في أثينا يحتوي على تصميم (= ماكيت) للكون وساعة (توقيت) معقّدة. وصانعها هو العالم الفلكي المقدوني أندرونيكوس كيرّوس، في سنة ٥٠ قبل الميلاد.

إن بوسعنا أن نشاهد في المتحف البريطاني، في لندن، ألواحاً مسمارية من بابل. وتصف هذه الألواح موضع كوكب ناءٍ لم يكن بالإمكان رؤيته من غير راصدة. وهذه الآلة، والحالة هذه، اخترعها العالم الإيطالي غاليليو، بعد بضعة آلاف سنة!

صوِّرت في دلهي، في الهند، برجاً من حديد لم يعرف خلال ١٥٠٠ سنة أثراً للصدإ، والحال أن اختراع خليط أو مزيج المعادن الحديدية أو المحتوية على حديد المقاومة للصدإ إنما هو اختراع حديث العهد جداً.

وما القول في لآلىء الكوارتز (المرو، أو الصوَّان، أو البلور الصخري) التي تزين عنق مومياء في كوثكو، في البيرو؟ إنها مثقوبة ثقوباً بالغة الصغر بحيث أن مثقباً مصنوعاً حديثاً جداً يمكنه أن يشتغل بالكوارتز.

إن كل واحد من هذه الأشياء الشاذة أو الخارجة عن القياس، يشكّل سرّاً في حدّ ذاته، ولكنه ينطلق في طريق لا ينفذ. يكفي عرض بسيط لهذه الأمور الغريبة لإنتاج إذاعة متلفزة موثَّقة، وليس لديّ أيّ وسيلة للقيام بدراسة معمّقة أكثر.

غير أنني سمعت حديثاً عن أسرار مدهشة أكثر بعد: أسرار تتعلق بحضارات قديمة غابت. وبالتنقيب ما بين الأطلال، لربما أسعفني الحظ كي أكتشف فيها حقائق مطابقة، قادرة على عرض جميع هذه الأشياء الخفية والغامضة، وتحليلها، وهي التي سترشدني، ربما، إلى اقتفاء خطى كائنات ذكية من ماضٍ سحيق.

هوامش المترجم

---

(١) السر دجيمس دجينز (١٨٧٧ ـ ١٩٤٦) فلكي وعالم بالرياضيات والطبيعيات بريطاني. كان من أوائل الذين قدموا إلى الجمهور العريض نظريات النسبية، والكمّات، وتحوّل العناصر، ومفهوم الطاقة النووية.

(٢) فريتز زويكي (١٨٩٨ ـ ١٩٧٤) عالم فلكي وفيزيائي سويسري مولود في ڤارنا (في بلغراد)، كان يعمل في الولايات المتحدة الأميركية، في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا، في مدينة پاسادينا من سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٧٢ . وبصفته مديراً للبحوث (١٩٤٣ ـ ١٩٤٦) في شركة الهندسة الجوية النفاثة، في أسوزا، في كاليفورنيا، ومن بعد مستشاراً تقنيًا فيها، طوَّر بعض أول المحركات النفاثة، بما فيها وحدات دجيتو (JATO) المستخدمة لإطلاق الطائرات ذات الحمولة الثقيلة من على مدارج قصيرة.

(٣) **كارل سيغان**، عالم فلكي أميركي، مولود سنة ١٩٣٤، وفّر تبصراً قيّماً حيال إدراك أصل الحياة على الأرض في بيئتها البدائية. وبالاشتراك مع دجيمس ب. پولاك ورتشارد م. غولدستاين، أدار سيغان دراسات راداريّة (١٩٦٦) بينت أن على كوكب المريخ قمماً قد يكون علوها ١٠ كيلومترات. ومع پولاك أظهر أن حرارة سطحية قدرها ٧٠٠ كلڤن (٤٢٥ درجة مئوية أو ٧٨٥ درجة فانهاريت) متساوقة مع الخصائص المراقَبَة بالنسبة إلى كوكب الزهرة. وفي سنة ١٩٨٠ كان منتجاً مشاركاً في البرنامج التليڤيزيوني المتسلسل «**الكون**» (cosmos)، والرواي كذلك.

(٤) **ألبرت آينشتاين** (١٨٧٩ ــ ١٩٥٥) عالم ألماني في الفيزياء، تجنس أميركياً سنة ١٩٤٠. وضع نظرية الحركة البراونية. وبتطبيقه نظرية الكمّات على الطاقة الضوئية، توصّل إلى مفهوم **الفوتون** (الضُوَيء، وهو جُزيء من الطاقة الضوئية في نظرية الكمّات أو وحدة الكمّ الضوئي)؛ وهو خاصة صاحب نظرية **النسبية** التي وسمت بعمق العلم الحديث. وكان مفرط الشغف بالعدالة، وغالباً ما تدخّل من أجل إقامة سلم دائم. حائز على جائزة نوبل في الفيزياء سنة ١٩٢١. وأما **الحركة البراونية** فهي الحركة المستمرة في الجزيئات المجهرية السابحة في السوائل. والبراونية هي نسبة إلى العالم النباتي الاسكتلندي روبرت براون (١٧٧٣ ـ ١٨٥٨) الذي وصف ٤٠٠٠ نوع جديد من النباتات في أستراليا، واكتشف الحركة البراونية السابق ذكرها.

٣

البحر في الجبل

ها أنذا على الطريق، وفريسة الاكتشاف.

ليس بالوسع القول إننا نقوم بدعاوة صاخبة حول الأركيولوجيا (علم الأثريات، علم العاديّات)؛ إنه، مع ذلك، نشاط في الهواء الطلق وفي وضح النهار، صحيّ جداً، ومفعم بالإثارة، ينصرف إليه وحسب، تقريباً، الاختصاصيون. ومثلما هو الحال في أي رواية بوليسية، تجد نفسك مواجهاً لغزاً: ثقافة غابت وهي في أوج السطوع. وتكتشف جسم الجريمة: آثاراً صامتة تختبىء فيها طائفة من التفاصيل الكفيلة بإغراء أيّ قصّاص أثر أو متعقّب: شهادة الحجارة المحفورة (المنقوشة)، قصاصات قماش، وقطع من الخزف، وكتابات مرموزة، وهياكل عظمية مدفونة، وعادات منقولة، شفهياً، من جيل إلى جيل.

ولجعل اللغز أكثر بعثاً على الدهشة، مزجت القرائن، أو أنها كانت موضع تفسيرات خاطئة أو مغلوطة، أو أنها ضاعت بفعل الحماقة قبل وصول أول تحريّ إلى أماكن الجريمة. وإذا حاولت أن تعيد تركيب الحدث،

يقتضيك ذلك صبر هاوي المُربكات (المُربكة نوع من لعب الورق معقّد) يكون لديه علاوة على ذلك، شغف بالألغاز الرمزية (ألغاز الصور المقروءة بأسمائها) ويتطلب ذلك منك أكثر أن تكون شاباً بما فيه الكفاية لكي لا تخشى الرحلات الطويلة والمنهكة، وأن تتوقع أن تعامَل، أنت كذلك، كمشبوه. إذا أنت امتلكت كل هذه الفضائل، تتوفر لك كل الحظوظ للتعرُّف إلى لحظات مثيرة وممتعة، لدى عودتك إلى البيت، وأن تُعتبر إما اختصاصياً كبيراً، أو مجنوناً.

يبدأ تحقيقي، على أهدإ ما يكون، في المكتبات أو دور الكتب. فلقد مضى قرن من الزمن على انكباب البحاثة والمنقبون من العباقرة على سرّ المدن الميتة، وأرغب في التأنُس باكتشافاتهم.

إذاً أكبُّ بكل ضمير حيّ على هذه المهمة، ومع مرور الأيام، أشرع في استشفاف وجود سرٍّ أعلى يضم كل الأسرار الأخرى.

إنه لا يتعلق بالسبب الذي ماتت به الحضارات القديمة، ولكن بالحري، بالطريقة التي وُلدت بها. من أين تأتي، في البدء؟ وهل هي تطورت، فعلاً، ببطء لامتناهٍ، كما يفترض الأساتذة التقليديون؟

إن الشروح المبتذلة أو العادية التي تخطر عادة في البال لا تقيم أي اعتبار أو وزن لعدد من الوقائع أو الحقائق.

إن فكرة هاذية هي الآن في طور التشكُّل في خاطري. وبقدر ما قد تبدو شاذة، فإن لا شيء ممّا أقرأه لا يلغيها.

فهنا وهناك، ظهرت على حين غرّة، ثقافة ما ذات مستوى متقدم، كما الانفجار. هل كان بوسع الحضارات أن تنبثق انطلاقاً من جرثوم سحري بُذِر في ليل الزمن؟

إذا كانت تلك الحال، فأعتقد أنني أدري أين حدث ذلك.

هناك مكان حيث أن **السيدة الطبيعة** ليست معتدلة. إن الجبال هائلة، وتعقب الشمسَ المحرقةَ نهاراً الليالي الجليدية. أنا أدعوكم، على ذلك، إلى الطيران معي شطر البيرو.

إن جغرافية البيرو الطبيعية تميزها عن أي بلاد أخرى من العالم: أمواج جبارة تتدفق على شواطىء الرمل الأسود على ساحل صحراوي حيث لا تمطر السماء تقريباً مطلقاً؛ وجبال هائلة وشديدة الانحدار لا ينبغي أن تعجز عن جعل البشر يفكرون في الإحساس بأهميتهم الشخصية. وفي قلب هذه الجبال، ما بين سلسلتين اثنتين رئيسيتين، تنبسط هضبة فسيحة الأرجاء ومرتفعة جاثمة في السماء، حيث تشرف على بحر من السحب، في حين أن الشمس تكويك في هواء جليدي.

هذا هو الألتيپلانو[1] ـ السهل المرتفع ـ على ظهر جواد على الحدود غير المرئية التي تفصل ما بين البيرو وبوليڤيا، على علو ثلاثة آلاف متر. إن البعض يدعونه **سقف العالم**. وهو يرتفع أكثر قليلاً من الحسا، في التيبت (في آسيا، مع الإشارة إلى أن سلسلة الجبال هذه تعرف كذلك بـ«سقف العالم»).

في المنطقة الشمالية الأكثر تسطحاً في هذه الصحراء الجرداء التي تكسحها الرياح، هناك بحر داخلي، **بحيرة تيتيكاكا**[2]، التي يقول عنها أحدهم إنها كانت «أروع امتداد ماء في العالم».

ما هو الرائع في هذه البحيرة؟ قبل كل شيء، إنها البحيرة الصالحة للملاحة الأكثر ارتفاعاً في العالم، وتقع على علو ٣٨١٢ متراً عن سطح البحر. وهي من الاتساع بحيث أن المرء إذا ما وقف على ضفتها فوق ربوة صخرية، تختفي الأرض في البعيد وراء الأفق، ويخال المرء أنها المحيط. وهي بطول ١٨٣ كيلومتراً وعرض ٥٢ كيلومتراً، في أنحاء، وتغطي ٨٣٠٠ كيلومتر مربع. أما مياهها فعذبة، ومن البرودة بحيث أنها تشلّ[3].

في أثناء العمل الذي قمت به لإنتاج حلقة من «**عالم القومندان كوستو الكائن تحت الماء**» سمعت حديثاً عن بحيرة تيتيكاكا، ولكن لدى رؤيتها أول مرة، أذهلني عدوان المحيط. وما إن أضع قدمي على الألتيپلانو، حتى يجنّ قلبي في صدري، ويخفق الدم في صدغيّ وأصاب بدوار ـ كما لو كانت جاذبية الأرض نفسها تنخفض ـ والهواء نادر جداً وجاف جداً بحيث أنه يحرق أنفي وحلقي.

إن الحياة تبدو غريبة بالنسبة إلى هذه الأماكن. وبالنسبة إلينا ليست المهمة سهلة. الشموع تضيء على نحو سيّىء ولا ترسل سوى ضوء خافت في الجو المفتقر إلى الأوكسجين. ونيران المخيّم لا تدفىء مطلقاً. أما الماء فيغلي على درجة ٨٧ مئوية، وحسب، بحيث أن طهو بيضة نمبرشت يتطلب ضعفيّ الوقت الذي يتطلبه ذلك لدى مستوى سطح البحر.

إذا ما استعملت للعجين كمية الخميرة العادية، فإنه يروح ينتفخ كالبالون: فالضغط الجوي ليس، في الواقع، سوى ٦١٦ مليباراً (وحدة لقياس الضغط الجوي تساوي جزءاً من ألف من البار، وهو بدوره وحدة للقياس المذكور) بينما هو ١٠١٣ مليباراً على مستوى سطح البحر.

وتجد المحركات صعوبة في الانطلاق، وهي تفقد تقريباً ثلث قوّتها. وعلى الطائرات أن تدرج مسافة ثلاثة كيلومترات، على الأقل، قبل أن تستطيع الإقلاع. ولا تنبت البذور في هذه الأرض الجدباء. ويروون هناك أنه لم تضع قط أيّ امرأة بيضاء طفلاً على الألتيپلانو.

نحن لم نتعوّد قط حقاً على المناخ(٣) كنّا نصاب بالغثيان، والشقيقة (صداع نصف الرأس). إني أتعرّق في الشمس ولكن برداً بالغاً يخترقني، ولا يتوقف مطلقاً الطنين في الأذنين، إني أرتعش وسط الحرارة، وأبلغ حدّ الهذيان؛ أتصوّر سحرة، وكل أنواع الأعاجيب تتحقق في ليل الأزمنة.

يقدّر غطاسو القومندان كوستو عمق بحيرة تيتيكاكا بمئتيّ متر، على

الأقلّ، وهم لم يعثروا على ذهب شعب الإنكا المغمور هناك، وفي حينه، خيبت أملنا كثيراً الأفلام التي حملوها من الأعماق.

لقد قال لي كوستو، في هذا الصدد: «حبذا لو عرفنا كيف نفيد من التاريخ الأركيولوجي»!

غير أنني أذكر أنني قاطعته بقولي:

ــ جاك، إن الحجارة وعظام الموتى لا تهم البشر، إنهم يريدون أسماكاً، والمغامرة الكائنة تحت الماء.

ولكن بعد ذلك بسنوات كثيرة، وعلى ضفة البحيرة، أُدرك أخيراً ماذا أراد قوله.

يتألف السكان بأغلبيتهم من هنود حمر، إنهم الوحيدون الذين يعيشون في ضواحي البحيرة. وقد صادفنا منهم كائنات حية، وصموتة، ولحى. مع ذلك، في صور ما قبل التاريخ، أقام أسلافهم تماثيل لأنبياء ملتحين.

لقد انقضت تقريباً عشرات السنين الآن على استجواب المستكشفين هنود الألتيپلانو الحمر ـ مستكشفين بيض ذوي نظارات ينتمون إلى هذا العرق الهجين الجديد الذي سميناه «ڤوقازياً» الذين يتدربون على مطالعة تاريخ الماضي ـ ولكن السكان الأصليين اكتفوا دوماً بالتفرُّس في وجوههم، وتقديم أجوبة غامضة إليهم. ولغة هنود الألتيپلانو هي الإيمارية، الأمر الذي يردّني إلى نقطة مهمة. في اللغة الإيمارية، تعني تيتيكاكا، حرفياً «صخرة اليَغْوَر» (= نمر أميركي استوائي مرقّط يبلغ طوله أحياناً ١٣٠ سنتيمتراً).

لماذا اختير اسم أحد السنّوريات للإشارة إلى هذا البحر الجليدي؟

إن لدى العلاّمة جواباً جاهزاً تماماً: قبل وصول شعب الإنكا، كانوا يعبدون إلٰهاً له رأس يَغْوَر، في كلّ مكان تقريباً في الجبال، وكانت البحيرة، على وجه الاحتمال، مكاناً للعبادة.

صحيح أننا نجد في البيرو بأسرها أصناماً معبودة لها رؤوس سنوريات. وقد اكتشفت رؤوس يَغْور وپوما (الكوجر أو الأسد الأميركي) على خزفيات وأقمشة يعود تاريخها إلى ألف سنة قبل الميلاد. ويُجمع معظم الثقات في مادة الأركيولوجيا على الاعتقاد بأن أول حضارة حقيقية پيروفية (نسبة إلى البيرو) مشتركة مع ظهور إلّه يَغْوَري. إن عبادة الإله، رمز القوة والحكمة الفائقة الطبيعة، كانت تمتد عبر الأودية والسلاسل الجبلية، حتى الغابة الكثيفة المتلبدة (الديسة) إلى الشرق، والمحيط غرباً.

وتبقى دهشتي: لماذا يَغْوَر؟

إن أول جواب يأتيني من مصدر غير متوقَّع بتاتاً كلياً: من روّاد الفضاء الأميركيين الذين صوّروا البحيرة من على قمر صناعي في المدار، على ارتفاع ٢٥٠ كيلومتراً عن الأرض.

ولدى رؤيته الصور، هتف عالم أركيولوجي يعرف جيداً المنطقة: «إني أرى اليَغْوَر!».

تشبه بحيرة تيتيكاكا، مرئية من الفضاء، النُقيشة (النقش الضئيل البروز) ليَغْوَر براثنه جميعاً بارزة، وهو فاغر الشدق، ومتأهب للانقضاض على أرنب هاربة (بحيرة أصغر قريبة من هناك).

إن الجنس (العرق) الذي سبق شعب الإنكا على ضفاف البحيرة لم يكن باستطاعته رؤيته من الجو (الفضاء)... ما لم...

بالطبع، ربما كان السبب أقلّ غرابة. لعلّ البحيرة كانت محجّة للإله يَغْوَر، مع أنني لم أشاهد أي مثال أو رسم حجري في تلك النواحي.

ولكنني أعرف من بعد أنه ينبغي لي اقتفاء أثر ذلك الجنس الغامض، وأندفع باحثاً عنه عبر ممرات الزمن اللانهائية.

لما وصل راعي الخنازير السابق الإسپاني الرحالة فرنشسكو پيزارو مع حفنة المغامرين الذين رافقوه إلى الپيرو سنة ١٥٣٢، كان ذلك من أجل اكتشاف الحضارة الأكثر تقدماً في عصره: أمبراطورية الإنكا المترامية الأطراف، ذات الملايين الستة من الرعايا.

وقد اكتشفوا كذلك عدداً من الآثار المهجورة.

فوق القمم والذرى، تنتصب أسوار رفعتها أيد مجهولة. وعلى المرتفعات التي تبعث على الدوار في بوليڤيا اليوم، التي كان يدعوها الإسپان في تلك الحقبة «الپيرو العليا»، تقوم آثار وبقايا مبانٍ حجرية هائلة يجهل الإنكا أنفسهم مصدرها، ويعلنون للفاتحين الإسپان أن مهندسيهم كانوا ينتمون بلا أدنى ريب، إلى عرق اختفى، وهو مجهول، لعلّهم كانوا جبابرة... أو آلهة.

لقد وجد البحاثة الحديثون في كتابات مدوّني الأخبار (= كاتبي الحوليات) في القرنين السادس عشر والسابع عشر عوناً قيِّماً. فقد روى هؤلاء كتابة، وحتى أدنى التفاصيل، كل ما شاهدوه وسمعوه، جامعين كل مقتطفات التاريخ التي استطاعوا التقاطها. وليس للإنكا تاريخ مكتوب. وعلى الرغم من موهبتهم في الحكومة، لم يخترع الإنكا قط الكتابة، لم يكونوا يعرفون سوى نوع من الاختزال المعقد على أساس عُقَد خيطية متعددة الألوان، مفهومة، وحسب، من «الذاكرات»، الأشخاص المولجين بحفظها، وتغدو عصية على حلّ رموزها عقب وفاة هؤلاء.

كان هذا النظام يُعرف باسم كيپو. ولدى دراستها عن كثب أكثر، لا يسعني أن أمتنع عن الاعتقاد بناظمة آلية. فهل أن الإنكا أو الذين سبقوهم خطرت لهم الفكرة عقب رؤيتهم الناظمة الآلية التي يكون قد حملها إليهم الزوّار من الفضاء الخارجي؟ وكان الكيپو، من بين أشياء أخرى، أداة رياضية (حسابية) بالوسع تسميتها «ناظمة آلية حِرَفية».

كانت حضارة الإنكا تتوقف كلياً، بمعنى ما، على **الكيپو**. كان ذلك النظام الوحيد الذي تعرفه تلك الأمة الكبيرة لكي تحفظ وثائقها وسجلاتها، أو لكي تحلّ مسائل الرياضيات.

لمّا كان المهندسون الإنكا يضعون خرائط المباني، أو الطرقات، وأعمال الريّ، لم يكن لديهم أيّ مؤلَّف يتيح لهم تحديد سماكة أسلاك جسر معلّق، أو عنصر لتسجيل الأسماء والأرقام على خرائطهم، وموضعة مواقعها، وكانوا يحفظون المعطيات ويقومون بحساباتهم في الرياضيات بوساطة **الكيپو**.

والكيپو هو حبل بطول ستين سنتيمتراً تقريباً، مؤلف من خيوط متعددة الألوان مجدولة معاً، معلّق به أطراف صغيرة من الخيوط، على طريقة الشرّابة. وبدلاً من حفر علامات على لوح، أو الكتابة على قصاصة ورق، كان الإنكا يقومون، وحسب، بعمل عُقَد في الخيوط. وكانت العُقَد تمثّل الأرقام، ويقوم **الكيپو** بوظيفة الآلة الحاسبة. وكانت العقد، وفقاً لعدد الزردات التي تؤلفها، تمثّل الأرقام من واحد إلى تسعة، والصفر كان يصوَّر بفسحة. والإنكا، بفضل **الكيپو**، كانوا يستطيعون حلّ المسائل بدقة وبسرعة أذهلت الإسپان.

وفي حين كان شعب المايا يستخدم نظاماً يتألف من عشرين رقماً (كان المايا مجهولين في البيرو)، فإن سكان جبال الآندز[٤]، كانوا يستعملون نظاماً عشرياً. وكانوا، إذاً يعرفون مفهوم الصفر، المفهوم المجرّد أكثر مما نعبّر عنه بمفهوم الصفر، وكان لديهم، طبيعياً كذلك، فكرة عن القيمة العددية.

كان مخترع **الكيپو** من دون أدنى ريب، شخصاً جدّ ذكي.

كان شارلكان (الملك شارل الخامس) عاهل إسپانيا وأمبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة، يجهل، وكان يمكن أن يكون عاجزاً عن معرفة عدد سكان إسپانيا، ووزن المحاصيل الزراعية، وقيمتها، وحتى أبسط عناصر الإحصاء الاجتماعي أو الاقتصادي. وعلى النقيض، كانت كل

حكومات أراضي الإنكا تعرف، بفضل الكيپو، عدد رعاياها الدقيق، وكانت تعرف ما عدد الذين يحق لهم من بينهم حمل السلاح، وكم هو عدد النساء، وما هو حجم مجموع المحاصيل في موسم ما، وكذلك توزيعها الجغرافي، وتوزيع الاحتياطيات المحفوظة في المخازن والمستودعات، وكم بلغت الخسائر في الحملة العسكرية الأخيرة، في جانبهم وفي جانب العدو.

وفي كل عام، كانت تُرسَل إلى العاصمة ربطات الخيوط المتعددة الألوان لكي يشكلوا ما يمكن تسميته الإحصاء أو التعداد العامّ، ودار المحفوظات (الأرشيف)، والخزينة العامة، وسائر الدوائر المختلفة. ولا عجب إذاً، أن ينتصر الإنكا في الكثير من المعارك العسكرية. ولا عجب أيضاً أن يُذهل الرهبان الإسپان الجهلة الذين يؤمنون بالخرافات حيال الاستعمالات المتعددة والمتنوعة لنظام الكيپو.

وبصفة كون الكيپو نظاماً للتوثيق (وهو مجال بعد تستخدم فيه الناظمات الآلية الحديثة) فإنه لم يكن أقلّ بعثاً على الدهشة. فالكاهن موررووى يروي أنه التقى شخصاً مسناً من الإنكا، سرد له، وهو يعالج عقد الكيپو خاصته، محتوى التقويم المسيحي كاملاً، دون أن يُسقط الأعياد والبَيْرمونات (البَيْرمون هو عشية العيد الديني المسيحي)، وقد صنعه قبل سنوات وهو يستمع إلى أحد الرهبان.

وهكذا، كان الكيپو في آن معاً، نظام ترقيم عددي وحساب، وطريقة مساعِدة للذاكرة، وفهرساً أو جدولاً لكل الوقائع التي يرغب الإنكا في الرجوع إليها. وبالنسبة إلى شعب أميّ، فإنهم كانوا يتصرفون هنا بنظام متقن إلى حدّ لا يصدَّق. ولا يسعني ألاّ أعتقد أن إلآههم الأبيض القديم هو الذي كشف لهم جميعاً مبدأه.

إن روعة حضارة الإنكا التي لا تعود إلى أكثر من قرن من الزمن قبل الغزو الإسپاني، وتقاليدهم لا تلقي في شيء مطلقاً ضوءاً على ماضي الپيرو السحيق أكثر، بعد. والأساطير التي كانت شائعة بين الشيوخ الذين كان

بوسعهم معرفة أكثر منها خنقها البذاخون الإنكا الذين غدوا أسياد الآندز. ومنذ ذلك الحين، إذا أردنا جمع قطع المُربكة التي ستحدثنا عن فترة ما قبل التاريخ البيروڤي، فلا ينبغي الاعتماد إلا على الاتحاد ما بين العلم والخيال.

يؤكد العلماء أن البشر كانوا يحيون في الآندز قبل أحد عشر ألف سنة خلت على أقل تقدير. وحتى، على وجه الاحتمال، قبل ذلك بزمن طويل. كان شعباً بدائياً من الصيادين ـ كما نقرأ في جميع كتب الجغرافيا الوجيزة.

لمَ لا؟ ولكنني لا أتوصل حتماً إلى أن أتصور من أين جاءت المعارف والمهارة والكياسة التي أتاحت لهم أن يخلّفوا تراثاً مذهلاً جداً إلى هذا الحد. إذ ذاك أكتشف أن السؤال عينه يُطرَح في أوساط كبار الاختصاصيين.

قام عالمان أركيولوجيان بيروڤيّان هما خوليب تلّو ورفاييل لاركو هويل، اللذان عملا بالاشتراك مع البروفسور وندل بينيت، من جامعة ييل الأميركية، في سنة ١٩٤٠، بعدد من الاكتشافات أقنعتهما بأن شعباً متحضراً قد احتل منطقة فسيحة الأرجاء تقع على ظهر جواد فوق وسط البيرو، وشمالها. متى؟ على وجه التقريب جداً، قبل الإنكا بألفيّ سنة.

في وقت معيّن، حفر هؤلاء الجبليون، أسلاف الإنكا، شبكات هائلة من قنوات الريّ، وكانوا يستخدمون السماد لتخصيب الأرض والتربة. وكانوا يعرفون مبدأ صهر المعادن، والتلحيم. وكانوا ينسجون الديباج (البروكار: النسيج المقصب بخيوط الحرير والذهب) والشاش، والسجاجيد.

ينبغي مشاهدة سجاجيدهم، إنها تعدّ أحياناً ٢٥٠ خيطاً من الصوف في السنتيمتر المربع الواحد. وأجمل السجاجيد الأوروپية قبل ظهور الحرفة الميكانيكية، لم تعدّ قط أكثر من خمسين خيطاً في السنتيمتر المربع الواحد.

والذي يثير الدهشة بعد أكثر، هو عدد الجماجم التي أجريت لأصحابها، وهم أحياء يُرزقون، عملية الحَجّ (= عملية ثقب العظام) وقد شفوا منها على وجه تامّ. ولم يسع أي عالم أركيولوجي قط أن يقدم في هذا

الصدد شرحاً معقولاً. هل أن الپيروڤيين القدامى في عصر ما قبل التاريخ اكتشفوا أن الجراحة الفصّية (جراحة تجرى في فصوص المُخ الجبهية) تسمح بشفاء بعض الاضطرابات العقلية؟ مهما يكن من أمر، فإن لدينا البرهان على أنهم كانوا يقومون بمساعدة مشارطهم المصنوعة من البرونز بعمليات جراحية ذات دقة مذهلة.

إذا ما ألفيتم صعوبة ما في تصديقي، استمعوا، بالحري، إلى الدكتور روي مودي، الذي يعلن في كتابه «**دراسات في الپاليوپاثولوجيا**» [علم الأمراض في العصر الحجري القديم، أسبابها وأعراضها]: «لم يبرهن أي بشري بدائي أو قديم في مختلف أرجاء العالم على مهارة جدّ كبيرة في علم الجراحة مثل مهارة الپيروڤيين السابقين للكولومبيين، فقد قاموا بعمليات بتر أعضاء، واستئصال أعضاء، وتطعيم عظميّ، والمعالجة بالكيّ، وعمليات أخرى كثيرة أقلّ دقّة».

في رأيي، كان بوسعهم كذلك أن يمتلكوا عتاداً إلكترونياً. إن الذهب هو موصِّل ممتاز للكهرباء، فأصحاب المقام الرفيع من الإنكا كانوا يضعون في آذانهم، من دون سائر الأنواع، أقراطاً من ذهب كبيرة الحجم كانت تغطي آذانهم كلياً، ومن هنا التسمية «**أوريخون**» ــ الآذان الطويلة ــ التي أطلقها الإسپان عليهم. هل كان الأمر يتعلق بسمّاعات؟ هل كان بالوسع وصل الصفائح الذهبية بأسلاك مزروعة في الدماغ؟

يقومون اليوم بعمليات زرع من هذا النوع لوقف انتشار نوبات الصرع، ولإتاحة المجال لمدمن الكحول لكي يتغلّب على ضعفه بضغطه على زرّ «لقطع» تعطُّشه إلى الكحول، ومن أجل إعطاء علامات اختبارية في المختبر، على أحاسيس السرور الشديد.

لو أن الإنكا عرفوا وسيلة لمضاعفة ذكائهم، ووقاية أنفسهم من الأمراض، بخضوعهم لعمليات زرع مثل تلك التي سبق أن وصفناها بإيجاز، فإن الصفائح الذهبية كان يمكن استخدامها لإخفاء الأسلاك. ماذا وإلاّ لماذا

أربكوا أنفسهم بهذه الصفائح المزعجة وغير ذات فائدة؟ لقد أجهد المؤرخون أنفسهم كثيراً لإيجاد تفسير، وقد انتهوا إلى تقديم تفسير: إن الإنكا الذي أطلق هذه الزينة ربما فقد أذناً من أذنيه في خلال إحدى المعارك فأخفى على هذا النحو، جرحه. وعلى أثر ذلك، حذا حذوه البلاط بأسره، ربما...

وسيكون من الشيق القيام بتقمُّص صفائح الأذنين هذه على يد اختصاصي إلكتروني، وقد عثرنا منها على عدد كبير كانت تحمله المومياءات في أضرحة الإنكا.

في خلال وقت طويل جداً (تبقى التواريخ مجهولة)، أقام البيروڤيون السابقون للكولومبيين مدناً في الجبال. أين نجد في العالم جبليين هم في الوقت عينه مدنيين (سكان المدن)؟ فتضاريس الأرض لا تسمح بالبناء على نطاق واسع وكبير، دون اعتبار أن مجرد حقيقة العيش في مثل تلك الارتفاعات يجرّ معه في حدّ ذاته استهلاكاً كبيراً للطاقة. ولكن هناك مع ذلك، مدن معلّقة على سفوح شديدة الانحدار في سلسلة جبال الآنذ. مدن لم تظهر على نحو عفوي مثل غالبية المدن القديمة أو الحديثة، ولكنها كانت تستجيب لتخطيط مدني يلحظ إقامة الشرفات، وأنظمة الريّ، ومن الداخل أسوار ضخمة، وطرقات جيّدة التخطيط. وكانت إحدى هذه المدن تغطي مساحة ثلاثين كيلومتراً مربعاً. ولسنا نجد أي عاصمة أو حاضرة ذات أهمية، في أوروبا أو في الولايات المتحدة الأميركية، قبل القرن التاسع عشر.

من بين جميع الأنصاب الحجرية الصامتة التي زرعها أسلاف الإنكا على طول سلسلة جبال الآنذ، هناك نصب من أكثر الأنصاب غموضاً بالنسبة إلى الأنصاب الأخرى. إنه قلعة (حصن) أولّنتايامبو، الذي يبدو تشييده أمراً لا يُصدَّق تماماً.

إن جدرانه هي من كتل حجرية مسوَّاة جيداً، تزن الكتلة منها أكثر من اثني عشر طناً، وكل كتلة كانت، على ما يبدو، من مقلع يبعد مسافة اثني

عشر كيلومتراً من المكان. إذاً، تطلّب إيصالها إلى هناك اجتياز صدع أو فُرجة يبلغ عمقها نحو ألف متر.

في قعر هذه الهاوية، كان ينبغي اجتياز سيل (حامولة) هائج يجحف (ينقل) حصبات ضخمة، كما لو كان الأمر يتعلق بحصىً أملس بسيط. ولم يكن هناك أي وسيلة لمدّ جسر على الحافتين الملساوين في الصدع. لعل المهندسين أنشأوا نوعاً من هويس القنوات [لرفع السفن أو خفضها من مستوى إلى آخر] في مجرى السيل لنقل الكتل الحجرية.

ولكن كيف استطاعوا رفعها إذ ذاك نحو المرتفعات التي تبعث على الدوار؟ إننا لا نشاهد طرقات أخرى غير الدروب الضيقة التي تسلكها الحيوانات المعروفة باللامة (جمل أميركا).

لم يرفع بناة مدن الآندز، مهما كانوا، إلى الأوْج الملوك والزعماء، أو يطنبوا في إطرائهم. فقد كانت الأشغال العامة مخصَّصة لرفاه السكان. ولم يكن هناك بشر أغنياء، ولا عبيد، ومزارعون في خدمة مالكين موسرين. والنقود غير ذات الفائدة، لم يكن لها وجود.

ومن عقد من السنين إلى عقد آخر، ينقب الأركيولوجيون، ويزنون، ويقيسون، بحثاً من معالم جديدة، وآثار جديدة عن الشعب الغائب الذي استعمر الآندز في خلال قرون وقرون قبل غزو الإنكا. وكل اكتشاف جديد يطرح ثانية للبحث ما اعتقدوا أنهم يعرفون. يعترف ألفرِد كيدر الثاني، وهو شخصية بارزة في جامعة پنسلڤينيا الأميركية، في تقرير نُشر سنة ١٩٦٤: «إن فصولاً كثيرة من تاريخ الإنسان في أميركا اللاتينية تبقى بكراً... إننا ما نزال نجهل منشأ القطن للغزل... وتطور صناعة الخزف، التي يعود تاريخها، بحسب تأريخها «بطريقة الكاربون ١٤» [نظير مشع من الكربون ينشأ في الجو، ومقدار الكربون ١٤ يتيح تأريخ شيء ما] إلى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد، وتبقى كلياً لغزاً... وإن مسألة معرفة ما إذا كان الإنسان في أميركا القديمة قد أعد ثقافته الخاصة أم إنه استوردها، قد أوحت بأكثر الافتراضات طيشاً».

أنا أودّ أن أقدّم افتراضاً طائشاً مباشراً الآن. هل أنت مستعدّ لمتابعتي في هذه الرحلة الخيالية؟

لنفرض أننا، أنت وأنا، رائدا فضاء، ليس أرضيين، ولكن من واحد من آلاف الكواكب القابلة للسكنى، التي تخفيها، وفقاً للحسابات، مجرّتنا.

لقد أُطلقنا في الفضاء منذ زمن بعيد جداً، في مسار محدَّد بناظمة آلية. وعقب أن انتُزعنا من جاذبية كوكبنا، تمددنا على فراشينا المبطّنين، تاركين الآليات المؤازرة تتولى مسارنا. ولم نسمع ونحن نرقد أول صفير للغاز خفيف جداً.

ويغادر الهواء وهو يصفر كبسولتنا، وتتبدّد حرارته في برد الفضاء، ويزول التعفن والفساد بفعل البرد والفراغ؛ إننا نرقد في رمس سيبقى أطول من كل رموس الكوكب من حيث العمر، حتى عمر الكوكب نفسه. ولكن ليس، وحسب، رمساً: إن الماكنات تنتظر ساعتها، وكل مئة سنة، تنفتح دارة وتنغلق لكي تحدّد القرون.

نحن نرقد، إذاً، في الكون، خارج متناول شمسنا. وعلى العالم الذي غادرناه، تسقط المدن مهدَّمة، وتذوب الجبال، وتغيض البحار، وتتقدم الثلوج إلى السطح كلّما بردت الشمس. ونجهل كل ذلك، مع أننا سبق أن توقّعناه، على وجه الاحتمال.

وتتعاقب القرون، وتعقب آلافُ السنين آلافَ السنين، وتنقضي أبديات، وعلى حين غرّة، في آخر الأمر، تتذكر مركبتنا الخارقة الأوامر المتلقاة منذ زمن طويل.

وتختار مسارها تبعاً للمعطيات المبرمجة في دماغها المنمنم. ومن بين ملايين المنظومات الشمسية المحتملة، تختار المنظومة الشمسية التي تدفىء كوكب الأرض.

ولا تخفّف سرعتها إلاّ بوصولها ليس بعيداً عن الكواكب الداخلية، وهناك، في المنطقة المعتدلة حيث تدور حول نفسها كل من الكواكب المرّيخ، وفينوس (الزُهْرَة)، والأرض، وتشرع في البحث عن، والتعرُّف إلى الكوكب من النوع الذي تبحث عنه. وعند ذاك تضع نفسها في المدار حول الأرض.

وفي خلال لحظة، تنقّب الناظمة الآلية في ذاكرتها الالكترونية، وتتفحّص الوضع. ثم إنها تتخذ قراراً. وإذا كان بوسع ناظمة الكترونية أن ترفع كتفيها، فذلك ما ستفعله. وتذكّر بأنه إذا لم يكن ذلك الكوكب ملائماً فباستطاعتنا أن نمضي للبحث في مكان آخر.

وببطء شديد تدفئنا كردّ فعل على إشارات أجهزة إحساسها الخارجية. هل ما زلت تتابعني؟ سنبقى، أنت وأنا، لحظة ممدَّدين، وسط تشويش تامّ؛ نعلم أننا موجودان، ولكننا نجهل من نحن، ومن أين نأتي، ثم إن الذاكرة تعود إلينا. ونتقد من فرط الإثارة. إن الفضول الذي دفعنا إلى الانطلاق في الفضاء لهو على الطريق لأن يكافأ.

وإذ استيقظنا الآن تماماً، فإننا نراقب من عَلُ العالم الذي اخترناه. إن له الحجم الملائم تقريباً مثل حجم العالم الذي سبق لنا أن غادرناه، إن فيه محيطات، وقارّات، وجوّاً. ونضيّق مدارنا لكي ندرسه عن كثب أكثر.

إن خاصيات الجو الكيميائية تتفق مع الخاصيات التي نعرفها. هل أن الكوكب مأهول؟ إن الاختبارات التي تتيح لنا أن نستدلّ على وجود الكربون في الكائنات الحية تتكشف عن أنها إيجابية.

هل سيكون المناخ حاراً بالنسبة إلينا؟ وغير حار جداً؟ إن فروقات الحرارة تبدو محتملة في أجزاء عديدة من الكرة الأرضية.

هل أن السطح تضربه هزّات أرضية؟ ليس كثيراً، بحسب كل مظهر،

وتشير التصاعدات الكهرمغنطيسية إلى هزّات ضعيفة هنا وهناك، غير أن مستويات النشاط هي ثابتة. إن تلك علامة حسنة.

قوة جاذبية الأرض؛ هي تشبه قوة جاذبية أرضنا.

هناك صعوبة مع ذلك: إن أغطية هائلة من السُحُب تحجب عنا الأرض. ولكن عقب دورتنا على أقرب نقاط أو (مهاوى) من الأرض وذُرىً مختلفة حول الكوكب، شاهدنا ما فيه الكفاية من الأمور المُرضية لتبرير استكشاف في الموضع نفسه، وعلى الطبيعة.

ونقترب أكثر بعد. وعلى ارتفاع منخفض نُسقط أجهزة قياس وتوجيه حسنة البرمجة لكشف مياه عميقة الغور، حيث يسعنا أن نهبط بنعومة.

ونبحث عن مساحة واسعة من المياه تقع غير بعيد عن سهل مكشوف، في أعلى مكان ممكن؛ وبقدر ما يكون الارتفاع كبيراً، بقدر ما يكون ذلك أفضل بالنسبة إلينا. إننا نفضّل الجوّ القليل الكثافة والنقيّ لكي نحدِّد مخاطر العدوى ووجود الغازات السامة، ولكي نتيح لمركبتنا أن تمتصّ طاقة شمسية.

وتقوم ناظمتنا الآلية بآخر حساباتها لكي تقرّر مكان الهبوط. والمكان المبرمج سيطابق، مثلاً، موقع البحيرة ذات شكل الكوجر، أو الأسد الأميركي (اليوما).

إذاً، على هذه الهضبة الجرداء الهائلة، ننهي رحلتنا الخيالية، سنهبط، أو، على الأقل سنبذر الجراثيم التي سيعطي اصطلاحها الوراثي **الإنسان** [بوصفه نوعاً بيولوجياً (homo sapiens)]. ونستطيع، وقد أُنجزت مهمتنا، أن نمضي، وأن نعود، ربما من وقت إلى آخر، لمراقبة المحصول...

أمجرد خيال أو تصوّر؟ بالطبع. ليس هناك أدنى احتمال لأن تكون الأمور جرت على هذا النحو، غير أنه جرت تماماً أحداث نادرة وشاذة على ضفة بحيرة تيتيكاكا، قبل آلاف السنين. والبراهين ما تزال هناك إلى الآن.

نجد على ضفة البحيرة «مقابر» رائعة من حجارة مستديرة يعود تاريخها إلى عدة قرون قبل مجيء الإنكا. وقد عثر العلماء الأركيولوجيون على جميع أنواع الأشياء المختلفة التي تثبت أن ضفاف البحيرة كانت مأهولة بالسكان، في حين أن المنطقة هي أبعد من أن تستطيع أن تكفي نفسها.

وبالوسع أن تتصوَّر تماماً أن عبادة اليَغْوَر قد بدأت هنا، كتذكار لشكل البحيرة مثلما شاهدها المؤسسون وهم يهبطون من السموات.

في الواقع، نحن نجهل منشأ هذا الدين. إن البعض يجعله في المكسيك، حيث كان الأولميكيون، أسلاف الآزتيك، لهم أيضاً إلٰه هو اليَغْور. وآخرون يحسبون أنه ظهر في طرف الغابة الأمازونية، حيث يكثر هذا الحيوان ـ اليَغْوَر. وآخرون، في النهاية، يجعلون مهد هذا الدين في موقع بحيرة تيتيكاكا.

مهما يكن من أمر، فإن عبادة اليَغْوَر توقفت فجأة لأسباب مجهولة حوالى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد، أو تقريباً نحو هذه المدة. غير أن الحضارة الپيروڤية لم تختفِ مع عبادة اليَغْوَر. لقد تفجّرت، وحسب، وتطوّر كل جزء منها على حدة.

عقب ذلك بزمن طويل فرضت ديانة جديدة نفسها، هي الأولى التي تشمل من جديد الپيرو بأسرها. وأين أبصرت هذه الديانة الجديدة النور؟ على أراضي الألتيپلانو المقفرة والموحشة، على بضعة كيلومترات، وحسب، من بحيرة تيتيكاكا.

وتروي أساطير الإنكا قصة ظهورها. وتصف بعض الروايات وصول بعض الآلهة إلى امتداد المياه الهائل (وبحسب روايات أخرى، يتعلّق الأمر بنور باهر)، وقد حملت ولدين اثنين لتأسيس عاصمة الإنكا في وادي كوثكو الخصيب. ولتخليد ذكرى موضع ولادتهما، أقام الإنكا شرفات على جزيرة تقع وسط البحيرة. وما تزال قائمة هناك إلى الآن الشرفات، شبيهة بدرج

هائل ينتصب على قمته معبد حجري يدعى **منزل الإنكا**. وأعترف بأنني لدى مشاهدتي آثار هذا النصب، تساءلت كيف استطاع ولدان أن يظهرا على الجزيرة.

إن **جزيرة الشمس**، كما كانوا يدعونها، كانت الموقع الساحلي لأمبراطورية الإنكا، التي هبطت أسرتها المالكة من السماء، بحسب الاعتقاد.

ورغبةً مني في الاستزادة من الميثولوجيا الخاصة بالإنكا، انكببت على كتابات پيدرو دو ثييثا دو ليون، التي تعود إلى سنة ١٥٥٣: «على حدّ قول الهنود الحمر في المنطقة، كان الأقدمون يصدّقون قضية ظهور شمس متألقة على جزيرة الشمس. ولهذا السبب أقاموا معبداً تكريماً لهذه النجمة، وجعلوا من الجزيرة مكاناً مقدّساً».

هل كانت الشمس المتألقة مركبة فضائية منطلقة في الفضاء؟ وأقرّر التوسع أكثر في الاستكشاف. ويحمل إليّ غرثيلازو دو لا ڤيغا معلومات قيّمة. كان أبوه إسپانياً، وأمُه أميرة من الإنكا. وهذه ذكريات خاله الإنكا، كما رواها لابن اخته لمّا كان هذا بعد حَدَثاً: «اعلم أنه في الزمن القديم، كان البشر يحيون كالحيوانات بلا دين، وبلا حكومة، وبلا مدن، وبلا منازل».

«ولدى رؤية أمّنا الشمس الحالة التي يجد فيها الجنس البشري نفسه، أرسلت الأرض فتى وفتاة لتعليمه.

«وضعت أمُنا، إذاً ولديها الاثنين على بحيرة تيتيكاكا، وقدمت إليهما التوصيات التالية: «أنا أصنع الخير للعالم أجمع، فأمنح البشر النور لكي يروا، وأدفئهم بحرارتي. انتما بصفة كونكما ولديَّ، احذُوَا حذوي؛ ستتكرّسان كلياً لتعليم هؤلاء البشر الذين يحيون كالحيوانات وتوفير الرفاه لهم. ومنذ الساعة سأجعلكما سيدين لكي تخدما هذه القارة» ».

إن سؤالين اثنين يطرحان نفسيهما. أولاً، ما هو مصدر وحي هذه الأسطورة؟ وثانياً، لماذا بحيرة تيتيكاكا؟

إني أتذكّر، وأنا أنقب في حنايا ذاكرتي، ما قد علمته عن بحيرة تيتيكاكا، في خلال العمل الذي قمت به بالاشتراك مع القومندان كوستو.

كان فريق عيل كوستو قد صوَّر في تلك الحقبة اكتشافاً أركيولوجياً لافتاً. ففي قعر البحيرة، كان يقوم جدار أو سور بناه الإنسان، وكانت الكتل الحجرية مسوّاة فيه وفقاً لطريقة ما تزال حتى أيامنا هذه غير مفسَّرة.

كان السور المغمور، عمودياً بالنسبة إلى الضفة. وباتّباع وجهة السور نحو الجنوب الشرقي، يبلغ المرء، على بعد خمسة عشر كيلومتراً من هناك، موقعاً أركيولوجياً مشهوراً جداً.

إنه موقع تياهاواناكو، الذي أتوجه إليه دونما إبطاء.

هوامش المترجم

---

(١) **الألتيپلانو** [السهول العليا] ويُعرف كذلك باسم **پونا**، هو منطقة في جنوبي شرقي الپيرو وغربي بوليڤيا، يبدأ شمالي غربي بحيرة تيتيكاكا في جنوبي الپيرو، ويمتد إلى مسافة حوالى ٩٦٥ كيلومتراً جنوب شرق إلى الزاوية الجنوب غربية لبوليڤيا. وهو سلسلة من الأحواض البيجبلية (الواقعة بين الجبال) على ارتفاع نحو ٣٦٥٠ متراً فوق سطح البحر، مفصولة برُعُن (أُنوف جبال) تمتدّ شرقاً من سلسلة الجبال الغربية. وعلى الجانب الشرقي من الألتيپلانو، هناك ممرّ متواصل من المنحدرات اللطيفة تنبسط باتجاه الجنوب عبر بوليڤيا.

(٢) تذرع البواخر جيئة وذهاباً هذه البحيرة الجبلية **تيتيكاكا**، [ثانية أكبر بحيرة في أميركا الجنوبية بعد ماراكيبو] البالغة مساحتها ٨٣٠٠ كيلومتر، الأمر الذي يجعلها بحراً أكثر منها بحيرة. وهي تقع بين بوليڤيا والپيرو. صنعت أولى السفن ذات الحمولة البالغة عشرة آلاف طن، في سنة ١٨٦٢، انكلترا، وشُحنت إلى مياة مولندو في الپيرو، ونقلت إلى أعلى الجبل حيث البحيرة، قطعة قطعة، وهناك تم تجميعها لتمخر مياه أعلى بحيرة في العالم.

والغريب في الأمر أن هذه السفن لا يزعجها الصدأ مطلقاً لأن مياه بحيرة تيتيكاكا لا تسبب التأكسد للمعادن التي تغمرها. والغريب أيضاً أن مياهها عذبة ومالحة في آن معاً: عذبة حيث العمق، ومالحة حيث التبخر السريع يجعل المياه القليلة العمق، الضحلة، مالحة قليلاً. ولعلّ أغرب كل الأمور المتعلقة ببحيرة تيتيكاكا أنها لا تتجمد مع أن حرارة المياه فيها تراوح نقطة التجلّد. وهي أفضل طرق المواصلات بين بوليفيا والبيرو.

يصب أكثر من ٢٥ نهراً مياهه في هذه البحيرة، التي تبرز من مياهها ٤١ جزيرة، بعضها كثيفة السكان. ويتقلب مستوى ارتفاع مياهها معاً موسمياً، وفي خلال دورة من السنين. ففي خلال الموسم الممطر (صيفاً، من كانون الأول إلى آذار) يرتفع مستوى البحيرة عالياً ليعود إلى التراجع، أثناء أشهر الشتاء الجافة. وقد اعتُقد سابقاً أن تيتيكاكا إنما تجف ببطء، سوى أن الدراسات الحديثة بدت أنها تدحض ذلك، مشيرة إلى دورة نظامية نوعاً ما من الارتفاع والانخفاض.

أما معنى **تيتيكاكا** فهو غير مؤكد، ولكنه تُرجم على نحو متباين إما «**صخرة الكوجر**» [الكوجر أسد أميركي] أو «**صخرة الرصاص**».

(٣) كان الهنود الحمر في الألتيپلانو موضوع بحوث بسبب تكيفهم الخارق للعيش في الأماكن العالية جداً. وتدلّ الدراسات على أن قلوبهم، ورئاتهم، وطحالهم هي جميعاً أكبر حجماً من الأعضاء لدى الذين يعيشون على مستوى البحر، في حين أن النِّقي أو مخّ العظم، يصنع مزيداً من الكريات الحمر لالتقاط جزيئات الأوكسجين من الهواء النادر.

(٤) **الآندز** سلسلة جبال كبيرة تسيطر على الساحل الغربي لأميركا الجنوبية اللاتينية، وتمتد على مسافة ٧٥٠٠ كيلومتر من ڤنزويلا شمالاً إلى «أرض النار» جنوباً [أرض النار هي أرخبيل من الجزر تقع جنوبي الأرجنتين وتشيلي، وكان يُعرف سابقاً باسم أرخبيل ماجيلان]، ويفصلها عن القارة مضيق ماجيلان. ويبلغ علو قمة جبل آكوناغوى في سلسلة الآندز ٦٩٥٩ متراً.

٤

القاعدة الفضائية الرقم واحد

إن لديّ الانطباع بأنني أعيش حلماً. إني أتسلّق الزمن ملاحقاً ماضي الإنسان، عبر صحارى الغموض الفسيحة. وتغمرني العزلة.

وتختفي الطرقات في الصحراء، آثار صخور مُبْيضَّة غامضة ـ تذكُّرات مبهمة لطرقات الإنكا ـ بُنيت في القرون الوسطى لثقافتنا الخاصة. وقليلون هم الإنكا الذين أقاموا هنا. اليوم، إن المنظر مقفر، ولا نشاهد فيه أي أثر للحياة.

مع ذلك، فإن حواسّي هي كالمشحوذة بنقاوة الهواء القليل الكثافة الذي لا يُصدَّق، وأُلاحظ، على حين غرّة، بقعاً من اللون في البعيد، بقعاً متحركة، ورديّة ساطعة، وبرتقالية غامقة، وحمراء قانية: تنانير الهنديات الحمراوات.

ويتمهل تفكيري لدى هنود بوليڤيا الحمر هؤلاء. شعب غريب

وكالضائع منذ اختفاء العالم القديم. لماذا ما يفتأ يتيه على هذه الهضبة الفسيحة الأرجاء في رحب السماء؟ في إحدى أكثر مناطق الكرة الأرضية فقراً منذ أزمنة سحيقة؟ إن الأرض المحتجرة (الكثيرة الحجارة) لن تتوصّل مطلقاً إلى توفير الغذاء لبعض القبائل النادرة التي تنتشر فيها.

إنهماالسلبية والكوكا (نبتة يمتزج فيها الكوكايين وهي من الفصيلة الكتّانية)، بلا ريب، ما أبقى الهنود الحمر في هذه الأماكن. وقد سمعت أن السكان الأصليين في الألتيپلانو إذا ما مضغوا ورق الكوكا، فليس من أجل التحليق في السماء السابعة، ولكن لتلطيف إزعاجات الجوع، ولمنح أنفسهم وهم القوة من أجل حراثة حقولهم غير الخصبة. إنهم يعتقدون أنها هبة من الآلهة التي نقلها إليهم أسلافهم الإنكا.

ولدى بلوغي نهاية رحلتي في خط مستقيم، فإن ما يقع تحت ناظري يعيدني إلى هذا الشعب المتضوّر جوعاً. فهل أن أسلاف هؤلاء الهنود الحمر نصف الموتى من الجوع كان بوسعهم إبداع مدينة مماثلة؟ هل أن مجموعة صغيرة من البشر كان باستطاعتها بناء تياهواناكو؟

إن تياهواناكو هي اليوم أطلال، بالطبع، ولكنها لم تغدُ أقلّ مهابة وجلالاً. وتتفق جميع الشخصيات ذات الشأن في ميدان الأركيولوجيا على اعتبارها أحد أعظم الاكتشافات الهندسية المعمارية في أميركا اللاتينية. وهي تفترض أنها كانت عاصمة أمبراطورية سبقت أمبراطورية الإنكا في العهود السحيقة جداً. فقد كانت إقامة أسوارها الهائلة تستدعي مئات الآلاف من الاشخاص، ما لم يكن السكان قد استعانوا برافعات ذات قوة استثنائية، أو بسرّ استرفاع (رفع جسم بقوة الإرادة وحدها) وهو ما نجهله نحن.

إن المستعمرة المهجورة تمتدّ على سهل مساحته ثلاثة وأربعون هكتاراً (الهكتار هو عشرة آلاف متر مربّع). وأتيه عبر الأطلال، فريسة لتأملاتي. وتصفر ريح مثلجة على طول الأسوار المتداعية، وتثير زوابع من الضياء في الهواء الدقيق والشفّاف، لكأنه نذير بالعاصفة.

وبمحاذاتي آثار ما كان يمكن أن يكون صالات فسيحة، وشرفات، وأسواراً، وغرفاً تحت الأرض. ألاحظ من بعيد تلاً من حجر... إن لم يكن هرماً مبتوراً؟ وأغامر بنظرة إلى داخل ما تبقّى من المنازل المبنية بالصوّان؛ مساكن الكهنة، بحسب أقوال بعض الخبراء.

إن الأحاديات الحجر (صفة تطلق على الأعمدة أو المسلات المنحوتة من كتلة حجر واحدة) تونّد طريقي. أنظر إليها، وأحاول تصوُّر ماذا تمثّل. ولكن ثلاثين قرناً على الأقل من الشودان (مختلف العوامل الجوية غير المألوفة أو غير العادية) جعلتها متغيرة، ولا تُعرف بسهولة. لعلها كانت أوثاناً أو تماثيل للتزيين والزخرفة، أو أعمدة دلالة (علامات إرشاد) عملاقة. إن معناها يتلاشى في ظلام العصور.

إن منحوتة واحدة عملاقة تمثّل مظهراً مألوفاً على نحو غامض. إنها تحمل نوعاً من الخوذة وعلبة غريبة على الصدر. إنه يشبه، كما قد يتبادر إلى الذهن، رجلاً مرتدياً ملابس فضائية.

وتعود أفكاري باستمرار إلى القوم الذين عاشوا هناك قبل أن يختفوا على النحو الغامض الذي أقبلوا به. وأتساءل من كان هؤلاء البشر، وأي أنبياء وقّروا وأُجلّوا، وكيف شيّدوا هذه المدينة التي بقيت رغم الزمن؟

أنا لا أعرف شيئاً كثيراً عن الهندسة المعمارية، غير أن المهندسين الحديثين المحنّكين كثيراً كانوا فريسة الحيرة والارتباك عينهما حيال مثل هذه المباني.

تتألف الجدران من المغليت (حجر غير منحوت يُستخدم في الآثار الراقية ما قبل التاريخ)، والحجارة الخام ذات الأحجام الهائلة ذات الوجوه المتعددة، منحوتة ومصقولة على نحو متقن جداً، يندمج بعضها بالبعض الآخر بكل دقة بحيث لا تمسّ الحاجة إلى أي ملاط. وليس في الجدران أي صدوع أو شقوق، وإني لأعجز عن إدخال أي إزميل في ما بين الكتل الحجرية.

وأقيس كتلة حجرية من الحجم المتوسط. إن علوها ستة أمتار ونصف المتر، وعرضها ثلاثة أمتار، وسماكتها متر ونصف المتر. وهي من الصوّان القويّ جداً، في سلسلة جبال الآندز، مثل أغلبية الحجارة الأخرى، وهي تزن خمسين طناً تماماً.

وأعود بالذكرى إلى فيلم كوستو، وإلى السور المغمور الذي قادني إلى هنا. إن الحجارة هي إياها، منحوتة ومجموعة معاً مثل تلك التي هي تحت ناظريّ.

لاحظ باحثون أن حجارة المغليت محزّزة أو مفرّضة بحيث يتاح لها أن تتحد بدقة مع تلك التي تعلوها وتلك التي تجاورها. بالنسبة إلى مهندس حديث، ليست التقنية بالصعبة.

إن الأمر يختصّ بتعليق حجر من المغليت فوق الآخر وخفضه ببطء لقياس نقاط الاتصال غير المتساوية. ثم كانوا يرفعونه ثانية لوضعه على الجانب من أجل القيام بالحزّ أو الفرض، ومرة أخيرة قبل وضعه في مكانه، مع الحرص على أن ينزلق تماماً في موضعه حتى ملّيمتر واحد، وبالطبع، تعاد العملية حتى تغدو النتيجة كاملة.

ولكن بلا عتاد كهربائي، ولا رافعات هيدرولية، كيف كانوا يقومون بذلك؟

إذا نحن حكمنا وفقاً للآثار فإن شعب تيتيكاكا وشعب تياهواناكو كانا ينقلان الكتل العملاقة من دون مساعدة الدولاب، ومن دون فيلة ولا زوجيّ ثيران للجرّ، أو الدفع، أو الرفع. ولم يكونا يتصرّفان من أجل نحتها إلاّ بالأدوات البرونزية البدائية جداً.

إذاً، كيف؟ لست أرى سوى حلّ واحد: لا شيء ممّا نعرفه على الأرض يمكن أن يحمل إلينا الجواب.

حتى مئة ألف رجل عادي ما كانوا يستطيعون إقامة هذه الهندسة القوية ما لم يعملوا في خلال قرون عدة بلا انقطاع، دون الاعتبار أنه كان يتحتّم عليهم الاغتذاء في أثناء كل تلك الحقبة وفي هذه الصحراء الجرداء!

وتمرّ بخاطري صورة السيكلوپات (العمالقة الاسطوريين بعين واحدة). هؤلاء العمالقة الذين تخرق جباههم عين مفردة، الذين كانوا يعملون، بحسب الأسطورة، في مقالع تراقيا في اليونان. كان ينبغي توفُّر عمالقة يشبهون السيكلوپات لرفع الكتل الحجرية في تياهواناكو، وتثبيتها في مكانها.

وتصيبني الشمس، مقترنة، بهذيانات خيالي، بالدوار. وأحاذي ممراً يقودني إلى أسفل درج حجري.

وألاحظ وأنا أتسلق الدرجات أن الجدران منحوتة. إنها وجوه. ولقد سبق لي أن شاهدت كثيراً من منحوتات الوجوه في مختلف أرجاء المعمورة، ولكنني لست أدري لماذا تبدو لي هذه مختلفة. وأعد نفسي بالعودة في ما بعض لتفحُّصها، ولكنني قبلاً، أتجه شطر قنطرة معزولة، بقايا ما قد كان في ما مضى مؤخر معبد ما.

إنها، في الواقع، بوابة فسيحة وهي منحوتة من كتلة حجرية ضخمة؛ ويبلغ ارتفاعها تقريباً ثلاثة أمتار، وعرضها أربعة أمتار. فكيف نحت أحدهم بالإزميل هذه البوابة في كتلة من الأندسيت ـ وهو حجر بركاني يُستعمل في البناء ـ شديد الصلابة، وزيّنها بالنقوش الضئيلة البروز ذات الموضوعات المعقّدة؟

أنا أتعرّف إلى **بوابة الشمس** الشهيرة كما سبق أن رأيتها في عدد كبير جداً من المؤلفات. إنهم الإنكا، على وجه الاحتمال، الذين أطلقوا عليها ذلك الاسم تكريماً لإلههم. ولكننا نجهل اسمها القديم.

يتألف الإفريز (= الطُنُف) من صفوف منضّدة ببشر ـ طيور، منقوشة أو محفورة عيونها على وجوه غريبة. وما فوق، هناك صورة ظلية قصيرة وسمينة

لشخص بكامله، تشرف على ذلك. وجهه العريض والمربّع تعلوه زينة رأس معقّدة. ومن عينيه المفتوحتين الواسعتين تسيل دموع مستديرة، مجمّدة دوماً.

إنه ولا ريب، **الإله البكّاء** الشهير. لماذا يبكي؟ ويبقى الغموض. مثلما تبقى غامضة المنحوتات الصغيرة التي تتراصف لدى قدميه.

ليس هناك أيّ نصب (باستثناء، ربما، **هرم خوفو** الكبير في مصر) قد شغف، ولا ريب، أكثر الأركيولوجيين. ولا نصب سواه قد أثار هذا القدر من النظريات المتباينة لتفسير الغموض المحيط به.

خصَّص عالم، سبق له أن درس في خلال سنوات موقع تياهواناكو، كتاباً من ٤٣٣ صفحة لتفسير الإفريز المعقّد في **بوابة الشمس**. وهو يتوصل، في آخر المطاف، إلى الاستنتاج أن الأمر ربما تعلّق بتقويم (= روزنامة) ولكن، كما نلاحظ بالنسبة إلى عدد غير قليل من النظريات في موضوع الأركيولوجيا، أن الخيال هو الذي يسيطر.

إذا نحن أخذنا بنظرية التقويم، فإن السنة الشمسية لم تكن تعدّ سوى ٢٩٨ يوماً في الحقبة التي نُحت فيها الإفريز. ويؤكد الكاتب هانس بيلامي أنه كانت هناك، بالفعل، سنوات تتألف من ٢٩٨ يوماً قبل نحو ١١٥٠٠ سنة، في الأزمنة التي «لم يكن فيها القمر بعد رفيق أرضنا».

أرض محرومة، مؤقتاً، من القمر: ليس هذا سوى جزء من السيناريو الذي تخيّله بيلامي الذي يشاطر مؤلفين آخرين فكرة أن أقماراً جوّالة تعاقبت حول كوكبنا في خلال أزمنة كاملة. وبعد أن اجتُذب الواحد منها إثر الآخر، تدريجياً، إلى حقل جاذبية الكوكب الأم، انتهى بها الأمر جميعاً إلى التحطم عليه، مثيرة كوارث مرعبة مسحت عن وجه الكرة الأرضية حضارات متقدمة على نحو كبير كانت تسكنها قبل آلاف السنين.

وقد جاءت اكتشافات جيولوجية حديثة تُلقي فقدان الثقة بجزء من هذه

النظريات. ولكنني أعترف بأن الفكرة القائلة بأن كارثة كونية قد تكون أبادت حضارات بأسرها لا تفتأ تفتنني. احتفظوا بها جيداً في فكركم. إنها فكرة تعود غالباً إلى مختلف النظريات التي تحاول الرجوع إلى أصولنا.

غير أنني أرغب في مغادرة **بوابة الشمس** لأتجه عبر السهل نحو منحدرات ذات لون بنّي محمرّ سيكون لي من أعلاها رؤية شاملة للمدينة الميتة بأسرها. وأتذكر، وأنا أسير، ما سبق أن قرأته حول موضوع بحيرة تيتيكاكا. ليست الفرضيات هي التي تعوزنا. ولكنها جميعاً تتعلّق نوعاً ما بالهذيان. إن طلاّب علم دقيق، لا يستندون إلاّ إلى وقائع ملموسة تشدّهم بقوة إلى الماضي، هؤلاء لزموا الصمت، وبصمتهم اعترفوا ضمناً بعجزهم عن شرح سرّ تياهواناكو.

لم يجهلوا، على الأقل، أن الأطلال المثيرة كانت قديمة آنذاك لدى مجيء الإنكا. وكانوا يعرفون أيضاً ما لا نستطيع أن نجهله عندما نعرف قليلاً الهضبة العليا، أن المنطقة كانت مركز حضارة معقّدة سيطرت على الپيرو وبوليڤيا، وقد عثرنا على الرمز المميز لـ **الإلّه البكّاء** على خزفيات (فخاريات) وأقمشة في المناطق الأكثر نأياً في جبال الآندز.

غير أن هذه الثقافة الغريبة لم تعرف اللغة المكتوبة. إذاً لم نعثر على شيء تقريباً يمكن أن يزوّدنا بمعلومات عن بناة الأمبراطورية المجهولين، أو عن الأسباب التي دفعتهم إلى تشييد عاصمة في صحراء قاحلة، معزولة، وشديدة البرد بالنسبة إلى معظم الحضارات، وحيث الطرائد النادرة لم تكن قط لتكفي غذاءً لمدينة بمثل هذه الأهمية، حتى لو كان السكان صيادين مهرة.

إن بالوسع تصوُّر ذهول جيوش الإنكا التي انطلقت من كوثكو للتقدم شطر الجنوب، فوقعت على أطلال النصُب الهائلة. ويروون أنها صادفت قبيلة من الهنود الحمر الكولاّس (الذين ما زالت ذريتهم تحيا بعد قريباً من هناك) بين الأطلال، غير أن القبيلة لم يكن لديها أي علاقة، في ما خصّ

الثقافة، مع بُناة المستعمرة المتنورين، وكانوا يجهلون كل شيء عن هؤلاء الأسلاف الغامضين.

وبوضعهم عدداً معيّناً من المعلومات، المعلومة منها مع المعلومة الأخرى، اعتقد باحثون معاصرون أنه يسعهم الافتراض أن أسلاف الكولاّس الذين صادفهم الإنكا كانوا هم أنفسهم من الكولاّس الذين عرفوا جلالهم نحو سنة ٦٠٠ للميلاد، وبنوا تياهواناكو في خلال القرون الثلاثة التي تلت. ومن ثم، في نحو سنة ٩٠٠، انهارت حضارتهم لأسباب مجهولة منا، وغرقوا في حالة من التقهقر والانحطاط التي اكتشفهم فيها الإنكا حوالى سنة ١٢٠٠.

في ما بعد، ساد الاعتقاد بأن الأطلال تتدرّج على حقبتين واضحتين، ميّزهما الباحثون باسميّ تياهواناكو الأولى، وتياهواناكو الثانية. وتبدو آثار الأولى غير متقنة بالمقارنة مع آثار الثانية.

في تياهواناكو، والحالة هذه، تم التلاعب بقطع من أشياء مختلفة، أو نقلها، أو خلطها، أو سرقتها، من دون ترك أي توثيق بالنسبة إلى المكان الدقيق الذي وجِدت فيه. وأي تفسير يعطى لقطع من الخزفيات تمّ إعادة تشكيل رسومات وتصاوير عليها تمثّل حيواناً يعرفه العلماء الإحاثيون (وعلم الإحاثة يبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة كما تمثّلها المتحجرات أو المستحاثات الحيوانية والنباتية) باسم توكسودونت، وهو حيوان عاشب (آكل العشب) طوله ثلاثة أمتار، يشبه وحيد القرن، أشعر وقصير القوائم، انقرض نوعه منذ مليون سنة. لقد أخرجت من الأرض خزفيات مماثلة في تياهواناكو!

وقد اقترحت تواريخ كثيرة أخرى لسطوع تياهواناكو وجلالها، تراوح ما بين عشرة آلاف سنة قبل الميلاد وسنة ٨٠٠ للميلاد. ومهما يكن من أمر، فإن الإنكا يدينون بالكثير لهذة الأطلال التي استخدموها في ما بعد لإقامة أنصاب ضخمة في كوثكو، وماكو پيكو، وفي أماكن أخرى منيعة في جبال الآندز. وقد بنوا آلاف الكيلومترات من الطرقات المرصوفة، وأدراج جبال،

وشرفات، ومصاطب للزرع. وقد غدوا أيضاً، ونجهل كيف، أطباء أسنان ماهرين، قادرين على نحت أسنان زائفة، والقيام بزرع الأسنان، وهو عمل باهر مجهول من سائر الحضارات القديمة.

ولكنهم كانوا يحيون في هالة عظمة الأمبراطورية السابقة الماضية، التي تشهد عاصمتها المهدّمة بأنهم لم يكونوا العرق البشري الأول المختار أو المصطفى، كما يزعمون أنهم كانوا. غير أن سلالتهم الرائعة لم تقصّر في تحقيق إعادة توحيد البيرو. وقد برهنوا على أن **الإلّه البكّاء** في الهضبة الجليدية لم يقم عن عبث بعمله كرائد.

لما وصل الإسپان سنة ١٥٤٩، أرادوا معرفة من كان مؤسسو المدينة الميتة، غير أن عميد الإنكا نفسه لم يكن لديه ما يقوله للإخباريين أو كاتبي الحوليات. لم يكونوا يعرفون شيئاً، وكان بناء المدينة يعود إلى زمن طويل يسبق وصول الإنكا، ولكنهم كانوا يجهلون كل شيء عن مؤسسيها.

كان بوسع السياح من العالم أجمع الذين يقومون اليوم بزيارة تياهواناكو أن يشاهدوا أكثر كثيراً فيما لو لم يُستخدم الموقع، لسوء الطالع، كمقلع حجارة في خلال عدة قرون. فالإنكا، بلا أدنى ريب، والإسپان بكل تأكيد انتزعوا عدداً كبيراً من الكتل الحجرية، من بين الأكثر صغراً لإقامة أنصابهم الخاصة. وقد وُجد بعضها في مدينة لاپاز في بوليڤيا حيث استخدمت في تشييد مبانٍ إسپانية. وكنيسة القرية الهندية الحمراء المجاورة، وقسم كبير من القرية نفسها، قد بُنيا، على نحو جليّ وظاهر، بوساطة موادّ أُخذت من الأطلال. ومع ذلك، تبقى تياهواناكو مكاناً مليئاً بالعظمة والغموض، ومليئاً بالحنين أيضاً، طالما أنها منذ رحيل بناتها المجهولين لم يُعرَف شيء من ثقافتهم أو من تقنياتهم ازدهاراً لدى الذين خلفوهم.

ولكن هل أن الأمر يتعلّق حقاً بمدينة؟

إن السؤال يعود باستمرار وأنا أتسلّق المنحدر. لقد مرت في خاطري

فكرة في خلال نزهتي: وماذا لو أن البناة ذهبوا تاركين مدينة غير منجزة؟ ويتعزّز الانطباع عندما أبلغ القمة، وأنظر إلى تحت.

أنا أشاهد جدراناً منعزلة على شكل حرف L أو H، لا تستند إلى أي شيء، ويفكر المرء، بالطبع، في هدم النفائس (النزعة الهمجية لتخريب الآثار الفنية والصنائع)؛ فلقد انتزعت وحُملت جدران بأكملها، ربما، ولكن لماذا حملوا جدراناً بأكملها، في حين بقيت جدران أخرى سليمة، لم تمسّ؟

هل أن تحت ناظريّ مدينة لم تُنجَز، هُجرت مثل مدينة رونوك [مدينة في غربي ڤرجينيا] في عالمنا الجديد (القارة الأميركية).

إني أفكر في الفرضية الغريبة التي خطرت لي على ضفة البحيرة: فرضية روّاد فضاء قدامى جاءوا من السموات.

لنقرّ بأن تياهواناكو تشكّل التتمة المنطقية لهذا الافتراض. ولنتخيّل أن الأشخاص من خارج الأرض أو جوّها، الذين أرادوا استعمار الأرض، قد جعلوا منها قاعدة. لعلها كانت قاعدتهم الفضائية الأولى... وربما كانت قاعدتهم الأخيرة.

تذكّروا أن البحيرة الهائلة كانت تمتدّ ربما في وقت معيّن حتى ضواحي تياهواناكو. والماء أساسي بالنسبة إلى الحياة، كما ندري. وعلى الماء، أيضاً تحطّ بسهولة تامة المركبات الفضائية، الآتية من مرتفعات شاهقة. وإذا كانت تياهوانكو حقاً على ضفة بحيرة تيتيكاكا، فإن فكرة أن روّاداً فضائيين هم الذين أقاموها تغدو أكثر احتمالاً ومقبولة ظاهراً.

إن اختيار هضبة مرتفعة ومنعزلة مثل الألتيپلانو لإقامة قاعدة فضائية منطقيّ تماماً لأسباب أخرى. إن الموقع هو أحد أسهل المواقع من حيث الدفاع عنه طالما أنه على هذه الهضبة الجرداء يشاهَد من مسافة كيلومترات من جميع الجهات، أي شخص يقترب.

وإذا ما اعتبرنا الأمور من هذه الوجهة، تكون تياهواناكو، بلا أدنى ريب، قاعدة مثالية للشروع في استكشاف المحيط أو البيئة الأرضيين.

وبسبب ارتفاعها، فإن الجراثيم والغازات السامة هي أقلّ وجوداً هناك منها في أي مكان آخر، باستثناء ربما جبال هملايا، التي هي من جهة أخرى، مجرّدة تقريباً من الهضاب. وكما لاحظنا، والحالة هذه، في أثناء جولاتنا الأولى على سطح القمر، فإن الميدان المسطح يسهّل إلى حدّ كبير طلعات الاستكشاف الأولى.

تذكروا طاقم أبولو الذي حطّ على سطح القمر. لقد بدأ بإنشاء قاعدة آمنة، ثم بكل حذر، قام بتفحُّص احتمالات الحياة، وسبر، في ما بعد، غور الأرض في ضواحي القاعدة، ثم غامر أكثر فأكثر بعد. فقد درس روّاد الفضاء احتمالات بناء ملجإ بالمواد التي كانت لديهم. وقد سعوا إلى مضاعفة موادّهم، وعتادهم، ومؤنهم بالتطلع إلى ما يمكنهم العثور عليه حيث هم. وعمدوا إلى تحرّي عمق الطبقات الأرضية. وتصرّفوا بمَعْلَمَات استدلال تحسُّباً لإقامات مقبلة.

وبالطبع، أرسلوا تقارير تتضمن مجموع النتائج التي حصلوا عليها، ثم إنهم ذهبوا، ولكن طوال مدة إقامتهم، لم يَغِبْ عن بالهم المشروع الطويل الأمد، إنشاء قاعدة دائمة.

سنقول، إذاً، إنه حدث شيء ما من هذا القبيل حوالى سنة عشرة آلاف قبل الميلاد. وإذا كان المغامرون قد أرسلوا تقريراً باللاسلكي، فمن يدري إذا لم يكن بعد في الطريق صوب منظومات شمسية أخرى؟ اللهم إلاّ إذا لم تكن قد التقطتها تقريباً آنذاك، مركبات فضائية أخرى في المدار في الجوار وقد سلكت معها الطريق. وفي هذه الأثناء، فإن الأوائل الواصلين ــ أو أن أفراد حملة سابقة ــ استطاعوا تماماً أن يستقروا غير بعيد من مكان هبوطهم.

إن دور المستكشفين هو القيام ببحوث على الأرض (على الطبيعة)

وتسجيل النتائج في تقرير. وإن هدف المستعمرين هو الإقامة والاستقرار. ولقد كان للمستكشفين أو المستعمرين ـ روّادنا الفضائيين الخياليين ـ مهما يكن من أمر، نقطة انطلاق جيدة.

لنحاول، بالحري، أن نضع أنفسنا مكانهم. ما يكون أول شيء نبنيه؟ لعله سور واقٍ حول مركبتنا الفضائية.

إذا كانت قد توفرت لهم وسائل السفر عبر الفضاء الواقع ما بين النجوم، فمعنى ذلك أن الأمر يتعلق بحضارة أكثر تقدّماً من حضارتنا، تتصرّف، إذاً بالطبع، بوسائل تقنية تتيح لهم أن يرفعوا الصخور الخام، وأن ينقلوها، وأن ينحتوها لإقامة جدران وأسوار متينة ومتراكبة أو متشابكة جيداً.

نجد في تياهواناكو سوراً اصطناعياً زيّد في الارتفاع، عيّن حدود فسحة من الأرض مساحتها أربعة آلاف متر مربّع. ولم يُجْرَ فيها أي حفريات أو أعمال تنقيب.

وقد سمعت أن الحكومة البوليڤية كانت تساورها نيّة الشروع في التنقيبات والحفريات. وقد لا تعثر على شيء، غير أن هناك أساطير إنكاوية (نسبة إلى الإنكا) تتمسك بوجود متاهة تحت الأرض فوق موقع تياهواناكو. ويتحدثون عن وجود آبار بلا قعر هناك شبيهة بالحُفر المستخدمة للإطلاق الموجودة اليوم، أو شبيهة بمتاهة الملاجىء المضادة للقنابل النووية؟

لعل الطبقات الأرضية الباطنية في تياهواناكو قد انهارت منذ زمن طويل، غير أن هذا المكان المنيع البالغة مساحته أربعة آلاف متر مربّع وراءه مبرر للوجود. وأنا أدري أن العباقرة إنما جعلوا منه عموماً مكاناً ما للعبادة أو للاحتفالات، ولكنهم لا يحملون الإثبات على ما يقدمون.

وأنا كذلك، لا أقدم أي إثبات.

سوى أنه لا يسعني أن أمتنع عن التفكير في جميع الأساطير، تحت كل

السموات، التي تذكّر بحنين وشوق بمواطن معرفة وثقافة بشريين. إن البعض يدعونه **الأطلنتيد**(١) ويقولون إنه قد غمر بالماء، وآخرون يسمونه **إلدورادو**(٢) ويموضعونه في المناطق البكر في أميركا الجنوبية. وآخرون، بعد، يروون أنه في **تتاريا** ـ ما لم يكن ذلك في الحبشة (إثيوبيا) ـ كان يحكم في الجبال الشاهقة والصحارى المترامية الأطراف، كاهن ملك يدعى الكاهن يوحنا (جان).

إنها خرافات من الانتشار، والشيوع، بحيث أنني أتردد في استبعادها واعتبارها مجرد ترهات أو هي حديث خرافة ـ كما يقولون. لقد طالما اتفق لنا غير مرة أن اكتشفنا أن ما نضعه بابتسامة في ميدان الخرافة المحض قد تكّشف عن أنه يستند إلى ذرّة من الحقيقة.

لعله يوجد أكثر من مدينة عجيبة ضائعة هكذا في ليل الأزمنة. وإذا ما كانت تلك الحال، فإن تياهواناكو يجب أن توضع في صفّ الأكثر روعة. وبينما أنا أتأمل تحتي تتخذ قطع المُرْبكة شكلاً غامضاً. غير أنني بحاجة إلى قطع جديدة. ولقد عثرت عليها!

هوامش المترجم

---

(١) **الأطلنتيد** (وتُعرف كذلك بأتالنتيس أو أطلنتيس، أو أتلنتيكا)، هي جزيرة أسطورية في المحيط الأطلسي، تقع غربي مضيق جبل طارق. والمصادر الرئيسية للأسطورة هي اثنان من حوارات أفلاطون **تيماوس وكريتياس**. في الحوار الأول يصف أفلاطون كيف أن الكهنة المصريين، في حديثهم مع المشترع الأثيني صولون، وصف أطلنتيس كجزيرة أكبر من آسيا الصغرى وليبيا مجتمعين، وتقع تماماً وراء أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق). فقبل نحو ٩ آلاف سنة من مولد صولون، على حدّ قول الكهنة، كانت الأطلنتيد جزيرة غنية احتلّ ملوكها الأقوياء الكثير من أراضي حوض البحر المتوسط حتى هُزموا في آخر الأمر، على يد الاثينيين وحلفائهم. وقد غدا الأطلنتيديون، على وجه الاحتمال، شريرين وغير ورعين، وابتلع البحر جزيرتهم نتيجة الهزات الأرضية. وفي حوار كريتياس، قدّم أفلاطون تاريخاً للكومونوويلث الأطلنتي المثالي.

لعل الأطلنتيد مجرّد أسطورة، غير أن كتّاب أوروبا في القرون الوسطى الذين تلقوا الحكاية من جغرافيين عرب، آمنوا بأنها صحيحة، وفي ما بعد، حاول كتاب أن يماثلوها ببلاد فعلية أو حقيقية. وبعد عصر النهضة الأوروبية، مثلاً، جرت محاولات لمماثلة الأطلنتيد بأميركا، واسكندينافيا، وجزر الكناري. وقصة الأطلنتيد، فيما لو لم يبتكرها أفلاطون، قد تعكس، في الواقع، سجلات مصرية قديمة حول ثوران بركاني على جزيرة ثيرا حوالى سنة ١٥١٠ قبل الميلاد.

وهذا الثوران، وهو الأكثر ضخامة في العصور التاريخية القديمة، واكبته سلسلة من الهزات الأرضية والتسوناميات (التيارات البحرية الناشئة عن الزلازل أو الانفجارات البركانية) التي مزقت الحضارة في جزيرة كريت، وأحدثت بالتالي بروز أسطورة الأطلنتيد.

(٢) إلدورادو [معناها «الذهب»] بلاد خرافية في أميركا، عيِّن موقعها ما بين نهريّ الأمازون وأورينوك في فنزويلا وطوله ٢١٦٠ كيلومتراً، ويصب في المحيط الأطلسي مؤلفاً دلتا عريضة، وهي، بحسب أقوال المغامرين الإسپان الذين غزو أميركا، مملوءة ذهباً.

أما الأمازون فهو نهر بطول ٧٠٢٥ كيلومتراً ينبع في جبال الآندز، ويروي الپيرو والبرازيل، ويجتاز غابات مترامية الأطراف قبل أن يصب في المحيط الأطلسي. وهو أول أنهار العالم من حيث منسوبه.

٥

من كان ڤيراكوشا؟

في قصص فتح الإسبان البيرو التي نجدها في محفوظات الأكاديمية الملكية في مدريد، يتردد غالباً اسم غامض يحدّثنا عن أميركا قبل الغزو هو: **ڤيراكوشا**.

إن أول إسپاني نزل إلى اليابسة في الپيرو استُقبل بهذا الاسم: «ڤيراكوشا!» وكان السكان الأصليون يتلفظون بالاسم باحترام مشوب بالخشية. وكانوا يتمتمون به غالباً، عقب ذلك، لتحية القادمين الجدد.

لمّا بدأ رجال پيزارو يفهمون لغة الإنكا، خلصوا إلى الاستنتاج أن ڤيراكوشا ـ طالما أن كلمة **كوشا** كانت تعني البحر ـ إنما تعني شيئاً يقرب من «**زبد البحر**». ويمكننا بكل تأكيد التفكير في أن الأمر يتعلق بكيفية شاعرية للترحيب بجيش يغادر السفينة، ولكن ذلك لا يفسّر في شيء لماذا كان السكان الأصليون يتلفّظون به غالباً جداً، وبمثل هذا القدر من التبجيل.

وبقدر ما كان پيزارو يتوغل في داخلية البلاد، كان يرى أنه يُرحَّب به في كل مكان بالاحترام عينه، وفي كل مكان كانوا يتلفظّون باسم ڤيراكوشا.

ولما وصل إلى بلاط الأمبراطور الإنكا الكبير، أتاهوالپا، عرف أن عباقرة البلاد قد عنوا أو قصدوا أنه ربما كان الإنكا الأسمى، الإلّه الإنكا الهابط من السموات، إلّه باسم **ڤيراكوشا**، كان يُمنح الألقاب «الربّ القديم، نور العالم، الخالق».

ودهش پيزارو مجدداً، ولكن ذلك لم يمنعه ـ بحسب ما تعلمنا القصة ـ من الإفادة على نحو وحشيّ من الإيمان الذي لا تفسير له الذي كان مضيفوه يُبدونه له.

كان ينبغي انتظار سنوات عدة لكي يشرع المرسلون، في خلال المحادثات الطويلة مع السكان الأصليين، في جلاء سرّ ڤيراكوشا.

في الكتاب التاريخي الذي وضعه وليام پريسكوت[1] **«تاريخ فتح الپيرو»**، الذي يتضمن الروايات المفصلة لأناس معاصرين لپيزارو، نجد مقطعاً مخصصاً لما استطاع **الآباء (الكهنة)** أن يجمعوه حول موضوع الإلّه الإنكا.

تروي إحدى الأساطير أن رجالاً من البيض، ملتحين، أقبلوا إلى ضفاف بحيرة تيتيكاكا ليحملوا إلى السكان الأصليين حسنات الحضارة وفوائدها، ولكي يبسطوا سيطرتهم على البلاد.

ونتذكّر على الفور الأسطورة الآزتيكية، المتعلقة بكتزالكواتيل، إلّه الخير، الذي أتى من الشرق فوق الهضبة الكبيرة بشكل مماثل، ولكي ينجز هناك مهمة مشابهة. والتشابه يغدو ملفتاً أكثر لأنه ليس هناك أي أثر للاتصال بين الأُمتين، وأن كل شيء يحمل على الاعتقاد أنهما كانتا تجهلان معاً وجودهما. . .

كان الپيروڤيون، مثلهم كمثل الأجناس الكثيرة من الهنود الحمر، يعترفون بوجود إلّه أسمى، خالق الكون، كانوا يعبدونه باسميّ پاتشاكاماك وڤيراكوشا.

ولم يُنصب أيّ معبد لهذا الكائن غير المنظور باستثناء معبد واحد في الوادي المجاور لمدينة ليما الإسپانية، التي بناها پيزارو في الپيرو سنة ١٥٣٥. وكان هذا المعبد موجوداً قبل أن تسقط البلاد تحت السيطرة الإنكاوية.

ووفقاً للمظاهر جميعاً، كانت الآلهة الأخرى لدى الإنكا أنفسهم من حدّثهم عن ڤيراكوشا. الرجل القديس أقبل، على ما يبدو من البحر (البحر؟ هل يتعلق الأمر ببحيرة تيتيكاكا المترامية الأطراف أو المحيط البعيد، الذي لم تكن شعوب جبال الآندز تعرفه إلاّ بوساطة شائعات غامضة؟).

مهما يكن من أمر، تتفق الأساطير على الاعتقاد بأن الإنكا، لمّا اكتشفوا المدينة المقفرة على مسافة خمسة عشر كيلومتراً من البحيرة، حسبوا على الفور أنها من عمل المسيح الأبيض الملتحي ومريديه أو تلاميذه وتابعيه.

وتروي بعض الأساطير كيف أن ڤيراكوشا، الكائن الأسمى، ارتفع في السموات «فوق البحر نفسه» لمّا أُنجزت مهمة خلقه (الخليقة؟ هل أنه خلق شيئاً آخر غير منحوتاته الحجرية؟).

في إحدى الروايات، ألقى الرجل القديس عظة وداعية على جمهرة من المؤمنين استذكر أمامهم أحداثاً ستحدث في المستقبل. إن أنبياء زائفين سيُقبلون، ربما لرؤيتهم، ولكن لا ينبغي لهم أن يؤخذوا بذلك. وفي ذات يوم، سيعود برفقة حوارييه. ثم إنه «نشر معطفه فوق البحر» وصعد عليه مع حوارييه، وارتفعوا جميعاً فوق المياه.

إنها لقصة تبعث على التأمل.

هل كان بوسع السكان الأصليين إبداع اللحى والبشرات الفاتحة اللون في قارة كان ذلك مجهولاً فيها؟ بالنسبة إلى الإنكا، كانت تلك حقيقة أساسية مثلما هي الأناجيل بالنسبة إلى الإسپان. وإلاّ لماذا خرج هذا التهاف **ڤيراكوشا** من جميع الأفواه عندما أبصر الإنكا الرجال البيض والملتحين يُقبلون؟

يلاحظ سيغفريد هوبر، في كتابه «**في مملكة الإنكا**»، أن الترحيب الذي خصّوا به الغرباء سيكون «غير قابل للتفسير كلياً في غياب تقليد قديم معيّن، أي فيما لو لم يكونوا قد عرفوا في أزمنة سحيقة رجالاً بيضاً ملتحين كانوا ينتظرون عودتهم».

كانت تلك البلاد الثالثة في أميركا اللاتينية حيث سمع الإسپان الكلام على إلٰه قديم جُعل إنساناً، وكانوا ينتقلون من دهشة إلى أخرى. كانوا يعرفون جيداً آنذاك الأسطورة الآزتيكية المتعلقة بكتزالكواتيل، البطل الرحيم، والقائد البشري للتولتيكيين القدامى الذين غابوا، والإلٰه الخالد في آن معاً. كانوا يقولون عنه إنه كان أبيض وملتحياً، وإنه علّم شعبه أموراً كثيرة جداً: شغل المعادن، وأساليب الزراعة، والهندسة المعمارية، ولكن من غير أن نعرف لماذا، اضطر في ذات يوم أن يغادر المملكة التولتيكية الهادئة، حاملاً معه قوانينه، وكتاباته، وأناشيده، وقد ذهب كما أتى. وصل إلى شاطىء وراح يبكي، ثم إنه هرب على «طوف من جلود الحيّات». وفي كل الأساطير يعد كتزالكواتيل شعبه بأنه سيعود ثانية.

وسمع الإسپان أيضاً الحديث عن أنه في الغابات الفسيحة المغمّة والغامضة في أمبراطورية المايا القديمة، صوب الجنوب، كانوا يعرفون أمراً مساوياً أو غامضاً لڤيراكوشا، وكتزالكواتيل، إلٰهاً عطوفاً متسامحاً نزل ليحكم الأرض اسمه كوكولكان. وقد كتب في القرن السادس عشر، الأسقف دييغو دو لاندو، كاتب حوليات تقاليد المايا وأخبارهم، أن كوكولكان، شيد مدينة ضخمة هي ماياپان، حكم فيها في خلال فترة من الوقت قبل أن يذهب من جديد. وعلى نصب ماياپان، هو ملتحٍ، وعلى أذنه ظلف يَغْوَر.

إننا نجهل كم من آلاف السنين حارب المايا المرد، ذوو البشرة الداكنة، الأدغال حيث تقع اليوم غواتيمالا. لقد اختفوا ولم يتبقَّ من مرورهم غير آثار من الحجر. وقد انتظرت الأدغال كي يشيخ الجنس البشري، وقد دفعته في خلال القرون الطويلة صوب الشمال. ولمّا وصل المستكشفون البيض، لم يكن قد بقي سوى أطلال.

ولكن في الحقبة نفسها، في القرن السادس عشر، كان الآزتيك والإنكا، ما يزالون يؤلفون أمّتين في عزّ سطوعهما، وأنهم قد وضعوا أنفسهم مجدداً بين أيدي قادمين جدد للسبب الوحيد أنهم كانوا بيضاً، وكانوا ملتحين مثل الإله الأسطوري الذي كانوا ينتظرون عودته. وقد كان كل من الرحالة كورتيز وپيزارو المستفيدين من خطإٍ مأساوي.

هل كان ڤيراكوشا، وكتزالكواتيل، وكوكولكان، وقد تاهوا في ضباب الخرافة، رجلاً واحداً أحداً، يُنظَر إليه من خلال ثلاث ثقافات مختلفة؟

وما لم يُؤكَّد بقطع وحسم أن الأمر يتعلق بمصادفة بسيطة وأنهم النتاج المجرّد للخيال، فإننا مضطرون إلى الاعتقاد بأن للخرافات الثلاث أصلاً أو منشأ مشتركاً، وهو يعود إلى أبعد كثيراً من عصر ما قبل التاريخ.

إن بالوسع، بكل تأكيد، التفكير في احتمال آخر: إن ثلاثة مرسلين ملتحين من العرق الأبيض، وينتمون إلى الحضارة نفسها قد أُوفدوا إلى ثلاثة أماكن مختلفة: صحراء المكسيك، وأدغال يوكاتان، والألتيپلانو الجبلي، وكل منهم حمل إلى السكان الأصليين الغذاء، والطاقة، والأمن، وفائضاً من اليد العاملة على مقياس لم يُتصوَّر قط، معلمينهم الفنون نفسها، والتقنيات عينها (التي ستتشعّب في ما بعد، بحسب البلدان). ومن ثمّ في ذات يوم، سيذهب الثلاثة جميعاً، بحسب رغبتهم لأسباب مجهولة، ومفعمين بالأسى، ويكونون قد وعدوا بالعودة، وهو وعد لم يبروا به، على ما يبدو حتى الآن.

إذا ما أخذنا باحتمال وصول بعثات من الفضاء، فإن ذلك كله ليس فيه أي شيء غريب أو متعذر تصوُّره.

إن مرسلين من النوع نفسه قد يكونون ذهبوا، ربما إلى أجزاء أخرى من العالم بعد فترة فاصلة تقدَّر بعدة آلاف من السنين. ونحن نعرف قصة الديانتين اليهودية ـ المسيحية، وإذا ما عدنا أبعد بعد في التاريخ، مراثي المصريين بسبب رحيل الآلهة المصنوعة بشراً. وقد ألمعت شعوب أخرى،

من الصين إلى اليونان، إلى عصر ذهبي كانت فيه الحرب مجهولة، وحيث على حدّ تعبير لاو ـ تسو[٢]، كان يمكن في قرية ما أن ينظر المرء إلى الدخان يتصاعد من مداخن القرية المجاورة، من غير أن يحسّ لا بالحسد ولا بالحقد.

يعلن لويس ممفورد[٣]، أحد أعظم العباقرة في جيلنا: «إن لدينا، في الوقت الراهن عدداً كافياً من الأدلة والبراهين من وجهة نظر أنثروپولوجية وأركيولوجية للاعتقاد بأن هذه الذكريات المفعمة بالحنين والشوق تستند في كل حال إلى جزء من الحقيقة. إن القفزة الكبرى إلى الأمام قد حدثت منذ نحو ٥ آلاف سنة.» وقد عرفت حضارات أخرى، هي كذلك، قفزات رائعة إلى الأمام في حقب متأخرة أقل.

إن مخطوطات البحر الميت[٤]، والاكتشافات المتعددة التي تمّت حديثاً في الشرقين الأدنى والأوسط، أجبرت الأكثر تشككاً على أن يروا في الكتاب المقدس (التوراة) شيئاً آخر غير رواية محض شاعرية وخيالية. إن المنقّبين والعلاّمة يُجمعون على الاعتقاد بأن العهدين القديم والحديث من الكتاب المقدس هما، في غالبيتهما تدوين لأحداث حقيقية قد جرت ما بين سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد والقرن الأول لعهدنا الميلادي.

ولا شيء يحول دون الاعتقاد بأن أساطير المايا، والآزتيك، والإنكا ستتكشّف هي أيضاً ذات يوم عن أنها تقوم على الحقيقة.

في ساكساهوامان، وهي مدينة أخرى محصنة في سلسلة جبال الآندز القديمة، هناك سور يضم حجراً غامضاً. إن الطبيعة (لزيادة الإيضاح) قد حفرته على شكل حية منتصبة على ذنبها، ورأسها، جانبياً، مرسوم بدقة كبيرة. ووفقاً للأسطورة المحلية، كان المحاربون، قبيل ذهابهم إلى القتال، يُقبلون لوضع قبضات أيديهم في التجويف الذي يصنعه الرأس من أجل أن يستمدوا من ذلك القوة والشجاعة بفضل القوة السحرية. ولم تكن القصة لتثير اهتمامي بصورة خاصة فيما لو لم يعرضوا علي بوصلة في داخل الصدع في

الصخر. ولفرط ذهولي الكبير، راحت الإبرة تدور كالمجنونة، تحت تأثير قوة مجهولة.

لا ينبغي أن يكون صعباً جداً إيجاد شرح علمي لتصرُّف البوصلة. إن الحجر يحتوي، على نحو ظاهر، على خاصيات، كهرمغنطيسية خارقة. كيف أدرك السكان الذين عُرفوا بأنهم بدائيون، هذه الحقيقة؟ هل أن شخصاً ما، وقد حمل معرفة خارجية، قد استخدم الحجر من أجل خاصياته المفردة؟

إذا كان رجال قديسون ذوو قوى غريبة قد جاءوا من كوكب ناءٍ، فأي واحد منهم وصل أولاً، وأين؟ ولأسباب تقنية متعددة أشرت إليها في الفصل السابق، يبدو لي الألتيپلانو المكان المثالي والمنطقي لإقامة القاعدة الفضائية الأولى.

إني أحبّ الاعتقاد بأن ڤيراكوشا كان، بلا أدنى ريب، كائناً حياً، أدار عقب أن حط بمركبته الفضائية على مياه بحيرة تيتيكاكا، وهو بعد حيّ يرزق، أعمال بناء تياهواناكو، وأنجزها بفضل تقنيات ما تزال مجهولة منا.
إن هذه النظرية تتفق تماماً مع الأساطير التي كان يعتقد بها الإنكا كثيراً بحيث أنهم وضعوا أنفسهم تحت رحمة پيزارو.

ولماذا لا يمكن أن يكون أفراد شعب الإنكا قد صدّقوه؟ إذا كانوا، على وجه الاحتمال، لم يروا قط إلاههم البشري، فإنهم كانوا يرون الأعمال المتقنة التي خلّفها. وبفضل إرشادات، بنوا بدورهم مدناً رائعة، في كوثكو، ثم في أماكن أخرى.

حتى إنهم لدى وصول پيزارو، تأكّد اعتقادهم. ألم يَعِدْ الإلٰه بالعودة؟ (إنه لجليّ أن ڤيراكوشا لم يكن يمتلك هبة البصيرة أو بعد النظر، والإلٰه كان حذّر السكان من وصول پيزارو وجعلهم يتخذون جانب الحيطة).

يقال عن ڤيراكوشا إنه وصل إلى عالم ليس فيه أدوات ولا رغد عيش، وفي ظل حكمه، لم يكن البشر يموتون.

إني لأتساءَل لماذا ألحّ كثيراً أولئك الذين أبدعوا الخرافة على حقيقة أنهم لم يكونوا يمتلكون أي أدوات. كان لديهم، حتماً على الأقل، أدوات من الحجارة الخشنة أو غير المتقنة. ولكنهم شاءوا، ربما، القول إن ڤيراكوشا ورفاقه قد حملوا «أدوات» لم يكن يعرفها أحد، الأمر الذي لا يقبل أي شك أنهم كانوا آتين من النجوم.

لماذا لم يكن البشر يموتون في أثناء حكمه؟ إن الباحثين التقليديين قد أهملوا دوماً هذا التفصيل الذي، لم يكن هناك، بحسب اعتقادهم، إلا لتجميل الأسطورة. إن الطموح إلى الخلود قد كان دوماً عالمياً، وموضوع إيثار في غالبية الخرافات، والديانات، في العالم.

غير أنه في حالة الإلٰه البشري في بحيرة تيتيكاكا، فإن هذا التفصيل إنما يُعزِّز فرضيتنا القائلة بأن حملة قد اجتازت الفضاء على مدى قرون عدة. وكما سبق لي أن أشرت سابقاً، كان يقتضي لذلك أن يكونوا في حالة قريبة من الموت، وأن يعلّقوا حيواتهم أطول وقت ممكن ومطلوب، وأن يكونوا قادرين على أن «يستيقظوا» في كل لحظة. ربما كان ينبغي أن يُفهم كون البشر لا يموتون، على هذا النحو.

علاوةً على ذلك، إن الكائنات التي ستؤلف الحملة ينبغي أن تمتلك، بحسب كل احتمال، معارف طبية، وتكون إذاً، قادرة على شفاء البشر، وحتى أن تبعث المشرفين على الموت (= المُحْتَضَرين). ويبدأون اليوم في مختبراتنا الخاصة نفسها بدراسة مواد وأساليب تصريد (توليد الحرارة المنخفضة) قادرة على وضع المرضى في حالة إسبات (سبات الشتاء) في خلال حقب طويلة؛ وإنه لمحتمل جداً أن تكون حضارة أكثر تقدماً من حضارتنا قد حققت هذا النوع من الإنجاز تحت أنظار شعب تياهواناكو المشدوهة.

لقد عزا الإنكا إلى ڤيراكوشا قدرة عجائبية أكثر بعد. ولكن انظروا، بالحري، إلى هذه الصلاة الإنكاوية، كما سجّلها آلونزو دو مولينا، أحد

رجال پيزارو:

أيها الخالق!

ڤيراكوشا الكلّي الوجود!

أنت يا من منحت الرجل الحياة والشجاعة، بهذه الكلمات: «ليكن هذا رجلاً».

وبهذه الكلمات منحت المرأة: «لتكن هذه المرأة».

أنت يا من حملتهما، ووهبتهما الحياة!

إسهر عليهما من أجل أن تجنّبهما الآلام، وامنحهما السلام.

امنحهما حياة طويلة، أيها الخالق!

والآن، هذه رواية إنكاوية، كما كتبها كاهن إسپاني في أول مستشفى للإرسالية في كوثكو، حوالى سنة ١٥٧٠:

«في تياهواناكو، شرع الخالق في إبداع سكان المنطقة وشعوبها، بصنعه تماثيل من طين (= صلصال). فوضع شعر بدن أو وبراً لأولئك الذين لهم شعر ولحىً، واستنكف بالنسبة إلى أولئك الذين سيكونون مجزوزين. ولما فرغ الخالق من تماثيل الطين الصغيرة، منح كل تمثال منها حياة وروحاً».

إننا لنجد صعوبة في تصديق هذه الرواية بحرفيتها، ومع ذلك... أنا أتذكّر شيئاً يجعلني أفكر على نحو متقدم أكثر.

أتذكّر التمثالين المنحوتين في الأسوار التي تؤدي إلى **بوابة الشمس** في تياهواناكو.

لدى مروري الأول أمامهما، تولاّني انطباع غريب وسيّىء التحديد، كما لو أنهما لم يكونا مطابقين لما كنت أتوقع. غير أن الانطباع لم يكن مزعجاً بحيث أنه يحملني على التوقف لديه في حينه.

لمّا عدت لمشاهدة المنحوتتين، كنت قد قرأت الصلاة والحكاية الإنكاويتين اللتين أوردتهما سابقاً. وكنت قد قرأت أيضاً المجلد الثالث عشر عن «**الميثولوجيا اللاتينية ــ الأميركية**» في ما يتعلّق بڤيراكوشا في تياهواناكو: «في هذا المكان، نحت على كتلة حجرية كبيرة صورة كل الأمم التي كان ينوي خلقها».

وأتذكّر هذه العبارة وأنا أتفحّص الوجوه، وليس من دون أي ارتعاش، أدرك ما بدا لي غريباً.

لقد شاهدت وجوهاً أخرى منحوتة في تياهواناكو، ولكن الأمر كان يتعلّق حتى ذلك الحين بوجوه منمنمة (= موجزة الخطوط بغاية الزخرفة)، أو هي طوطم (= حيوان يُعتبر ذا صلة خاصة بفرد أو بقبيلة فيُتَّخذ بذلك رمزاً)، أو رمز، غير أن وجوه **بوابة الشمس** إنما تذهل بواقعيتها.

هناك جباه عالية وجباه منخفضة، عريضة أو ضيقة. وعيون محملقة، غارقة في محاجرها، لوزية الشكل، أو مغولية (= عيون مائلة مشدودة الأطراف كعيون المغول أو الجنس الأصفر)، ووجنات ناتئة أو غارقة، وأنف أفطس، وأنف على شكل منقار النسر، وأنف لحيم، ويكاد يكون رومانياً مع كون حدّه محدَّباً، وأنف يوناني. ووجوه ضيقة، أو مستديرة، أو بيضاوية، أو مربعة. وجانبيات (پروفيل) حادة، ومستقيمة، وطويلة الفكين بارزة الأسنان. ليس هناك أي ابتسامة ولا زينات رأس، ولا زخارف.

إن التأمل، في خلال الآلاف من السنين، قد أبلى الأفواه والأفكاك. ولا أتوصل إلى تمييز ما إذا كانت الوجوه تحمل لحىً أم لا، ولكنها، مع ذلك، لا تلقى أي صعوبة في تمثيل «كل الأمم التي أراد خلقها».

تضمّ هذه «الكتلة الحجرية الصخرية» ـ وهي سور بطول يراوح ما بين عشرين متراً وخمسة وعشرين ـ وحدها عيّنة شبه كاملة للبشرية. ولكن إذا ما كان تحت ناظريّ حقاً جميع الأنواع البشرية في الكرة الأرضية، فأين استطاع النحّات الآندزي (نسبة إلى جبال الآندز) أن يجد نماذجه؟

وماذا لو كانت حقاً تسجيداً مسبّقاً لأشخاص كان **الخالق** سينفخ فيهم الحياة؟

في قراءتي كتاب ديسلهوف «**الفن في أميركا القديمة**»، الصادر سنة ١٩٦٠، أحسب أنه سيستطيع أيضاً أن يتوجه إليّ اليوم؛ فيه نقرأ في الواقع:

«في ما يتعلّق بتياهواناكو، هناك عموماً، وجهتا نظر متناقضتان، كلياً، رائجتان.

«في جانب، نجد الرومنطقيين والحالمين الذين يدعونها «**مهد البشرية**» والذين يؤكدون أن جنة عدن تقع على ضفاف بحيرة تيتيكاكا. ويزعم البعض أن مكان العبادة الوثنية هذا يرقى إلى أكثر من عشرة آلاف سنة.

«في الجانب الآخر، نجد الباحثين الحديثين الذين يستعيدون لحسابهم نظرية بينيت القائلة بأن تياهواناكو كانت محجة. وهذا التفسير الثاني، وهو معقول ومعتمد أكثر كثيراً من التفسير الأول، يوضح لماذا بنوا تياهواناكو في وسط صحراء جبلية حيث لن تجد الكثافة السكّانية أي وسائل للبقاء أو العيش.».

ربما كنت شخصياً واحداً من الرومنطقيين والحالمين، بالطبع، ولكن هناك وقائع لا جدل فيها تدعم أطروحتي. أما في ما يتعلق بـ«الباحثين الحديثين» فإنهم يلزمون الصمت المطبق، على نحو غريب، في ما خص بناء تياهواناكو. ومع الإقرار بأن المنطقة الجرداء المحيطة بها لا يمكن أن تؤمّن سبل العيش لكثافة سكانية، فكيف يعتقد الباحثون أن عدداً كبيراً كفاية من السكان لبناء المدينة المقدسة استطاع أن يعيش في هذه الظروف؟

بقدر ما قد تبدو الفكرة رومنسية وغريبة (طالما أننا لم ننظر في تفسيرات أخرى لندرك أنه ليس هناك أي تفسير يصمد) فإنني أنزع أكثر فأكثر إلى التفكير في أن عدداً قليلاً من روّاد الفضاء أقبلوا من مكان آخر، هم مؤسسو تياهواناكو الحقيقيون.

أما في ما يتعلق بتصور أن واحداً منهم منح تماثيل الطين، أو التماثيل الحجرية الحياة، فأنا لن أذهب إلى هذا البعد. أنا أعتقد بسرور بأن الأسطورة تستند إلى فرضية **البنسبرميا الموجَّهة**، ولكنني لن أدفع بعد أكثر من ذلك التفسير الحرفي للرواية الذي يبدو لي أنه يخالف جميع القوانين المعروفة في البيولوجيا.

إن الإله البكّاء، هو كذلك غامض جداً. ولنقترب من إفريز الوجوه. هل كان مسيح تياهواناكو يرى دنو كارثة ما، أو هرمجدّون (=الموقع الذي ستجري فيه المعركة الفاصلة، بين قوى الخير وقوى الشر).

وهل هذه الرؤيا دفعته، هو وحواريّيه، إلى نحت السور من أجل ترك أثر للمهمة التي أنجزوها: إعمار الأرض بالأجناس والأعراق البشرية المتنوعة؟ وإذا لم يكن هناك أي حيّ، فإن مستعمري المستقبل سيعرفون أنهم سبقوهم.

من ناحية أخرى، إذا كان توصّل العائشون على الأرض إلى البقاء أحياء، فإن النحّاتين سيكونون موجودين لتذكيرهم بتراثهم. وإذا ما أخذنا بالأساطير المنتقلة من جيل إلى جيل، فقد كان هناك أحياء يُرزقون.

غير أنه لم تحدث قط أية كارثة، فقد كان ڤيراكوشا، ربما، مكرَهاً على الرحيل. لعله كان ينبغي له أن يذهب إلى مكان آخر لتحقيق مشروع ما ليس لدينا أي وسيلة لتصوُّره. لعلَّ الحملات الفضائية قد تلقّت الأمر بألاّ تبقي إلاّ فترة معينة في المكان نفسه.

إن كل هذه الأسئلة لا تفتأ تثور في خاطري طالما أنا في تياهواناكو. ولكنني لا أنوي أن أتلكأ فيها ردحاً طويلاً من الزمن، ذلك بأن عدداً من العناصر تحملني على الاعتقاد بأن القاعدة الفضائية في تياهواناكو، قد مدّت أشغالها إلى ما وراء الألتيپلانو. وأسارع إذاً إلى الهبوط صوب الساحل البيروڤي، لكي أقف على العملية التالية التي سيقوم بها الروّاد الفضائيون.

هوامش المترجم

(١) **وليام بريسكوت** (١٧٩٦ ـ ١٨٥٩) مؤرخ أميركي، عُرف بلقب «أول مؤرخ علمي أميركي». وهو يشتهر بكتابيه النفيسين **«تاريخ فتح المكسيك»** في ثلاثة أجزاء و**«تاريخ فتح البيرو»**، في مجلدين اثنين.

في نهاية السنة الجامعية الأولى، دخلت في عينه اليسرى كسرة خبز أُلقيت في أثناء شجار في قاعة الطعام في الكلية تسببت فعلياً في فقدانه البصر بها. وقد منعه الضعف في بصر العين اليمنى من جرّاء العدوى، من الانصراف أحياناً إلى الكتابة. وزاد في الطين بلّة أنه أصيب بالروماتزم الذي أقعده ردحاً من الزمن قبل أن يشفى منه. ويُذكر هنا أنه لما اقترن سنة ١٨٢٠ بسوزان ايموري، وفّرت هذه الزوجة مثلها في ذلك كمثل قراء كثر من الأصدقاء، العينين له، اللتين أتاحتا آنذاك لبريسكوت أن ينطلق في حياته الأدبية.

(٢) **لاو ـ تسو**، مفكر صيني من القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد، وهو مؤلف كتاب **طاو ـ طو كنغ**، ومؤسس **الطاوية**، الدين الشعبي في الصين. وهي مزيج من عبادة الأرواح الطبيعية والأسلاف. ونظريات لاو ـ تسو ومعتقداته متنوعة. وبالنسبة إلى لاو ـ تسو وتشوانغ ـ تسو، يجب تحرير الإنسان من العالم الذي يعيش فيه من أجل إيصاله إلى عالم طاو [المبدأ الأعلى وغير الشخصي لنظام الكون ووحدته في الفكر الصيني القديم] الحقيقي، أي الوجود الممتاز الذي ينبغي أن يشارك فيه باختيار تصوفي باطني.

(٣) **لويس ممفورد** (١٨٩٥ ـ ١٩٩٠) ناقد في ميدان الهندسة المعمارية، ومخطط مدينيّ، ومؤرخ، حلل في كتاباته الكثيرة في مجالات الهندسة المعمارية والتخطيط المديني تأثيرات التكنولوجيا والتمدن أو التحضر في المجتمعات البشرية عبر التاريخ.

(٤) **مخطوطات البحر الميت**، مخطوطات قديمة مكتوبة باللغة العبرية، اكتُشفت ما بين سنة ١٩٤٦ وسنة ١٩٥٦، في مغاور على ضفاف البحر الميت، بالقرب من موقع قُمران. وهذه المخطوطات التي تتدرج في كتابتها، ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأول للميلاد، تنتمي إلى شيعة دينية يهودية كانت تعيش في قُمران، يرى معظم المؤرخين أنها شيعة الأسينين. والمخطوطات هذه ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى أصول اليهودية والمسيحية معاً.

أما البحر الميت، فللمناسبة نذكر أنه في الواقع بحيرة فلسطينية كبيرة يصب فيها نهر الأردن، طولها ٨٥ كيلومتراً، وعرضها ١٧ كيلومتراً، وتقع على نحو ٣٩٠ متراً تحت سطح البحر، وهي شديدة الملوحة.

٦

الخرائط الهائلة

لقد اكتشفنا بفضل التصوير الجوي المظهر الحقيقي لقارّاتنا. وفي خلال العصور، خدعتنا الطرقات.

إن الطرقات تلتفّ حول حقول الحمم (ما يقذفه البركان عند ثورانه من المعادن المصهورة الملتهبة)، والتضاريس الأرضية الوعرة، والمساحات الرملية، إنها توفّر حاجات الإنسان الذي ينتقل من نهر إلى نهر. وهي تصل ما بين القرى، ذلك بأنه من قرية إلى أخرى تتمّ المقايضة، وتُعقد الزيجات.

حتى عندما تغامر الطريق في صحراء، فإنها تقوم بعشرات العطفات لكي تمرّ بالقرب من نقطة مياه. وبتجاوزنا الحدّ، على هذا النحو، وبتجوالنا في كثير من الأراضي المرويّة جيداً لمصادفة كثير من الأماكن المأهولة بالسكان جملْنا، منذ فجر حضارتنا، سجننا، لقد تصوّرنا أننا كنا نحيا على كوكب شديد الخصوبة.

ولكن في مطلع القرن، اتسع مجال رؤيتنا كثيراً إلى درجة لا تصدَّق. فقد سمحت لنا الطائرة بأن نسافر من دون أن نمرّ بالطرقات، والقرى، والواحات، وقد اتجهنا نحو أمكنة نائية. وإذ ذاك، وحسب، من أعلى مساراتنا في خط مستقيم، اكتشفنا المناظر الطبيعية الجرداء من الصخور والرمال التي تعرّض فيها وجود البشرية هنا أو هناك للخطر؛ وبعض الأعشاب البرّية في فناء سجن هائل.

لقد تهيّأنا من بعد للسفر. إننا نجتاز الجبال والصحارى، وإذ نخفض عيوننا نشاهد آثار الحضارات القديمة التي ازدهرت على نحو عجائبي، كالحدائق، في عصور هي منسية الآن.

من بين جميع الاكتشافات التي أتاحتها هكذا الرحلات الجوية، ليس هناك ما يبعث على الذهول، في رأيي، في المُربكة الهائلة، التي تمتد على كيلومترات في الحزام الصحراوي في الپيرو. إن الأمر لا يتعلّق، هذه المرة، بمدينة ميتة، ولكن بشيء هو أغرب كثيراً.

على مقياس أميركا الجنوبية، ليست المسافة ما بين مطار لاپاز المرتفع وشبه جزيرة پاراكاس طويلة جداً. إن سلسلة جبال الآندز تنزلق تحت الطائرة، وتختفي لتترك المكان، من كل الجوانب، لمساحة صحراوية.

يسمي الجغرافيون ذلك صحراء أتاكاما الپيروڤية. إنها في آن الصحراء الحقيقية في جميع أميركا الجنوبية، والأصغر في العالم: ٣٦٠ ألف كيلومتر مربع، أي مساحة اليابان. وهي كذلك الصحراء الأكثر جفافاً في العالم، لا يبلغ متوسط الهواطل من المطر فيها أقل من سنتيمتر واحد في السنة. ويتفق، إذاً، ألاّ تتلقّى نقطة ماء واحدة في خلال سنوات عدة.

وحاولت أن أتصوَّر، وأنفي ملتصق بكوّة الطائرة، مظهر هذه الأرض الموحشة في العصور القديمة، حيث كانت الزواحف الضخمة تسيطر على الأرض، وحيث لم يكن الإنسان بعد غير حلم مستقبلي. وبحسب آراء

الجيولوجيين، لم تكن هذه المنطقة مغمورة بالبحر، ولم تكن أيضاً مكسوّة لا بالأدغال ولا بالبراري.

إن الصخر البركاني في جبال الآندز، الذي يشكّلها لهو جد صلب. وقد تسطحت أو تمهّدت تضاريسه وأُحرقت بفعل كل أنواع الظواهر الجغرافية والجيولوجية؛ لعلها كانت مغطاة بالمَجْلدات (المجلدة هي ركام ثلج مجلّد يشكّل قبباً واسعة، في المناطق القطبية)، في الدهر الرابع، أحدث الدهور في تاريخ الأرض، وقد حفرتها أنهر عريضة، أو تأكّلتها الرياح الدائمة؛ يبقى أننا اليوم، أمام قشرة صلبة غنية بالمعادن النارية (لها صفة النار).

وإذا كانت الكتل الهوائية في المحيط الهادىء (الپاسيفيكي) تنقطع بعنف على ساحل البحر، فإنها بدلاً من أن تحمل إليه بعض الرطوبة، تكتفي بامتصاص رطوبته. وفي الواقع، إن برد التيار الپيروڤي يحرم السحب من أمطارها قبل أن تبلغ الأرض. ويسمّي البحارة هذه المنطقة «الساحل الذي لا تمطر فيه السماء».

إني أرغب، قبل كل شيء، في استكشاف بلاد ناتْكا الغامضة، الواقعة في وسط الصحراء. وعلى ذلك، أهبط في مدينة پيسكو الصغيرة، القائمة على ضفة نهر يتلوى عبر الصحراء حتى يبلغ البحر. ثم إني أستقلّ سيارة الجيب باتجاه الجنوب.

إن ما سمعته قد تكشّف عن أنه صحيح. ليس هناك شيء غامض، كبير أو مهمّ يشاهَد على مستوى الأرض.

وأكتشف في شبه جزيرة پاراكاس، أن السهل ينحدر انحداراً شديداً حتى خليج پيسكو. وإذا ما شوهد من عَلُ، فهو جدار من الصخر الأملس، لونه بلون الصدإ، يرتفع أكثر من ثلاثمئة متر. وتحت، أتبين ما يشبه جحور الجرذان تزيّن الجدار العمودي، ولكن لا شيء سوى ذلك.

ليس هناك تلة في الجوار تتيح رؤية عامّة أكثر للجُرف. وعلى ذلك لم

يكن هناك أي وسيلة، في خلال القرون السالفة، لتبيُّن العلامات الغريبة التي نشاهدها عندما نحلّق فوق الجدار الصخري. ولا يرى المرء أكثر مما ترى النملة، في أعلى لوح أردواز أو في أسفله، ما كُتب عليه.

إني أحبّ أن أذهب لاستكشاف مكان آخر في الوقت الراهن، فأتوغل.

إذاً في داخلية الأراضي، عبر سهل فسيح ذي لون أمغر (المُغرة، تراب صلصاليّ يُستعمل في التخضيب) يختفي في البعيد في غوامض الضباب الأغبش. في ظهري، يهدأ هدير الزبد المتكسّر شيئاً فشيئاً، وتنقضّ الحرارة عليَّ لكأنني في أتون، محرقة جلدي، ومجففة حنجرتي وحلقي.

وأجري سريعاً صوب الجنوب الشرقي عبر المساحة الشاسعة الأبعاد الساكنة.

لا شيء، ولا حتى قليل من العشب في الأفق. ويقول الپيروڤيون إنه مكان ملعون. ومع ذلك، أنا أعرف أنه كانت تقوم في أماكن وأنحاء قرى كبيرة من الآجرّ أو التراب المدكوك قبل أن يهبط الإنكا من الجبال ويدمّروا كل شيء.

في مناسبات عدة في خلال عصر ما قبل التاريخ، عاش الناثكيون، والشيمويون، والموشيكايون جميعاً في الضواحي، غير بعيد عن الأنهر الصغيرة التي تنحدر من الجبال إلى البحر.

ومن حضاراتهم، عثرنا على منسوجات كثيرة الدقة، وخزفيات رائعة، وآنية محفورة عليها صورة **الإله البكّاء**، ومنحوتات تمثّل الإله يَغْوَر. وليس هناك من شك في أنه كانت تعيش آنذاك أقوام مثقفة طالما أنها أدركت مبدأ قنوات الريّ، وشيّدت خزانات حجرية ضخمة. وبحسب التقليد، كانت المنطقة التي أجتازها أرضاً عاش فيها الناثكيون.

وفي نهاية ٩٥ كيلومتراً، أشارت إلي بوصلتي، وخرائطي، وعدّاد المسافات الذي أصله أنني في قلب السرّ الغامض.

حولي، وعلى مرمى البصر، تمثل الصحراء في نور باهر.

وفي السكون المهيب، أترجل من سيارة الجيب، وأشرع في السير، وعيناي مركزتان على الأرض المحرقة التي تكوي باطن قدميّ عبر نعل جزمتي.

بين الفينة والفينة، كانت الأرض محفورة بخط مستقيم، عرضه خمسون سنتيمتراً، هوذا ما جئت لمشاهدته.

إن التجويف يكاد يكون «بالكاد» محدَّداً. ولو أني لم أبحث عن الآثار المعنية، لما كنت، بلا ريب، قد لاحظتها. لعلها كانت دروباً قديمة سلكها الإنسان، غير أنه من النادر رؤية دروب مخطَّطة بمثل هذه المهارة.

إن الأثلام قليلة العدد، ومتباعدة جداً بعضها عن بعض، ومستقيمة تماماً، وتتفرق وتنتشر في مختلف الاتجاهات. أحياناً تتوقف فجأة، وأحياناً تمتد صوب الأفق النابض بالحرارة.

وهي قليلة العمق، بقدر عرض اليد، وقعرها مغطى بالحصى المبيضّ. وما دامت لا تثور أي عاصفة رملية مطلقاً في تلك المنطقة، حيث لا تهبّ أي نسمة هواء، فلا شيء يحول دون الاعتقاد أنها إنما خُطِّطت لقرون خلت، إن لم يكن لآلاف السنين، وأنها لم تتحرك منذ ذلك الحين.

أحاول عبثاً أن أعرف أن أمطاراً ساحية (= متدفقة) هطلت على الصحراء سنة ١٩٢٥، وسنة ١٩٧٠، مزيلة الآثار الأخيرة لقرى الطين القديمة، وقد بقيت الأثلام حديثة، أو سليمة لم تمسّ كما لو كان هناك واحد من الأماكن النادرة على الأرض، حيث لا الإنسان ولا مختلف العوامل الجوية غير المألوفة أو غير العادية أتلفت عملاً تم في عصر ما قبل التاريخ.

ذلك بأن هذه الأثلام هي، على نحو ظاهر، من عمل شخص ما.

يقولون إن مسّاحي الأراضي قد خططوها بالحبل بمساعدة مزاولهم (آلات قياس الأبعاد)، وهي تتقاطع في أماكن مؤلفة زوايا جلية. وهي لا يمكن أن تكون في أي حالة من الحالات نتيجة هزّة أرضية أو جفاف. وإنه واضح تماماً أنها من عمل جنس بشري اختفى.

وأعود على أعقابي، وأصعد إلى سيارة الجيپ لسلوك إحدى الدروب طوال ثمانية كيلومترات. ليس هناك أي منعطف؛ وسواء أتسلّقنا منحدراً أو هبطنا منه، فإن الدرب تبقى مستقيمة كخط سكة الحديد.

ثم إن الدرب تتوقف على حين غرة، دون أن تشير في البعيد إلاّ إلى الأفق الصحراوي. وألاحظ بعض الأثلام تنقطع فجأة، في حين أن أثلاماً أخرى تعود فتنطلق في زاوية مستقيمة باتجاه آخر. وباتّباع هذه الأثلام الأخيرة حتى النهاية، يتبيّن لي أنني أعود دوماً إلى نقطة انطلاقي بعد أن أكون قد قمت بمسار مثلّثيّ، أو قائم الزوايا، أو متعدد الزوايا. ولكن في داخل الأشكال الهندسية، ليس هناك غير هكتارات من الأرض المحروقة.

وأُلاحظ أنها ليست جميعاً بالعرض نفسه: من ثلاثين سنتيمتراً بالنسبة إلى الأضيق إلى متر ونصف المتر بالنسبة إلى الأعرض. ولكن من دون أن يتطابق في عرض معيّن، اتجاه أو موقع معيّنان.

في ما بعد، وفي طوافي في السهل وراء مقود سيارتي الجيپ، أكتشف هنا وهناك ثلماً غير مستقيم، راسماً منعطفاً خفيفاً أو ملتفاً على نفسه كحيّة ملتفة على نفسها.

سوى أن لا ثلم يقدم إليّ أبسط دليل على معناه.

وإذا أنا أخذت بالنتائج التي توصّل إليها الأركيولوجيون، فإن التخطيطات لا تحددّ أي مقابر أو معابد. وفي هذا المشهد العاري تماماً، إنما يقال إنها اعتباطية.

على الأرجح، لم يلاحظها قط جيش الإنكا، إن لم يكن قد تجاهلها. وفي الواقع إن مهندسي الأمبراطورية قد بنوا طريقاً بعرض ثمانية أمتار يؤدي إلى البحر عبر السهل دون أن يتنبّهوا قط إليه، وتالياً، في خلال القرون التي دامت فيها السيطرة الإسپانية، لم يعتبر المسافرون القلائل الذين مروا بالمنطقة أنها جديرة بالاهتمام.

وأنا شخصياً كنت فعلت الشيء نفسه... فيما لو لم أكن مطّلعاً على الأثر الذي كانت هذه الخطوط الشهيرة قادرة على إحداثه.

وبعد أن تأكدت جيداً أن الخطوط على مستوى الأرض، كانت «بالكاد» مرئية، وحسب، ولكنها كانت كذلك غير مفهومة، عدت إلى سلوك الطريق إلى پيسكو.. وفي اليوم التالي، حلّقت فوق مناطق سبق أن جبتها في العشية بسيارة الجيپ. لكم هي مختلفة!

أولاً، إني أتفحّص وأنا أحلّق فوق المحيط، الشاطىء الصخري، البالغ طوله ثلاثمئة متر في خليج پيسكو.. وأشاهد رؤيا! إن صورة يبلغ ارتفاعها نحو مئة متر محفورة على الجدار الصخري. وبفضل حجم الرسم ووضوحه، فإنه يشاهَد بالطبع، من ارتفاع يتجاوز ألف متر. ولمّا بدأت الطائرات في التحليق فوق الخليج، حوالى سنة ١٩٢٠، بدأ الحديث عنه، وغدا الشاطىء الصخري المحفور بسرعة أحجية بالنسبة إلى الأركيولوجيين.

ومع أن الصورة واضحة، فأنا لم أتوصل إلى رؤية ماذا تمثّل. بالوسع أن نرى فيها شوكة ثلاثية شبيهة بشوكة نپتون، إله البحر، أو بشجرة منمنمة (= موجزة الخطوط بغاية الزخرفة)، أو بنوع من الشمعدان الكبير [المفرّع]، أو ربما الشمعدان العبري ذي الفروع الثمانية الذي يستخدمه اليهود في طقوسهم في خلال عيد هانوكا (شانوكا) الذي يدوم ثمانية أيام ـ وهو عيد التكريس، ويُعرف أيضاً بعيد الأنوار...

وكما تحققت منه أمس، فإن الرسم الهائل لا يُرى إلاّ من الجو.

يؤكد الذين انكبّوا على هذا اللغز أنه يعود بتاريخه إلى ما قبل الأمبراطورية الإنكاوية. فهل ينبغي الاستنتاج من ذلك أنه منذ خمسة قرون أو ربما أكثر، رسمت كائنات قديمة صورة على لوح أردواز هائل... ولمن؟

بوضوح، من أجل شخص ما يُحْتَمل أن يمرّ في السماء ويراه.

ولكن كيف، ولماذا؟

بالنسبة إلى معرفة كيف، فأنا أستطيع أن أطلق العنان لخيالي، لقد نحته حِرَفيون، بلا شك، وفقاً لرسم خُطِّط، لست أدري كيف، على الجدار. اللهمّ إلاّ إذا كان مهندسون قد تبعوا رسماً تخطيطياً دقيقاً جداً، وكان يقتضي في كل حال أن يكون لدى الحرفيين وسيلة لقياس الطول، واتجاه الخطوط التي كانوا يحفرونها طالما أن لا أحد يستطيع أن يرشدهم من على الأرض.

إذا كان الرسم قد خُطِّط مسبقاً على الجدار، فيجب أن يكون أحد ما قد صمّمه، محوّماً في الأجواء على مسافة كافية لكي يكون له بعض المنظورية، أي على بضع مئات من الأمتار فوق المحيط. هل أن ذلك يبدو مستبعد الحدوث؟ بلا ريب.

من ناحية أخرى، إذا كان أحد قد أدار العمل من الأرض، كما كانت الحال ليس من مدة طويلة جداً بالنسبة إلى نحّاتي جبل رَشْمور(١)، فقد كان يتعيّن أن يكون قادراً على تخيُّل أو ابتكار مخطَّط على مقياس منخفض ونقله أو نسخه بقياسات حقيقية. وعلى نقيض منجزات رشمور، وجميع الرسوم الجدارية التي أعرفها، لم يكن العمال ولا المهندسون يرون صنيعهم. هل أن ذلك يبدو مستبعد الحدوث؟ «بالكاد».

ولكن مهما تكن الطريقة التي أُنجز بها العمل، فهو، طبيعياً، من صنع حضارة أكثر تقدماً ممّا استنتج المؤرخون، حضارة من المستوى عينه، مثلاً، الذي كان للأمة المختفية في تياهواناكو.

لم يُعثر قط على أي شيء، أو على أيّ طلل، أو على أي هيكل عظميّ يدلّ على مرور حضارة ما في خليج پيسكو. وعلى ذلك، فإن صورة الشوكة الثلاثية إذا كان الأمر يتعلّق بالفعل، بشوكة ثلاثية، تكون من صنيع مركز متقدم ما في هذه الحضارة المحتملة.

لنفرض أن حضارة تياهواناكو كما سبق أن وصفناها لم تفتأ في ازدهار، وأنها كانت تمتلك وسائل الانتقال في الأجواء. فعلى خط مستقيم، ليس خليج پيسكو بعيداً جداً عن الألتيپلانو، فإذا كانت بحاجة إلى «لوح أسود» يُرى من فوق المحيط من جانب مسافرين آتين من الشمال، فإن شعب تياهواناكو لم يكن لديه خيار غير خليج پيسكو.

في رأيي، كان الأمر يتعلّق بلوحة مرشدة. فالمسافرون الذين كانوا يقتربون من الساحل من طريق الجو يستطيعون أن يرشَدوا لكي يتوجهوا إلى مدينة تياهواناكو الفضائية التي اخترناها، وهي تقع جنوبي غربي پيسكو، في الاتجاه نفسه المشار إليه بأطراف الشوكة الثلاثية.

وهناك احتمال آخر: كانت الشوكة الثلاثية تدلّ روّاد الفضاء إلى أنهم يقتربون من نظام الأثلام الغريب القائم على مسافة مئة كيلومتر داخل الأراضي، وكذلك صوب الجنوب الغربي. ولعلّ رمز الشوكة الثلاثية كان يشير إلى مسافة معيّنة.

وأتوجّه من محورين نحو الجنوب الغربي، لأحلّ محلّ الطيارين المجهولين الذين يحلّقون فوق الصحراء باتجاه تياهواناكو لمتابعة إشارات الشوكة الثلاثية.

ولدى دنوّي من المنطقة التي استكشفتها أمس في سيارتي الجيپ، ألقي نظرة من أعلى إلى أسفل، و. . . لكم كانت دهشتي كبيرة!

في وسط السهل المحرق المترامي الأطراف تماماً، أحسب أنني أرى مدارج مطار. مهبطان اثنان يتقاطعان، بعرض يكفي لاستقبال عشر سيارات

في وقت واحد، على طول يتجاوز ١٢٠٠ متر. على مستوى الأرض، في سيارة الجيب، لم أتبينهما قط. ولكن من الجو، إنهما مرئيان بكل وضوح، من مسافة كيلومترات من جميع الجهات.

مع ذلك، وتدريجياً مع اقترابي منهما، يتعزّز يقيني بأن هذين المدرجين لم يستخدَما قط لأي هبوط. فلا الاستكشاف الأرضي، ولا الاستكشاف الجوي، قد كشفا، في الواقع، عن وجود أيّما دليل آخر يتيح الاستنتاج بأننا أمام مطار قديم: ليس هناك من أثر لطريق، ولا أي بليّ للأرض مثلما لا بدّ أن يُحدث هبوط مركبات ثقيلة، ولا أدنى دليل على احتمال وجود نظام قنوات لإيصال مياه النبع أو لتخزين مياه صالحة للشرب تكون ضرورية للمسافرين وللمستخدمين في المؤسسة.

ولكن على مسافة كيلومترات وكيلومترات من جميع الجهات، وبدءاً من مسافة بضعة كيلومترات من هذا المطار الذي ليس مطاراً، أشاهد رسوماً تخطيطية غريبة على الأرض.

إنها تلك الأثلام التي تابعتها أمس وهي التي حدودها. إنها مستقيمة وتتفرّع وتتقاطع لتؤلف مستطيلات وأشكالاً هندسية أخرى، ومتعددات الزوايا غير منتظمة، ثم إنها تنقطع فجأة. والتخطيط من الوضوح الشديد بحيث أنني اقتنعت بأنه نتيجة إرادة ذكية لم تدع أي شيء للمصادفة.

والمدهش أكثر، بعد، هي المنحنيات التي كنت شاهدتها، وهي تغدو الآن مفهومة ـ من دون أي ظل شك ـ وتؤلف تصاوير هائلة: طيراً، وعنكبوتاً، وسمكة، ويَغْوَراً، وحوتاً، ومخلوقاً إنساني الشكل، وتمثيلات متنوعة لكائنات أو أشياء مجهولة. وتبلغ هذه الأشكال مئة وخمسين متراً وأكثر طولاً وعرضاً. وهي تصطف على مساحة مسطّحة كنت قد استكشفتها أمس. وفي غياب صور جوية أو أي شكل من الإشراف الجوي، لا أحد كان باستطاعته أن يرسم أشكالاً بمثل هذا الحجم.

وآخذ في التفكير. على لوحة الرسم الهائلة التي تمتدّ أمامي، مقلوبة نحو السماء، سجّلت الرسالة، رسالة ذات تعقيد كبير جداً. وسواء أكانت إرادة واعية بشرية أم غير بشرية، فإنها هي المسؤولة عن ذلك. وأحلّق فوق أحد الأماكن النادرة في الكوكب حيث يمكن أن تكون هذه الرسالة قد خطّت على نحو دائم وباقٍ.

إن الرمز، ومعنى الرسالة قد فُقدا، بحيث أن جنسنا البشري لم يتمكّن قط من فك رموزها. ولا يدهشني، على نحو أقلّ، في هذه العزلة الهائلة التماع الذكاء المفاجىء الذي قفز عليَّ عبر القرون. إن شيئاً ما يُبدي لنا وجوده.

ليتخيّلنَّ المرء نفسه وحيداً في مبنى ضخم، الأبواب فيه مقفلة بالمفتاح. ويشعر المرء وهو جالس في قاعة متوسطة فارغة مثلها كمثل سائر القاعات، بنَفَس مفاجىء على عنقه. أي وجود؟ هوذا تقريباً الأثر الذي تحدثه فيَّ هذه الخرائط والرسوم في الصحراء.

ثم إن فكرة أخرى تخطر في بالي. إن هذه الخطوط المستقيمة كالأسهم ليست عصية على فك رموزها كما تبادر إلى ذهني أولاً.

لنتأمل خريطة جوية، إن خطوط السير [جوّاً] تتقاطع فيها كما لو كانت بالمصادفة، شديدة الشبه بالخطوط التي هي تحت ناظريّ. وإذ يعيّن الملاّح موقعه على الخريطة، يترجم هذه الخطوط على أنها ممرات جوية متنوعة، خطوط السير المقدَّمة إليه.

قد تكون تخطيطات بلاد ناثكا استُخدمت كمؤشر إلى خطّ السير والمسافة لروّاد فضاء محتملين في عصر ما قبل التاريخ. مؤشر إلى المسافة ــ ومن هنا أطوالها المختلفة، مؤشر إلى الاتجاه ــ ومن هنا كان توزيعها.

ولكن الاتجاه إلى ماذا؟ إلى مختلف الأماكن في الكرة حيث يمتلك هؤلاء الزوّار المجهولون قواعد؟

قلت بيني وبين نفسي إنه في يوم من الأيام، ربما سينكبّ باحث مشغوف على تفحُّص هذه الخرائط الغامضة التي أورثنا إياها أبناء العصور القديمة، ويغدو قادراً على إعادة تشكيل الشبكة الكوكبية التي تفسّر تخطيطات بلاد نائكا. ولكن بانتظار هذا اليوم، فإن بتصرُّفنا بعض المعلومات.

في البدء، أنا أعرف العمر التقريبي لهذه الرسومات في الصحراء. في طرف أحد هذه الخطوط، فحص أركيولوجي، في الواقع، «معْلماً» (صوّة) خشبياً بطريقة «الكربون ١٤»، الأمر الذي أتاح إعادة الأصل إلى السنة ٥٠٠ للميلاد، على وجه التقريب، أي قبل ألف سنة من أمبراطورية الإنكا.

علاوة على ذلك، قام الدكتور بول كوزوك، من جامعة لونغ آيلاند الأميركية، يقوده حدسه، سنة ١٩٤١، باكتشاف مهمّ آخر. فلقد خطرت له فكرة أن الخطوط قد يكون لها معنى فلكي. وعلى ذلك، في ٢٢ حزيران، من تلك السنة، وهو يوم المنقلب الشتوي، في نصف الكرة الجنوبي، تمركز في الصحراء، على طول أحد هذه الخطوط، لدى غروب الشمس. وقد أشار الخط تماماً إلى اتجاه الشمس عندما بلغت الأفق. إنه خط منقلب!

وشرع في تفحُّص مختلف الخطوط الأخرى، وتبيّن له أنها تقدم، فعلاً، معطيات يفهمها الفلكي. كانت تتعلّق بمدارات الكواكب، والشمس، والقمر، ومختلف النجوم. واكتشف، انطلاقاً من فرضية أن الخريطة قد رُسمت في مطلع القرن السادس، أن خريطة للسموات كما كانت آنذاك قد تطابقت مع عدد كبير من الخطوط. واستخلص من ذلك أن هذه الأشكال الهندسية المرسومة في الصحراء قد تكون «أكبر تخطيط فلكي في العالم» على الإطلاق.

إنها دراسة لا ريب فيها على مستوى الأرض، طالما أنها لم تكن مقروءة وقابلة للاستخدام ـ إلاّ من قِبل منطاديين (راكبي منطاد)، وعلى وجه الاحتمال أكثر، من قبل روّاد فضائيين، ولعلّ هؤلاء الأخيرين كانوا غير معتادين على مظهر مجموعات النجوم منظور إليها من الأرض. وعلى ذلك،

كانوا، أكثر من الطيارين المحتملين، بحاجة إلى خريطة للسماء[٢].

على الأقل، وللدفع، بعد، أبعد الفرضية التي شرعت في صياغتها في الألتيپلانو، إذا كانت حملة ما أقبلت من الفضاء وحطت حقيقة في بحيرة تيتيكاكا وأنشأت قاعدة في تياهواناكو، فبالوسع أن ندرك تماماً أنها إنما قامت تالياً برسم خريطة ملاحة هائلة في بلاد ناثكا، لإرشاد طواقم الحملات اللاحقة.

وإذا افترضنا أن تحقيق هذا المشروع استغرق شهوراً لا بل سنين، كما يحمل كل شيء على الاعتقاد، فسندرك أن عدداً كبيراً جداً من البشر اضطر إلى الإقامة في بلاد ناثكا.

في إطار مشروع مانهاتان ـ ضبط وتركيز الأسلحة الذرّية الأولى وصنعها ـ أنشأت الولايات المتحدة الأميركية مدينة جديدة في أوك ريدج، في ولاية تينيسي. وإنه ليُسمح بالاعتقاد أن حضارة سليمة أكثر، وأقدم قد استطاعت أن تقوم بمثل ذلك، على خير وجه.

إني أحاول أن أتصوّر البشر الذين كانوا يقطنون المنطقة في خلال عصر ما قبل التاريخ. ومن أجل القيام بذلك، أرجع إلى المؤلفات التي تعالج المسألة:

«إن حضارة ناثكا، التي نمت وتطورت في الحقبة نفسها التي نمت فيها وتطورت حضارة معروفة أكثر، هي حضارة تياهواناكو، قد دامت، بحسب، كل المظاهر، تحت تأثير هذه الأخيرة حتى زمن الفتح الإنكاوي في القرن الخامس عشر. ولا نعرف إلاّ القليل عن شعب ناثكا. فلا يمكن أن يعزى إليه أي قرية، ولا أي نصب على وجه التأكيد. مع ذلك، فقد اكتشفت في الأضرحة أمثلة رائعة في فن الخزفيات والنسيج. فالفخاريات المبرنقة (المطلية بالبرنيق)، ذات الخطوط الصافية المزيّنة أو المزخرفة برسوم زيتية متعددة الألوان، لا تشبه في شيء أياً من المخلفات الفنية في سائر الثقافات البيروفية». (فردينان أنطون، «**فن الپيرو القديمة**»).

لقد اكتُشف تقريباً ٢٢٥ ألف إناء من صنع ناثكا، إذاً؛ إن لدينا هنا جالية ذات شأن، نسبياً. وكالعادة، كشف الأركيولوجيون، على وجه الخصوص، قطعاً من الفخاريات. فالزلازل، وثقل التراب الذي يتكدس شيئاً فشيئاً فوقها، دون أن نحسب الصدمات التي قد تكون نزلت بها لمّا كانت بعد قيد الاستعمال، هي بعض الأسباب التي تبرر عدم عثور الأركيولوجيين على آنية كاملة أو سليمة من الطين (الصلصال). وعلاوة على ذلك، كان التقليد يقضي بتحطيم (= قتل) الأشياء التي تخص الأموات لكي تُدفن مع أصحابها الراحلين.

عندما أعيد تشكيل آنية ناثكا انطلاقاً من القطع تلك، تمّ القيام بعدد من الاكتشافات المذهلة.

إن آنية ناثكا هي، عموماً، مزيّنة بصف من الوجوه، مرسومة أو مبرنقة، يختلف بعضها عن البعض الآخر. ويتباين لون بشرتها ما بين الأبيض والأسود، مروراً بالأصفر، والبنيّ، والنحاسي، إلى حد بعيد، بحيث أنني لا أتمالك من التفكير في وجوه تياهواناكو.

على عدد معيّن من سائر الآنية يظهر شيء أكثر لفتاً للنظر، بعد: حيوانات اللامة (الجمل الأميركي) ذات خمس أصابع في كل قدم، في حين أن اللامات التي نعرفها ليس لها غير إصبعين اثنتين، وحسب، في أقدامها الظلفاء.

وبحسب رأي علماء الإحاثة، كان لدى اللامة، قبل آلاف السنين، خمس أصابع في كل قدم ظلفاء، أي في العصر الحجري، لمّا كان قد بقي للإنسان الذي شرع في استعمال الأدوات، بعد طريق طويل يقطعه قبل أن يكتشف الفخاريات.

حسناً، إن مؤسسي تياهواناكو القدامى قد استطاعوا تماماً أن يتفرقوا في الصحراء البيروفية . والأناس الذين رسموا الخرائط والأشكال الهائلة قد

استقروا، على وجه الاحتمال، في المنطقة التي عاشوا فيها نحو ألف سنة قبل أن يدمر الإنكا، على نحو منهجي، تراثهم وتقاليدهم.

ولكنني أقول بيني وبين نفسي، وأنا أتابع استدلالي، ماذا حدث عقب وضع الرسائل الموجهة إلى المسافرين في الجو في مكانها؟ ماذا فعل زوَّار الفضاء؟ أمدوا سلطتهم بإرسال بعثات إلى مناطق أخرى في أميركا الجنوبية، أو صوب بلدان نائية؟

ولكن، إذ ذاك، كانوا حتماً رسموا «خرائط طُرُقية» أخرى لإرشاد المنطاديين أو الرواد الفضائيين المحتملين صوب أماكن سكنى مختلفة. هل لدينا براهين بصدد هذا الموضوع؟

بالنسبة إلى معظمها، إن هذه الرسوم التخطيطية، فيما لو لم توجد مطلقاً، قد تلقت هجمات التأكُل، والفيضانات، والهزّات الأرضية، وجموع المستعمرين ـ باختصار، إن هناك كل الأسباب لكي تكون قد اختفت.

مع ذلك، فقد اكتشف بعض المستكشفين مخططات قد تكون لها وجهة الاستعمال نفسها.

هناك، على مسافة خمسين كيلومتراً أعلى من ولاية كولورادو، وفي صحراء موجاڤ، في ولاية كاليفورنيا، موقع بحيرات جافة تجعل الصخور الشديدة التحدُّر والوعرة من شبه المتعذر بلوغها. هناك في أرضية البحيرات القديمة، يمكننا أن نشاهد حفيرات أو خنادق ذات رسوم جلية على نحو مميَّز. وهي تدعى متاهة موجاڤ. وقد أكد الهنود الحمر في موجاڤ، القاطنون اليوم في المنطقة دوماً، أن المتاهة لم تكن من صنع أسلافهم الشخصيين طالما أنها كانت موجودة لدى وصول قبيلتهم.

إنه شعب آخر من شعوب ما قبل التاريخ من حفر هذه النقوش الغريبة، على الجدران الصخرية في شِعب (مفرج بين جبلين) تَيْتوس، في مكان منعزل في وادي الموت، في كاليفورنيا الجنوبية. هناك خرفان، وعظايات،

وشيء قد يكون شمعداناً رأسه إلى أسفل، ومثلثات، ومعيّنات، وخطوط متعرجة [بارتفاع وانخفاض] وسلسلة غير تامة من خطوط ملتوية تشع (تتفرق وتنتشر) من دائرة مركزية، لعلّها تشير إلى أن أحداً ينطلق من نقطة معيّنة، يذهب في ستة اتجاهات مختلفة بدءاً من هذه النقطة، ولكن في ستة اتجاهات، وحسب.

ويغرق الباحثون في التخمينات، غير أن الرسوم البيانية العائدة إلى ما قبل التاريخ، لم تكشف قط أسرارها.

وقد سمعت كذلك الحديث عن «طرقات» مرسومة على نحو أقل، ربما، وخطوط مستقيمة لا تؤدي إلى أي مكان، ولكنها ترسم في ما بينها أشكالاً جد محددة. وهي توجد في الأودية المتأخرة في زانا ولامباييكي في شمالي تشيلي. وإنه ليُسمح بالاعتقاد أن القدامى قد انتشروا، على وجه الخصوص، في أميركا اللاتينية، مكتفين بإنشاء قاعدة جوية أو قاعدتين جويتين اثنتين في الصحارى الكاليفورنية. ولكن بوسعنا كذلك أن نتصوَّر أنهم كانوا يمتلكون عدداً غير قليل من القواعد الجوية التي امّحت اليوم.

وبالعودة إلى الأشكال في صحراء ناثكا، فإنني أقوم في صددها باكتشاف جدّ مهم. إن أحدها يمثّل على نحو جليّ عنكبوتة قائمتها الثالثة تقدم شذوذاً (خروجاً على المألوف) مميزاً. فلدى تفحُّص الصور الفوتوغرافية الجوية، والحالة هذه، شاهد العلماء الاختصاصيون بالحشرات فيها عنكبوتة باسم «ريسينولاي»، من النوع الذي لا نجده إلاّ في الأدغال الأمازونية. فهل كان أحد سكان بلاد ناثكا على اطِّلاع على أعماق الأدغال الأمازونية؟

بعد الخرائط العائدة إلى ما قبل التاريخ، والرسوم الهائلة، إلى أين ستقودني نظريتي في الوقت الراهن؟ أين استطاعت الحضارة الفضائية أن تخلّف آثاراً لمرورها؟

هأنذا، إذاً، على الطريق هل أن القيعان البحرية القليلة العمق ستقدّم إليّ الزريدات (الحلقات في السلسلة) الناقصة في برهاني؟

هوامش المترجم

(١) **جبل رشمور** هو جبل في التلال السوداء في جنوبي غربي ولاية داكوتا الأميركية. وقد نُحتت على جانبه وجوه هائلة الحجم للرؤساء الأميركيين: جورج واشنطن، وتوماس دجيفرسون، وأبراهام لنكولن، وثيودور روزفلت، وودرو ولسون، ويدعى النحات غتزون بورغلام (١٨٦٧ ـ ١٩٤١).

(٢) تفحّص رواد الفضاء في سكايلاب ـ ٢ (المختبر الفضائي الأميركي)، بإيحاء جزئي من الإذاعة المتلفزة ذات العنوان «**بحثاً عن رواد فضاء قدامى**» موقع ناثكا، وقد صرحوا بأنهم شاهدوا خطوطاً ليس لها أي معنى خاص، منطلقة منها.

٧

ما يُبكي الآلهة

إن المياه فاترة وصافية، والغوص لا يشكّل أي صعوبات. أنا لست بعيداً أكثر من كيلومتر واحد في عرض بيميني، وما أشاهده من خلال قناعي يجعل جلدي مقشعراً. إن جدران أولنتايامبو وتياهواناكو لها نسخة مطابقة في قاع المحيط. وقد أحالتها قرون من الرسوبات المرجانية ذات لون أبيض ساطع، غير أن حزّات أو فُرَيضات التوصيل ما تفتأ مرئية. وأتعرَّف إلى يد البناة المهرة في الألتيپلانو. إذاً، إنها هناك!

لقد سمعت في خلال حديث مع آلن لرنر للمرة الأولى عن جدار بيميني. إنه شاعر ومؤلف كلمات أوپرات أو أغنيات، مشهور، على نحو أكبر، بأنه مؤلف أغنيات المسرحية المعروفة «**سيدتي الجميلة**» (My Fair Lady) أكثر من شهرته بأعماله الأركيولوجية. وقد اشترك آلن لرنر في عدد من الحملات في البحر الكاريبي. وكان الأمر يتعلق بالبحث عن إثبات مرور أشخاص من خارج الأرض أو جوها في المنطقة. وقد كان مقتنعاً بأن جزر

البهاما تخفي إشارات مهمة. وما شاهدته في بيميني يؤيدني بالنسبة إلى هذه الفكرة [البهاما: دولة جزيرية في المحيط الأطلسي في الجنوب الشرقي لولاية فلوريدا الأميركية، مساحتها ١١٤٠٥ كيلومترات].

أنا لست أول من أقبل لاستكشاف هذه الأمكنة. إن عدداً من الاختصاصيين قد قاموا هناك ببحوث مكثفة. وبالنسبة إلى البعض، فإن جدار بيميني لا يتعدى كونه تكويناً صخرياً طبيعياً. وبالنسبة إليّ أنا شخصياً، فإن وضع الكتل الحجرية في ما بينها يناقض هذه الفرضية. أنا أتصوَّر بسرور أن تيارات كائنة تحت البحر تتأكّل وتحفر سطحاً صخرياً، ولكنني لم أسمع قط بعد بتيار قادر على إحداث حزّات أو فريضات دقيقة، ونحت الصخر بزاوية مستقيمة.

تقدم الدكات الصخرية في البهاما أدلة «ملموسة» على مرور حضارات قديمة. ولكن من أجل اكتشاف موقعها الصحيح، فأنا أصطدم بمشكلة. فنظراً إلى الثمن الباهظ للأشياء القديمة، فقد أصبحت اكتشافات المواقع الأثرية بمثل قيمة السفن الشراعية التجارية التي استُعملت قديماً خصوصاً لنقل الذهب إلى إسبانيا من مستعمراتها (وتُعرف بالغليون) الأسطورية الغارقة مع الذهب. إن هذه الظروف لا تسهّل لي المهمة. فما إن أتوجه إلى امرىء مختص، حتى يستقبل أقوالي عموماً بشفتين مزمومتين وعين مرتابة. ويسترخي قليلاً عندما أتوصل إلى إقناعه بأني أسعى وراء المعلومات على نحو صادق تماماً، غير أن الخفاء يبقى القاعدة، وكما قال لي أحد الغواصين:

ـ إذا أنت قدمت اسمي ووصفاً لما أعثر عليه، سيكون هناك، على الفور، سبعة عشر شخصاً، يدرون بصورة غامضة أين غطست، لكي يقتفوا الأثر، ويقوموا بنهبٍ حسب الأصول.

وما إن وعدت بالحفاظ على الخفاء أو السرية، حتى حصلت على معلومات تبشر أكثر بخير جمّ.

وأسرَّ إليّ أحد المستكشفين في المناطق الكائنة تحت المياه بقوله:

ـ لقد اكتشفت أربعة عشر مبنى.

ويعقب هذا الإعلان صمت. إنه يقتضيني لحظة قصيرة لهضم هذا النبإ. إنه يعود إلى حملة قام بها حول «**أرخبيل الذهب**» كما يدعون البهاما كذلك، وهو أرخبيل مؤلف من ٧٠٠ جزيرة منتشرة على مساحة ٢٣٥ ألف كيلومتر من المحيط، شرقي فلوريدا وكوبا.

ـ أين غطست؟

ـ في عرض جزيرة أندروز، كما ترى.

قليلون هم الأميركيون الذين يعرفون البهاما ـ ولكن لكوني مهتماً بالأرخبيل فأنا أعرف أندروز.

إنها إحدى أكبر جزر البهاما، ويبلغ طولها ١٥٠ كيلومتراً.

وفي داخلية الأراضي، ما تزال بعض الأحراج والغابات المجزَّعة بمجاري المياه بكراً. وحدها القرى الصغيرة جداً تنتشر على سواحلها. وعلى الرغم من حجمها، ومع أنها لا تبعد سوى ربع ساعة عن ناسو (الجزيرة الوحيدة التي يعرفها الأميركيون)، فإن أندروز هي واحد من الأمكنة التي قلما تزار في الأرخبيل.

قلت:

ـ أحسب أنك لم تغطس في الشرق؟

شرقي الجزيرة، يقوم الشِعْب (= مفرج بين جبلين) الكائن تحت الماء والمسمَّى «**لسان المحيط**»، على عمق ألف باع (الباع هو قياس بحري يختلف طوله باختلاف البلدان ولكنه يراوح بين متر ونصف ومترين اثنين).

ولكن، في الشمال، وفي الجنوب، وفي الغرب، تمتد دكّة البهاما الصخرية الكبرى القليلة العمق حتى منتصف الطريق إلى فلوريدا.

ويغمغم من غير أي تعليق آخر:

ـ أيها الإله الطيّب. لا!

ـ حسناً، وأي نوع من الأنصاب وجدت؟

ـ جدران من حجر. حجر كلسي سماكته أكثر من متر.

قلت:

ـ يبدو هذا منطقياً. ينبغي أن يكون الحجر مادة البناء السائدة أكثر من سواها في جزر البهاما.

إن الحجر الكلسي، كما تعلم بلا ريب، هو حجر رسوبي تشكّل بالضغط الذي يمارسه المحيط على متحجرات عدد لا يحصى من الكائنات البحرية. وأعرف أن أرخبيل البهاما كلّه يقوم على طبقة كلسية.

قال:

ـ أجل. إنه بوجه الاحتمال ما يستخدمونه إذا أرادوا بناءً على نحو متين. وأقول تماماً: إذا.

ـ أتود أن تقول إن السكان الأصليين لم يسبق لهم قط أن قاموا بذلك؟

فهز رأسه.

ـ لما نزل كريستوف كولومبس (حوالى ١٤٥١ ـ ١٥٠٦) إلى اليابسة هنا، لم يعثر على أي مبنى حجري، حتى متهدّم. في الواقع، إن الهنود الحمر في منطقة الكاريبي، [التي تضم جزر الأنتيل والأراضي القائمة على ساحل بحر الأنتيل]، لا يبنون شيئاً بحجارة. فهم يعيشون في الأكواخ والكهوف.

ـ والإسبان؟

ـ كانوا منشغلين بذهب أميركا فلم يقلقوا على البهاما أو يبالوا بها. من جهة أخرى، إن الجدران التي اكتشفتها تحت هي أجمل كثيراً من جدران الإسبان.

ـ كيف كان ذلك؟

ـ إنها كتل صخرية ضخمة منحوتة ومجموعة بإتقان.

ـ إن ذلك يذكرني، على نحو غريب، بتلك التي شاهدتها في سلسلة جبال الآندز.

وأستغرق، مفكراً، في تأمل البحر لحظة. وتغبّن النكيبات (الرياح التي تهبّ من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي) بالأبيض المياه ذات اللون الأخضر المتلألىء. وأفكر في المسافة التي تفصل تياهواناكو عن جزيرة أندروز! مسافة لا يمكن اجتيازها إلاّ على متن طائرة، ما لم يشقّ المرء لنفسه طريقاً عبر الجبال الشديدة الانحدار، ويحاذِ ساحل المحيط الهادىء، ويجتاز أميركا الوسطى ومنطقة الكاريبي، في عرض جزيرة تاهيتي، وكوبا، وعدد كبير جداً من جزر البهاما.

ـ هل أن المباني قريبة بعضها من بعض؟

ـ إن بعضها يقع على مسافة مئتي متر من البعض الآخر، ولكن قد يفصل نحو ثمانية كيلومترات بعض المباني عن المباني الأخرى.

ـ صف لي أكبر مبنى.

ـ إن أحد المباني يبلغ طوله ٧٥ متراً، وعرضه ٢٥ متراً. وهو مقسم إلى ثلاث غرف، ولا يُرى فيه أي نوافذ أو أرضية، ما لم تكن مدفونة عميقاً في الرمل.

ـ ما كانت وجهة استعماله، في رأيك؟

ـ لعله كان معبداً. في يوكاتان، مثلاً، أعرف معبداً مستوى أرضه هو نفسه تماماً. إنه يدعى أحياناً «**معبد الأقزام**» أو «**معبد السلاحف**». وهو في أوسمال، وقد زرته شخصياً.

وأضايق مخاطبي قليلاً:

ـ وماذا لو كان ذلك فخاً للسمك، أو حوضاً للسلاحف والإسفنج الذي يكونون قد اصطادوه.

ـ لا. أنا أعرف أن الأركيولوجيين قدّموا هذا الإيحاء بصدد التشكيلات التي يُعثر عليها في عرض بيميني. غير أن تلك ليست الحال هنا. هل أن حديقة للسلاحف يجب أن تكون مستطيلة تماماً؟ لماذا لم يقتصروا على نحت الكتل التي كان ينبغي في ما بعد جرها عبر الشاطىء وتجميعها بطريقة دقيقة تماماً ؟ إن هذه الجدران ليس فيها شيء بدائي.

ونمضي بعد لحظة طويلة في النقاش. ويروي لي أنه لدى الحفر حول المبنى الضخم الذي سبق لي وصفه، كشف عن قطع من الفخاريات والتماثيل الخزفية. ولكنه يعجز عن معرفة من صنع أي حضارة هي.

وبلغت بحوثه طريقاً لا ينفذ، كما أوضح لي. ففي خلال سنتين اثنتين، أرسل صوراً فوتوغرافية إلى اختصاصيين في العالم بأسره من غير أن يجد واحداً يعرف هذه القطع من الفخاريات أو هذه التماثيل. ولم يشأ أحد أن يجازف بتصنيفها، ولا حتى بإعلان فكرة حول الحقبة التي نشأت فيها، خشية أن يغدو هزأة في أنظار سائر الاختصاصيين.

وسيُسرُّ إليّ في ما بعد بقوله:

ـ لقد خشي الجميع التورط في جدل بصدد الأطلنتيد.

إن الدليل الفرد الذي حصل عليه حول المسألة هو الوحيد الذي لدينا الآن. فبالوسع أن نقيِّم بكيفية إجمالية عمر الأشياء التي قد شويت في الفرن بفضل عدد من الاختبارات العلمية. ووفقاً لهذه الاختبارات، يعود تاريخ الأشياء التي عُثر عليها إلى ما يراوح بين ٥٠٠٠ سنة و٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

إن علم الأثريات (الأركيولوجيا) الخاص بالأشياء الكائنة تحت الماء، هو علم حديث جداً، ولم يغدُ الاستكشاف ممكناً حقاً إلاّ في سنة ١٩٤٢ عندما اخترع القومندان جاك كوستو [الفرنسي] مغطسته (صدرة الغوص) التلقائية. وإنه لاختراع عجيب يتيح للغواصين ذوي الخبرة أن ينقبوا في قاع البحر، فاتحين هكذا خمسة ملايين كيلومتر مربعة من الأرض المغمورة للبحث.

في المغاور الفرنسية والبريطانية الكائنة تحت الماء، اكتشف غواصون ذخائر ثمينة يعود تاريخها إلى ما قبل العهد الميلادي، وكذلك رسوماً جدارية تؤلف أقدم الجداريات في تاريخ العالم. وفي البحر الأبيض المتوسط، عُثر على مختلف أنواع الآثار لأقدم أسلاف الحضارة الغربية، من المصريين، والفينيقيين، والإترورريين (سكان إتروريا التي كانت تقع قديماً غربي إيطاليا)، والإغريق، والرومان. . . وفي البهاما، كما قال لي، بوسعهم أن يكتشفوا الآثار الأكثر أهمية من الجميع.

وعلى حد تعبير البحارة الماهرين، «ليس الماء هو ما يُفْتَقَد في البهاما، إنه القاع».

فوق هذه القيعان، البحر هو الأكثر صفاءً في العالم، ذلك بأن لا نهر يروي جزر الأرخبيل (باستثناء نهر «ليتلغوز [الإوزّة الصغيرة]، في جزيرة أندروز). ويقول الذين حلّقوا فوق الأرخبيل إنهم شاهدوا جدراناً، ومباني، وساحات، وطرقات معبدة في قاع هذه السهول البلورية. حتى إنهم يتحدثون عن قلعة مساحتها نحو هكتارين اثنين، في عرض كوبا.

ولكن كيف السبيل إلى التمييز ما بين الخيال والحقيقة؟ بغضّ النظر عن أن الرمال المتحركة تسارع غالباً إلى تغطية ما قد يكون سبق لنا أن شاهدناه. غير أن استكشافي الشخصي سيحمل إليّ الكثير من الترضيات.

إذا نحن أخذنا بحسابات الجيولوجيين والأركيولوجيين، فإن منطقة الدكّات الصخرية جميعاً في البهاما لم تُغمَر إلا منذ حقبة حديثة نسبياً. من جهة أخرى، أنظر إلى خريطة التضاريس الأرضية في القيعان البحرية المحيطة بالأرخبيل. ظلِّل بالقلم الرصاص القيعان التي لا يجاوز عمقها ١٥ متراً، فتشاهد بروز جزيرة كبيرة، ملأى بالصدوع والشقوق، التي يدخل في خلالها المحيط، بما في ذلك الشِعب الكائن تحت الماء، **ولسان المحيط** الذي ينغرز عميقاً في داخلية التضاريس الأرضية من البهاما غربي أندروز.

وقد جازف غواصون بقيامهم باستكشاف الجدران الشديدة التحدر التي تؤلف القاعدة الشرقية لأندروز. وقد اكتشفوا مغاور وكهوفاً تحت الماء حيث تغزر الصواعد (الرواسب الكلسية المتحجرة في أسفل المغاور) والهوابط (تلك المتحجرة في سقوف المغاور). وهو تبخّر الماء الغني بالمعادن ما يؤلف الهوابط؛ وكيف يمكن أن يحدث التبخر إذا كانت المغارة مغمورة؟ أما في ما يتعلق بالصواعد، فإنها تُصنع بقطرات الماء المتساقط من القبة إلى الأرض حيث تلقي ذرة من المعدن غير الخالص؛ ظاهرة مستحيلة كلياً إذا كانت المغارة في الماء. إذاً، ليس ثمة من شك في أنه في أثناء تشكيل هذه التكثفات أو الرسوبات، لم تكن المغاور قد غُمرت بعد بالماء.

لماذا أوضحت أن هذا الانغماس أو الانغمار كان «حديثاً» نسبياً؟ إن الجيولوجيين لعلى يقين من أنه في خلال الحقبة الكبيرة الأخيرة من العهد الجليدي، هبطت كتل هائلة من الثلج حتى بلغت ولاية وسكونسن الأميركية، وأن المَجْلَدات لم تبدأ انحسارها البطيء شطر الشمال إلاّ حوالى سنة ٩٠٠٠ قبل الميلاد. وفي خلال القرون التي تلت، وبينما كانت جبال الثلج تذوب. سنتيمتراً إثر سنتيمتر، ثم متراً فمتراً، راح مستوى المحيط يصعد مئة متر، على الأقل، بالنسبة إلى المستوى السابق، عندما كان هذا القدر من الماء

حبيس المجلدات. ومع ارتفاع مستوى البحر، غُمر عدد كبير من الجزر وقسم كبير من سواحل القارات.

أنا أرى شخصياً في ذلك تفسيراً للطوفان الذي يروي خبره العهد القديم من الكتاب المقدس. وإننا لنجد، من جهة أخرى، روايات شبيهة بكيفية غريبة لدى القبائل البدائية، والحضارات المتقدمة في مناطق كثيرة من العالم.

في آثار أُور (الكلدانيين) في بلاد ما بين النهرين، وأطلالها، نعثر على عدد هائل من الأدلة التي تثبت أن فيضاناً كارثياً قد حمل طبقة من الصلصال (= الطين) سماكتها ثلاثة أمتار؛ وتصف ألواح صلصالية في نينوى [في العراق] معركة ملحمية ضد موجة من الوحل سوّت الأرض ومهدتها إلى درجة أنها جعلتها «منبسطة مثل السطح». وقد سادت الأساطير التي أدخلت الطوفان في ذلك طوال قرون في أستراليا، وفي الهند، وفي پولينيزيا، وفي التيبت، وفي كشمير، وبلغت حتى لتوانيا، في أوروپا ـ وهي إحدى دول البلطيق.

إن لديّ الانطباع بأن التفسير الجيولوجي والأركيولوجي ينطبق في آن معاً على الآثار والأطلال المغمورة في حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي بحر إيجه، وعلى المباني المغمورة في جزر البهاما، وعلى الروايات الإغريقية واللاتينية القديمة حول القارات المفقودة، والجزر الغامضة، والمدن المنسية «المغمورة بالأمواج».

نستطيع، بالطبع، أن نتصوَّر أن عدداً من المواقع قد غُمر نتيجة هزّة أرضية. ولكن في التحليل الثاني، أنا أعتقد أنها إنما غُمرت، وحسب، في حقبة الفيضانات الكارثية التي حدَّدت نهاية الحقبة الجليدية.

إن أحداثاً كارثية كهذه ستكفي، بلا أدنى ريب، لتثبيط همة مستعمرين من خارج الأرض أو جوها، الذين سيشهدون عقب تأسيسهم هنا وهناك بعثات جديدة، الصعود القاسي للمياه التي ستغمر صنيعهم.

ومع التسليم بأنهم قد تصوَّروا أن المياه ستنتهي إلى غمر كل شيء، باستثناء القمم والذرى الأكثر ارتفاعاً، فإن بشراً كاملين أو مثاليين أمثال ڤيراكوشا، أو كتزالكواتيل، أو كوكولكان، قد استطاعوا الرحيل على متن مركبة فضائية، واعدين بالعودة في مستقبل غير متوقع.

ولنفرض أن تياهواناكــو كانت أول قاعدة أقامها على الأرض بشر أقبلوا من عالم آخر. ولنفرض أيضاً، كما سبق أن فعلنا في فصول سلفت، أنهم أوفدوا رسلاً عبر سلسلة جبال الآندز، لكي يختلطوا بالسكان الأصليين، ويركزوا علامات هائلة صامتة في أماكنها عبر صحراء الپيرو لإرشاد المركبات الفضائية التي ستصل في ما بعد، ماذا كان يمكن أن يكون مشروعهم المقبل؟

إن رأيي هو أنهم كانوا أقاموا في تلك الحقبة قاعدة جديدة على أرض واسعة ومستحبة، هي هضبة البهاما.

ليس لديّ إلاّ برهان واحد مقنع نوعاً ما، أقدمه: التماثل الهندسي المعماري في المباني المغمورة مع آثار جبال الآندز، الذي لا نشاهده في أي مكان آخر في العالم: كتل الحجارة الهائلة المنحوتة والمجموعة بدقة كاملة. ولكن، حتى إذا ما بدت الفوارق في أثناء الفحص المعمَّق أكثر، فأنا سأواصل طرح السؤال نفسه: أين تعلّم بُناة أندروز المجهولون نحت الكتل الحجرية الهائلة، والتعامل بها؟

لم يجد الأركيولوجيون آثاراً أخرى لمرور حضارة من عهد ما قبل التاريخ متقدمة كثيراً في البهاما ـ ولا في مكان آخر في الهند الغربية، وكوبا، وهايتي، أو في جزر أخرى في بحر الأنتيل، ولا حتى على طول الساحل الأطلسي للقارة الأميركية.

أي أدوات استخدموا لنحت الحجارة في تياهواناكو، ومدن الإنكا، وبالتالي في حزيرة أندروز؟

كان ينبغي أن تكون بسيطة وقابلة للنقل، فيما إذا كان مستعملوها يحملونها إلى مكان بعيد.

بوسعنا أن نؤكد تقريباً أن الأمر كان يتعلق بأدوات ميكانيكية. مع ذلك، أنا لم أشاهد شيئاً في البهاما يوحي بمصدر طاقة يعود إلى عهد ما قبل التاريخ. فالمعادن والركائز (المعادن غير الخالصة) هناك نادرة جداً. وقد أُلفي صعوبة في تصوُّر أنهم استخدموا الطاقة الهيدروليكية (= المتحركة بالماء). غير أن مصدر طاقتهم هو، ربما، مجهول كلياً منا، ذلك بأن حال العلم الراهن لا يسمح لنا بأن نقترب منه أو نصل إليه.

إن ذلك لا يمنع من أن يكون لديّ فكرة غامضة بصدد مصدر الطاقة، هذا. والدليل الذي تستند إليه يقع في صميم سرّ أو لغز آخر، يحوم منذ وقت طويل جداً فوق المحيط المجاور.

٨

رحلات في حافات الكواكب

٥ كانون الأول ١٩٤٥. يقلع سرب من خمس قاذفات قنابل تابعة للبحرية الأميركية من قاعدة لودرديل الجوية ـ البحرية، في فلوريدا، للقيام بطيران تدريبيّ عاديّ. الوقت هو الثانية بعد الظهر، والطقس جميل وحارّ، وسرعان ما يختفي السرب في طيرانه ذي الرقم [١٩] في تشكيل ملزوز باتجاه الجنوب الشرقي وجزر البهاما.

بعد ساعة ونصف الساعة، لم يعد السرب من رحلته ذات الرقم [١٩]. وتحاول القاعدة الجوية ـ البحرية إقامة اتصال بوساطة اللاسلكي.

في البدء، لم تتوصّل إلى ذلك. ثم إنه يُسمع صوت الملازم الشاب تشارلز تايلور، قائد الرحلة:

ـ أنا أُنادي برج المراقبة، الحالة طارئة. يبدو أننا خرجنا عن خط السير المنظور. لا نرى أرضاً. أكرر لا نرى أرضاً.

ويستفسر إذ ذاك المراقب الجويّ:

ـ عيّني موقعك، أيتها الرحلة [١٩].

ـ نجهل موقعنا... يبدو أننا تهنا.

ويزمجر المراقب الجويّ وهو يلعن في سرّه حماقة الملاّحين الشبان والربابنة الناشئين:

ـ حلّقوا تماماً باتجاه الغرب... إن بضع دقائق ستكفي لكي تعاينوا المحيط.

ـ إننا نجهل جهة الغرب... كل شيء، يبدو غريباً... بما في ذلك المحيط.

ذلك كان جواب الملازم تايلور، الذي يبدو أنه مضطرب أكثر فأكثر.

ويعتري الاتصال اللاسلكي تشويشات غير معتادة. وفي القاعدة الجوية ـ البحرية، يتلقّون آنذاك سلسلة من الرسائل المغمغمة لا يتوصّلون إلى فهمها. وتبدو الحالة غير عادية على نحو كافٍ لإطلاق عملية إنقاذ طارئة.

ويقفز إلى متن طائرة مائية من طراز مارتن مارينر، ضخمة، ثلاثة عشر طيّاراً محنّكين للاشتراك في بعثة بحث وإنقاذ، بإمرة الملازم روبرت كوكس، أقدم معلّمي الطيران في لودرديل. وما إن ارتفع جوّاً فوق المحيط، حتى بثّ كوكس هذه الرسالة اللاسلكية:

ـ ننادي الرحلة [١٩]، ننادي الرحلة [١٩]. إننا نتجه تماماً صوب الجنوب لملاقاتكم، ولإرشادكم إلى القاعدة. على أي ارتفاع تحلّقون؟

غير أن ردّ تايلور، كان مشوّشاً، باستثناء كلمتيه الأخيرتين:

ـ لا تتبعونا!

في برج المراقبة، لا أحد يصدّق أُذنيه، لقد كان لديهم الانطباع أنهم فهموا رسالة لاسلكية يأمر فيها تايلور الملازم إدوارد پاورز ـ أحد ملاّحي الرحلة [١٩] ـ بتسلُّم القيادة. وبعد بضع لحظات يتردد، من جديد صوت ـ هو، ولا ريب، صوت پاورز:

ـ نحن نجهل موقعنا. نحن تائهون كليّاً.

ولم يُسمَع بعد ذلك أيّ شيء عن الرحلة [١٩]، التي كانت طائراتها الخمس مجهّزة باللاسلكي.

في هذه الأثناء، ووراء مقود طائرة الانقاذ، يواصل كوكس الارتفاع في الجو لكي يوسّع باستمرار مجال الرؤية لطاقمه، المزوّد بالمناظير، الذي كان يتقصّى السماء والبحر في كل الاتجاهات. ويبقى على اتصال لاسلكي ببرج المراقبة طوال سبع دقائق، لا يشاهد في خلالها أي حطام في منطقة البحث والتنقيب.

ثم إنه الصمت، ولم يُسمَع بعد ذلك أي حديث عن الطائرة المائية مارتن مارينر.

عقب بعض الوقت، تنطلق في الجو في طائرات إنقاذ أخرى. ولا تجد أيّ صعوبة في البقاء على اتصال لاسلكي دائم مع برج المراقبة وفي ما بينها، ولكنها لا تكتشف شيئاً. إن السماء صافية، والمحيط هادىء.

وتتجه قوارب الصيادين وزوارق خفر السواحل إلى المكان. ويرسل سلاح الجو، انطلاقاً من قواعده في فلوريدا، طائرات أخرى للاشتراك في البحث. وقاذفات القنابل آفنجرز التي كانت تؤلف سرب الرحلة [١٩] هي مصنوعة من مادة تطفو على سطح الماء طوال ساعات حتى بعد الهبوط، في البحر، الاضطراري الأشد قسوة. ومع ذلك، لا يشاهد المنقذون شيئاً.

لا أثر كذلك للطائرة المائية الضخمة مارتن مارينر. ومنذ صبيحة اليوم

التالي، تم القيام بعملية بحث مشتركة جوية ـ بحرية في محيط يشمل، شرقاً، جزيرة برمودا[1] وبورتو ـ ريكو، وشمالاً، كندا، وجنوباً، جزر البهاما، وما وراءها. لا شيء.

ويسود الذهول في أوساط فرق الإنقاذ كما هو الحال في أوساط الضباط في قاعدة لودرديل. أن تكون اختفت ست طائرات ضخمة، في الوقت عينه، وفي وضح الشمس، وفي المحيط نفسه من الخضمّ من دون أن تخلّف أدنى أثر مرئي على سطح المياه، لأمر يتجاوز الخيال.

كانت الطائرات الست مجهّزة بزوارق إنقاذ، والرجال السبعة والعشرون الذين كانوا يؤلفون طواقمها كانوا يرتدون صدرات قابلة للنفخ. وبصفة كونها طائرة إنقاذ، وتنقيب، كانت مارتن مارينر، وحدها، فضلاً عن ذلك، قادرة على الملاحة في كل طقس، وفيها جهاز إرسال إضافي في حالة تعطُّل الجهاز الرئيسي.

ولكن، في النهاية، كان ينبغي الرضوخ لحكم الواقع، وإبلاغ أُسر المفقودين.

ويُعمَّم بلاغ موجز على الصحافة. ويخيِّم الصمت الرسميَ الثقيل. وتعيّن البحرية لجنة تحقيق، غير أن أعمالها، وكذلك استنتاجاتها بقيت سرّية. وفي خلال تسع وعشرين سنة، سيغلّف نقاب كثيف اللغز الأكثر غرابة في حوليات الطيران.

مع ذلك، من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٧٣، لم يفتأ رجل يجمع المعلومات عن هذه القضية. إنه آرت فورد، أحد الصحفيين الاذاعيين، انتقل إلى تحرير مجلة «**پنتهاوس**». وفي نهاية المطاف قمّش كل المعلومات التي استطاع جمعها في كتاب سمّاه «**مثلث برمودا، أو السرّ المحفوظ بأقصى عناية في عصرنا**». فمضيت لأسأله عن بحوثه.

قــال لي:

ـ طوال سنوات، طرح ذوو المفقودين أسئلة بلا انقطاع، لماذا لم يُعثر على أي حطام، على أي جثمان؟ غير أن البحرية كانت ترفض الإجابة، وبقيت استنتاجات لجنة التحقيق في دار المحفوظات في ميامي، يحميها السر العسكري.

ـ وخارج البحرية، ألَم يكن لدى أحد دليل؟ لعلّ هواة اللاسلكي قد التقطوا اتصالات لاسلكية ما بين برج المراقبة والطائرات؟

ـ أجل. لقد فكّرت في هذا، ووقعت، بالفعل، على عدد من هواة اللاسلكي الذين التقطوا بعض الرسائل. في فلوريدا، سمع امرؤ صوت الملازم تايلور، الذي كان قائد الرحلة، وحسب أنه فهم شيئاً من مثل: «لكأنهم أشخاص من خارج الأرض أو جوّها... لا تتبعوني».

وتسري قشعريرة صغيرة على فقار ظهري. وأسأل:

ـ ولكن ألَم يكن لديك أي وسيلة للتحقُّق من أقواله؟

ـ طوال بضع سنين، لا، ولكن في نهاية المطاف، ومع صدور القانون الجديد حول حرية المعلومات، سُمح لي بأن اطّلع على وثائق سرّية من لجنة التحقيق في البحرية الأميركية. وفي الصفحة [٧٢] من التقرير الرسمي، عثرت على البرهان أن برج المراقبة سمع عميد المدرّبين أو المعلّمين الجويين يتصل لاسلكياً بتشارلز تايلور الذي كان قائد السرب. وكان جواب تايلور مشوّشاً، ولكن هنا أيضاً، مثله كمثل هاوي اللاسلكي، يؤكد المراقب الجوي أنه سمع بوضوح نهاية الجملة: «لا تتبعونا».

ـ كيف تفسّر هاتين الكلمتين؟

ويرفع آرت ذراعه في الهواء:

ـ إن كل ما أعرفه هو أن تايلور قد شاهد شيئاً ما جعل سرباً من خمس

طائرات تغادر الأرض. لقد وجد نفسه بوضوح مواجهاً وضعاً لم يحضّروه له مسبقاً. نحن لسنا نتعاطى مع هلوسات أي شخص مريض، ولكن مع ملاحظة جدّيّة، أبداها امرؤ تحت مسؤوليته أربعة عشر رجلاً وخمس طائرات.

ـ إن الرسائل اللاسلكية التي بثها هي رسائل امرىء فريسة الاضطراب والبلبلة، أليس كذلك؟

ـ صحيح. كيف يمكن أن يضلّ تايلور أو يضيع؟ ماذا أراد أن يقول في عبارته: «إن كل شيء يبدو غريباً، بما في ذلك المحيط»؟ لماذا رفض أن تُقبِل إليهم بعثة بحث؟

ـ لعله شاهد شيئاً في الأجواء، فوق المحيط.

ـ ربما كان نوعاً من المركبات، أو أشياء مجهولة، لست أدري. ولعلّ السرب كان محاطاً بشيء ما، أو لعلهم شاهدوا ظهور شيء ما، من القوة الكبيرة، ومن الاختلاف الشديد عن كل ما نعرف، بحيث أنه شاء أن يحذّر طائرات الإنقاذ.

ـ ولكن ماذا حصل بعد ذلك؟ ماذا حلّ بالرحلة [١٩] وبعثة الإنقاذ؟

ـ لقد ذهبوا قسراً إلى مكان ما، أليس كذلك؟ وإذا لم يكونوا قد سقطوا في المحيط، فلأنهم ارتفعوا في السموات! هل أنهم سُحبوا في الفضاء؟ أجهل ذلك. ليس لديّ نظرية جاهزة. ولكن الوقائع كما حدثت تحملني على التساؤل عمّا إذا كنا لم نتلقَّ زيارة أشخاص من خارج الأرض أو جوّها.

قلت:

ـ الأمر الذي يعيدني إلى مظهر اللغز الذي يحيّرني أكثر ما يحيّرني:

المظهر الجغرافي. إذا كنّا، بالفعل، قد تلقّينا زيارة من أشخاص من خارج الأرض أو جوّها، لماذا تراهم اختاروا محيطاً من الخضم بهذا الضيق؟

ـ أرى في ذلك وفرة من الأسباب: أليس هو القطاع الذي اخترناه لإطلاق صواريخنا في الفضاء؟ إذا كان الساحل الشرقي لولاية فلوريدا قد بدا لنا منطقة إطلاق مثالية، فإنها ينبغي أن تكون كذلك لهبوط الطائرات الآتية من الفضاء.

ـ لماذا هو المكان المثالي؟ ماذا فيه، إذاً، من الخصوصية؟

ـ إنه وسط المحيط الطلق، الأمر الذي يجعل من غير المحتمل حدوث اصطدام فوق مدينة كبيرة. إنه في معزل عن ممرات التيارات الجوية، وعلى ذلك، فإن مخاطر الاصطدام الجوي هي أدنى. والأكثر أهمية بعد، هو أن الممر المحيطي الواسع الممتد جنوبي شرقي قاعدتيّ كيپ ـ كينيدي ولودرديل، تحده جزر يمكن أن تكون بمثابة صوىً (مَعْلَمات)، أو أن تسمح بالهبوط الاضطراري. وبكيفية أدقّ، لسنا مطلقاً على مساحة تزيد على ٨٠٠ كيلومتر من ميدان هبوط، ومسافة أقل من ٣٠٠ كيلومتر. علاوة على ذلك، إن من السهل التعرُّف إليه من مرتفعات كبيرة أو شاهقة.

وأنشر خريطة. ويصف آرت بإصبعه الممر المعنيّ. ويقول:

ـ لنتبعه أبعد كثيراً. إنه يلمس في مروره الطرف الشمالي الشرقي لأميركا الجنوبية، ويجتاز آلاف الكيلومترات عبر المحيط، حتى إفريقية. فالمركبة الفضائية، سواء أكانت ذاهبة أو آيبة، تتمتع هناك بطريق جميل مكشوف، تتوزع عليه أعمدة الاتجاه، ويُفتح الباب في الاتجاهين الاثنين.

ـ وأقــول:

ـ أفكّر ثانية في تصريح أحد الملاّحين المفقودين: «حتى إن المحيط يبدو مختلفاً». لعلّ الطائرات الست قد دخلت منطقة اضطراب أو اهتياج

عطّلت أجهزتها الملاحية، وأخرست أجهزتها اللاسلكية. هل أنك استعلمت عن هذا الموضوع؟ هل كُشفت اضطرابات جوية بعد ظهيرة ذلك اليوم من سنة ١٩٤٥؟

ويوافق.

ـ لقد قمت ببحوث، في الواقع، ووجدت معلومتين اثنتين هامّتين، مع أنهما لا تتعلّقان، تحديداً، بذلك اليوم، ولكن بفترة تمتدّ على بضعة أسابيع أو عدة أشهر في نهاية سنة ١٩٤٥.

وأنتظر، مفعماً بالأمل.

وعقب مراجعة بعض الملاحظات، مضى يقول:

ـ شاهد مرصدان يقعان على مسافة محترمة أحدهما من الآخر، ظواهر غريبة في السماء. ففي مرصد ماونت ـ ولسون، لاحظ دجويل ستيبنز، في السماء الليلية، اشعاعات ما دون الحمراء شديدة. وكانت تلك أول مرة تُلاحَظ فيها ظاهرة من هذا النوع، على ما أَدري، ولم يحدث هذا مطلقاً في ما بعد.

ويمضي قائلاً:

ـ وفي مرصد لايدن، في هولندا، تمّ التقاط إذاعات لاسلكية قوية مصدرها الفضاء. وأقتبس أقوال الشهود الشخصية: «إن هذه الاحتمالات لشيءٌ جديد جوهري، وقد فتحت ما هو أشبه بنافذة على الفضاء».

ولم أتمالك من التساؤل عمّا إذا لم تكن هذه النافذة قد سمحت بمرور أشخاص من خارج الأرض أو جوّها، عادوا من حيث أتوا حاملين معهم طائراتنا.

وأُغادر آرت فورد، وأعود إلى الغوص في السجلات والوثائق (= الأرشيف) من أجل أن أعرف أكثر عن المحيط المحيطي الذي يدعونه **مثلث برمودا**.

لقد اكتشفت عند ذاك أن مغامرة طائرات لودرديل الست المأساوية تسجَّل في إطار أكثر اتساعاً بعد. فمنذ أكثر من قرنين اثنين من الزمن، لا تفتأ تحدث اختفاءات غامضة في المنطقة بأسرها.

أنشرْ أمامك خريطة، وضعْ طرف قلمك الرصاص على أرخبيل برمودا. ارسم خطاً باتجاه الغرب حتى كيپ ـ كاناڤيرال (أصبح اسمه حالياً كيپ ـ كينيدي) في فلوريدا. من هناك، اهبط في خط مستقيم نحو الجنوب الشرقي عبر البهاما، ثم اصعد شمالاً بشرق حتى برمودا، إن لديك تحت ناظريك **مثلّث برمودا**، أيّ نحو ثمانية آلاف كيلومتر مربع من المحيط، وبما أن السياحة والتجارة ليستا متطورتين فيها، على الخصوص، فإنها ليست منطقة مأهولة كثيراً.

غير أن من يغامر عبر **مثلث برمودا** يُستحسن أن يحاذر. ففي هذه المنطقة وحدها، الضيّقة نسبياً، يعدّون أكثر من مئة باخرة وطائرة معتَبَرَة مفقودة في خلال المئتي سنة الأخيرة (إحصاء سنة ١٩٧٨). وعلى ما أعلم، لم ترسل أيٌّ من هذه العمارات علامات استغاثة قبل اختفائها، ولم يُعثر قط على أدنى أثر لغرق، أو على أبسط زورق إنقاذ.

هذا، باستثناء تقريباً حالة واحدة، مع ذلك، إذا أمكننا القول. ففي ٦ تشرين الثاني ١٨٤٠، استطعنا أن نقرأ في صحيفة «التايمز» اللندنية، أنه تمّ اكتشاف سفينة فرنسية ذات حمولة عالية تدعى «روزالي» كانت تقوم بالإبحار ما بين هامبورغ في ألمانيا، وهاڤانا، في كوبا، وهي تندفع على غير هدىً غير بعيد من البهاما، وكل أشرعتها خارجة، ولكن ليس عليها أي شخص. وكانت الحمولة سليمة، ولم تكن السفينة قد امتلأت بالمياه. كل شيء بدا طبيعياً، حتى إن كناريّاً كان يزقزق في قفص. إلاّ أنه لم يُسمع قط أي شيء عن الضباط وطواقمهم.

لقد جمعت أمثلة أخرى عن حوادث غامضة. وفي ما يلي اللائحة:

- في ٤ آذار ١٩١٨. السفينة الأميركية «سَيكلوپس»، ناقلة نفط تابعة

للبحرية، تغادر باربادوس متجهة إلى هاملتون رودز، في ولاية فرجينيا. إنها عمارة ذات حمولة عالية، تنقل ١٠ آلاف طن من المنغنيز من جهة، و٣٠٩ ركّاب بمن فيهم أفراد طاقمها. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار، الاتصالات اللاسلكية الجارية وصدّقناها، لم يحدث شيء غير عادي في خلال النصف الأول من الرحلة. ثمّ إن الرسائل اللاسلكية انقطعت. وعبثاً حاولت المدمرات الأميركية تمشيط غربي المحيط الأطلسي جميعاً تمشيطاً دقيقاً. فلم تجد شيئاً، وليس حتى على أبسط أثر للغرق، وأبسط نقطة زيت ما تزال تطفو على سطح الماء عندما تغرق سفينة ما بفعل قصف غواصة لها. لقد حدث ذلك إبّان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ـ ١٩١٨)، وكانت فرضية الغواصة الفرضية الوحيدة المقبولة، حتى لو أن الغواصات الألمانية لم تعتد مطلقاً أن تختار هذا الجزء من المحيط الأطلسي للقيام بعملياتها. وهكذا توقّفنا عند هذا الحدّ. ولكن، بعد الحرب، كشفت وثائق الأميرالية الألمانية أن لا غواصة ألمانية قد هاجمت السفينة **سَيكلوپس**، لسبب واحد وجيه، وهو أن الألمان لم يقتربوا قط من **مثلث برمودا**.

■ في كانون الثاني ١٩٦٢. طائرة الشحن KB-50 التابعة لسلاح الجو الأميركي، ناقلة طاقماً من ثمانية أفراد، تغامر بالتحليق فوق **مثلث برمودا**، وتختفي.

■ في آذار ١٩٦٣. الباخرة «**سِلْفر كوين**»، تتلاشى في البحر مع طاقم مؤلف من ٣٩ شخصاً. وفي شهر تموز من السنة نفسها يختفي زورق صيد هو «**شو بوي**»، وعلى متنه ٤٠ شخصاً. وفي ٢٨ آب، تدخل معاً طائرتا شحن عملاقتان من سلاح الجو الأميركي، مزوَّدة كل واحدة منهما بأربعة محركات نفّاثة في أجواء **مثلث برمودا**، فتختفيان في حدود الدائرة.

■ في سنة ١٩٧٠، يختفي زورق مراقبة بحرية ذو محرك، وطائرة صغيرة في القطاع عينه، في شهر واحد.

يعود تاريخ الاضطراب في **مثلث برمودا**، إذا كانت تلك هي الحال،

ربما إلى وقت أطول كثيراً جداً ممّا نعتقد. ففي مسرحية «**العاصفة**» لشكسپير، ألا يُلمع المؤلف إلى «الاضطراب أو الاهتياج الدائم في برموذز»؟! وبرموذز كانت تشير آنذاك، كما اليوم، إلى برمودا، الأرخبيل الصغير في المحيط الأطلسي، الذي يظهر على مسافة ألف كيلومتر تقريباً من جنوبي شرقي رأس آتيراس.

لعلّ شكسپير ألمع إلى تكرار حوادث الغرق التي تتسبّب بها الشُعُب المرجانية. ففي الواقع، عثر الغوّاصون على حطام ١٢٠ سفينة في ضواحي الأرخبيل المُشمس. مع ذلك، لا ينطبق «الاضطراب»، الذي يتحدث عنه شكسپير جيداً على الشُعُب.

نحن نعرف، على الأقلّ، ماذا حدث للسفن التي اختفت في ضواحي برمودا على زمن شكسپير. ولكن ماذا حلَّ بجميع الذين اختفوا جسداً وممتلكات دون أن يخلّفوا أي أثر؟ هل خُطفوا ـ «اجتُذبوا إلى الفضاء»، استعادة منا لأقوال آرت فورد ـ بوساطة طريقة مجهولة من ساكني الأرض؟

هل أن شيئاً ما قد صعّدهم فجأة وسط الصمت المطبق الأكبر؟

هل أغرقهم شيء ما، واجتذبهم إلى الأعماق بسرعة فائقة بحيث أن فرق البحث والتنقيب لم تعثر قط على أي أثر مرئي؟

أنا أجهل ذلك، بالتأكيد، ولكن لديّ فكرة أخرى، ربما هي أكثر تعقيداً، ولكنها أكثر احتمالاً، في رأيي.

لنسلّم بأنه قبل ارتفاع مستوى المحيطات، احتلت جالية فضائية هضبة البهاما. ولنفرض أيضاً أن الجالية المعنية كانت تتصرّف بتقنيات هي مجهولة منّا. لا شيء يحول دون التصوُّر لحظة واحدة أنه لدى ارتفاع مستوى المياه، أغرق رجال الفضاء مصدر طاقتهم، أو أنهم تركوه يسقط دون أن يقوموا بذلك عمداً، في قاع المحيط، في مكان ما في **مثلّث برمودا**.

وإنه ليُسمح بالاعتقاد أن مصدر الطاقة المجهول هذا، لدى مرور سفن

أو طائرات عبر شعاعات غير مرئية محتملة، أو لأي سبب آخر طبيعي عَرضي، يروح يطلق اشعاعات من نوع أو من آخر. وأتصوَّر بطيبة خاطر اشعاعات قابلة لتعطيل المعدات الإلكترونية، وإفساد الجهاز العصبي البشري، وحتى تدمير كل ما تلمسه كلياً بحيث لا تخلّف منه سوى ذرّات.

ومن يدري، هل أن هذه الإشعاعات مصدرها مُنشأة مخصَّصة في الأصل لإرسال إشارات، وبصورة عامة، لإرشاد المسافرين في الفضاء؟

إذا كانت تلك هي الحال، فباستطاعتي مرة أخرى تصوُّر كل الظواهر الغريبة التي ينبغي أن نستطيع إطلاقها بالمصادفة، أو طوعاً وبقصد.

إذاً ها أنذا أواجه من جديد، ومن بعيد جداً، تدخُّلاً كهرمغنطيسياً محتملاً. إن مظهر المحيط نفسه لهو معدَّل. فالبحَّارة، والطيارون، والملاّحون المجرَّبون يعتمدون على حين غرّة تصرفات غير معقولة. ينبغي أن يكون هناك، بكيفية أو بأخرى، قوة أو ذكاء يتجاوز إدراكنا الراهن، قد برز في بعض المناسبات في **مثلث برمودا**.

لقد لاحظنا في مكان آخر، في مصر خصوصاً، ظواهر من النوع ذاته، تبدو إحداها شبيهة بالظاهرة الملاحظة في المثلّث المذكور.

إذاً، أنا أتوّجه حالياً إلى هناك.

هوامش المترجم

---

(١) **برمودا**: أرخبيل بريطاني في المحيط الأطلسي، شمالي شرقي الأنتيل [وهو أرخبيل أيضاً يفصل المحيط الأطلسي عن بحر الأنتيل، ومؤلف في الشمال من الأنتيل الكبرى: كوبا، وهايتي، وجامايكا، وبورتو ـ ريكو، وفي الشرق والجنوب من الأنتيل الصغرى التي تُقسم أحياناً إلى «جزر الريح» [الغوادلوپ والجزر التي تتبعها وهي المارتينك، التي تخصّ فرنسا؛ وباربادوس، والدومينيك، وترينيتي وهي بلدان من الكومونويلث البريطاني)، وإلى «الجزر تحت الريح». وهي جزئياً هولندية: كوراساو، في عرض ڤنزويلا]، إن مساحة أرخبيل برمودا هي ٥٣,٥ كيلومتراً مربعاً. اكتشفها الإسپان سنة ١٥١٩، وقد غدت بريطانية سنة ١٦١٢، وهو يتمتع منذ سنة ١٩٦٧، بنظام حكم داخلي مستقل.

٩

من هم معلّمو المصريين؟

أُحلّق باتجاه الشرق بحثاً عن مواقع كانت قد اختارتها جاليتي المفترضة لإنشاء قواعد جوية أخرى. إذ ذاك تبيّن لي، أنني في غمرة البحث والتنقيب، أهملت تفصيلاً كان ينبغي أن يكون أوضح من النهار. ففي حين أن معظم الاختصاصيين يُجمعون على الاعتقاد بأن الحضارة الحديثة قد امتدت من الشرق إلى الغرب، فإن بحوثي هي في سبيل جرّي، ضد كل منطق تاريخي، في الاتجاه المعاكس. إني أُحسّ أنني جد وحيد فجأة. ولكنني أُعزّي نفسي بالقول إنني، على الاقلّ، سأكون قد أخطأت بشدة.

في خلال الرحلة، يتوفر لي الوقت الكافي لأستعرض جميع المعلومات التي لديّ حول المجتمعات المتقدمة التي ازدهرت منذ قرابة ستة آلاف سنة في الشرق الأوسط. وتجتذبني سومر بشكل خاص.

من أين جاء إذاً سومريّو بلاد ما بين النهرين؟ لقد رأيناهم يبرزون، حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد، كما يخرج الشيطان من علبة، وسط ازدهار

عميم وتامّ؛ وهم يعرفون أول لغة مكتوبة، ويتقنون الرياضيات، ولديهم مفاهيم متقدمة كفاية في الفيزياء، والكيمياء، والطب. وإذا كان أصلهم يبعث على الحيرة، فإن اختفاءهم، بعد نحو ألفيّ سنة، لهو كذلك أمر من الأمور المقلقة كثيراً. وأعمد إلى إعادة تشكيل تاريخهم، ذهنياً، وأُفَاجَأ بأنني أَرسم بداية فرضية.

إني أُواجه حقبة من ٥٠ ألف سنة. ففي وقت معيّن في خلال هذه الحقبة، أفترضُ دخول مستعمرين من خارج الأرض أو جوها يتمتعون بتقنية متقدمة كثيراً على تقنيتنا اليوم. يقيمون عدة رؤوس جسور على الأرض مستخدمين، وحسب، قدراتهم الخاصة لإحداث كل ما هو أساسي لحياتهم وبقائهم. وتُنبت البذور وتضرب جذورها في التربة. وتنقضي بضعة عقود من السنين. وها إن إحدى الكوارث المألوفة على الأرض تتدخّل. وتصاب الجاليات الناشئة بأضرار مرعبة. ويغادر الأفضل والأذكى من بين المستعمرين هؤلاء المكان لمتابعة تنقيبهم عن موطن جديد في أنحاء أخرى من الكون. وهكذا لا يبقى غير بعض أقسام من ثقافة جد متقدمة، مضطرة إلى الكفاح من أجل البقاء. وهنا وهناك، نجد إذاً، جيوباً صغيرة، وروعات بشرية موهوبة بمعرفة واسعة ولكن يعوزها العتاد الأكثر بدائية من أجل إعادة إحياء تقنية متقدمة.

أليس في الوسع تصوُّر أن هؤلاء البشر قد ووجهوا بوضع مماثل لوضع ركاب تلك الطائرة التي تحطمت سنة ١٩٧٢ على قمة جبل في تشيلي. لقد ظلوا أحياء، ولكن في سبيل البقاء، لم يستخدموا قط حطام الطائرة لكي يأخذوا منه المواد التي كانت تسمح لهم بصنع أدوات، أو أسلحة، أو اي أداة أخرى مفيدة. وفي فترة وجيزة، بلغوا حالة التوحُّش. ذلك كان يمكن أن يكون مصير الجاليات الآتية من خارج الأرض أو جوها عقب الكارثة الأرضية.

ها أنذا أمتلك من الآن وصاعداً لوحة لا ينقصها تقريباً شيء، على الأقلّ في خطوطها الكبرى. وقد استبدلت الفكرة المتلقّاة عن التقدم

المتواصل والخطيّ للبشرية بفكرة بدايات مستوى جدّ متقدم يتبعها تراجع ثم تقدُّمات جديدة. وفي هذا الإطار، فإن أغلبية الغرائب التي جمعتها في أثناء بحوثي تعرف كيف تندمج. فالانجازات المذهلة التي تسنّى لي مشاهدتها قد تكون بقايا عصر كامل. وستكون عندئذ نتاج معارف متبقية، وآثاراً تقنية حفظها خلفاء هؤلاء المستعمرين الأوائل.

إن سومر وبدايتها الغامضة، ومصر القديمة وإنجازاتها العجيبة، هوذا أين أرجو العثور على دعامات جديدة لنظريتي. وعلى هذا الرجاء، وبحثاً عن دليل يكون قد انتظرني في خلال آلاف السنين، أُقرر التوجه أولاً إلى سقّارة، في مصر.

على مسافة ثلاثين كيلومتراً أعلى من القاهرة، على النيل، تنتصب بقايا ممفيس، أقدم عواصم مصر. وقد حكمت سلالتان من الفراعنة انطلاقاً من هذا المكان الذي لا ينتظرني فيه سوى صفّ من الأهرام الصغيرة، وبعض أشجار النخيل. فلقد استعادت الصحراء امتلاك ما تبقى.

رمال، رمال في كل مكان، كلّية الوجود، مثيرة، لا نهاية لها، في الأحذية، وفي العيون، مالئةً حتى مسامّ الجلد، مغطية كل شيء، من المغرب حتى سيناء، وحتى شبه الجزيرة العربية، وحتى تركستان، وحتى التيبت، ومنغوليا ـ إن هذا الحزام الرملي الذي يضرب جوف قارّتين اثنتين شهد مولد المدن الرائعة في حضارات عدة. وقد اختفت جميعاً من بعد. مطرودةً، أولاً بأول، مع تراجع الثلوج بفعل ارتفاع الحرارات وندرة هطول الأمطار.

وعلى جانبيّ النيل، وعلى مساحةِ عشرين كيلومتراً، يمتدّ شريط من الاخضرار. من البحر الابيض المتوسط حتى صحراء بلاد النوبة، كان هذا الشريط وحده ما استُعيد من الصحراء. ولقد كانت حياة مصر القديمة معلّقة بهذا الخيط.

في وحشة الصحراء المترامية الأطراف، وتحت النخيل الهامس، أجوب الأمكنة التي امتدت فيها ممفيس، مشاهداً في البعيد جدران سقّارة المبيضّة اللامعة. وتجذبني بساطتها الأنيقة. إن سقّارة لهي على مقياس الإنسان وليس على مقياس العمالقة.

في خلال إحدى رحلاتي السابقة إلى مصر، لم يسعني أن أَحول دون أَن أُدفع بغموض تعملُق (= عملقة) الجيزة والكرنك. وبطوافي بالعمالقة ذات العيون الميتة التي تزيّن ممرات المعابد المهجورة، لم أرَ على الجدران إلاّ بقايا فن مسطح وساكن.

لم يسبق لي قط أن شعرت بأدنى نسب مع بناة هذه الأَنصاب، وأصحاب هذه الرسوم واللوحات، ولا حتى مع الفراعنة الصارمين في متحف القاهرة، أو مع الملكة حتشبسوت المتنكرة بشكل الإله أوزيريس ـ زوج الإلهة إيزيس، (وهما إلاهان مصريان قديمان)[1]، التي تُرى في متحف متروپوليتان الاميركي. وفي سقّارة، يعتريني فجأة حدس الأُناس المستحبين أكثر.

لمبانيها الحجرية خطوط واضحة يتفنّن اليوم المهندسون المعماريون في إضفائها على ناطحات السحب. وصفوف أعمدتها المستطيلة الناتئة بعض الشيء من الجدران المخدَّدة، تحملني على التفكير في أعمدة اليونان الكلاسيكية، مع أن المعابد والهياكل اليونانية لم تشيَّد إلاّ بعد ألفيّ سنة، على الأقلّ.

وألجأ تقريباً إلى تصوُّر أَن الهندسة المعمارية في سقّارة كانت نتاج أجيال من الإفراط في الدقة، وصنيع مهندسين معماريين، ونحّاتين، ورسامين يمكن أن يكون تسنّى لهم الوقت لتجاوز الذوق أو الميل من أجل هندسة معمارية جدّ تزيينية أو زخرفية. غير أنني لا أجهل أن العكس هو الصحيح.

ليست سقّارة ثمن نضوج مصر ولا انحطاطها. لقد بُنيت من قبل شعب

شابّ، أقلع على حين غرّة عن المنازعات القبلية، وأبدع أول هندسة معمارية عملاقة من حجر عرفها العالم.

أبصرت سقّارة النور منذ حوالى ٢٧٠٠ سنة قبل الميلاد، في بداية العصر الأول ـ عصر الذهب، والسلام، والازدهار الذي عرفته مصر باسم **الأمبراطورية القديمة**. كان عصراً ذا إبداعية تكاد لا تُصدَّق. أنتج الأهرام الأولى والأكثر جمالاً، وكذلك بعض أكثر الأعمال الفنية المصرية فتنة وسحراً، وأبدع شكل الكثير من الأشياء التي ستظهر في خلال السنوات الثلاثة آلاف التالية. وعبر كل التاريخ المتأخر من تاريخ مصر، ستظلّ سقّارة مكاناً مقدّساً. فقبل الأمبراطورية القديمة، كانت القبائل المنتشرة على طول نهر النيل، تحصّل معاشها بالصيد النهري، والزراعة البدائية، و «بالكاد» كانت قد شرعت في استبدال الأدوات الحجرية بأدوات ممدينة. ولكن حدث أمر ما. فبطريقة مادة غير متوقّعة، وتكاد تكون غامضة، قررت التعاون في ما بينها لضبط الفيضان السنوي للنهر (= النيل)، بطريقة تضمن للجميع محاصيل وافرة.

إن التعاون هو الانتظام. وندين لمنظّم شبه أسطوري يدعى نَرْمَر، بتوحيد مصر، وتأسيس أول سلالة ملكية. وانتقلت الأمة التي توحّدت هكذا، فجأة من العصر الحجري إلى حضارة أصيلة ولامعة.

كان لديّ الانطباع وأنا أطالع تاريخ هذه الحضارة، أنها لم تكن نتيجة تطور، ولكنها قد ظهرت دفعة واحدة. وتجسّدت الأدوات، والتقنيات، والهندسة المعمارية، والتقنية، والطب، والعلم، وكذلك الكثير من التجمعات المدينية المتقنة التنظيم، في مدى قرن من الزمن أو قرنين اثنين كما لو كانت قد حُملت من مكان آخر.

وخطرت لي فكرة الذهاب إلى سقّارة لأنني كنت أتساءل عمّا إذا لم يكن المصريون قد تلقّوا «حقنة من الحضارة» من جانب رائد فضائي أو عدة روّاد فضائيين قدامى. وهكذا أكتشف أن أول شخصية تاريخية وغير أسطورية هي من علّمت بناة سقّارة كل ما كانوا يعرفونه.

إنه نابغة رائع، وفنّان، وعالِم وليس فاتحاً أو ملكاً، اسمه **إمحوتب**. إنه المهندس المعماري الأول، والمهندس الأول في تاريخ العالم. وكان أيضاً إدارياً، وطبيباً. والخلف يجعله إلهاً. هل من الممكن أن يكون قد جاء من الفضاء؟

في سقّارة، هناك تحت ناظريّ أدلة منظورةٌ على ما قام به. إن صُنّاع سقّارة كانوا، على ما يظهر، من بين الأوائل في العالم الذين أتقنوا تقنيات البناء المعقّدة بالحجارة. إن هذه المباني الجميلة والفسيحة قد كانت من صنع شعب لم يكن قبل قرن من الزمن، يعرف أي مادة غير الآجرّ المجفّف في الشمس. إن هذه التقنية الجديدة، علّمهم إياها إمحوتب.

كان الوزير الكبير (= الوزير الأول) لدى جوسر ثاني فرعون من السلالة الثالثة في **الأمبراطورية القديمة** وأشهرهم. وكان إمحوتب واحداً من الأعضاء القليلين جداً في البانتيون (مجمع الأرباب عند القدماء) المصري الكبير ممّن رُفعوا من مرتبة فانٍ إلى مرتبة إله. ولم يكن العالمون بالمصريات (علم الأثريات المصرية) في القرن الماضي يعتقدون مطلقاً، من جهة أخرى، بأصله البشري. ذلك بأنهم لم يكونوا حاصلين في ذلك العصر إلاّ على وثائق محرَّرة عقب وفاته المفترضة بألفين وخمسمئة سنة.

من ذلك هذا المقطع الوجيز عن تاريخ للفراعنة مكتوب باليونانية، وكاتبه يدعى مانيثو، وهو كاهن مصري من القرن الثالث قبل الميلاد: «في أثناء عصر جوسر الأوّل، عاش إمحوتب، الذي كان مخترع فن البناء بالحجر المنحوت. وقد حسّن كذلك الكتابة.».

كان اليونانيون يعرفون إمحوتب، على الأقل، بفضل شهرته، باسم إيموتيس. وقد ماثلوه بإله الطب عندهم اسكليبيوس. وكان أيضاً سيّد الكتبة والموظفين. وبعد أن مزج الماء والسخام (= الدُخنة) الذي كانوا يستخدمونه كحبر، نشر منه الكتبة اليونانيون والمصريون دوماً آخر نقطة لإراقة الخمر [إكراماً للآلهة الوثنية] تكريماً لإمحوتب.

في سنة ١٩٢٦، أكد الأركيولوجيون نهائياً وجود إمحوتب تاريخياً. وقد نُبش من القبر تمثال للفرعون جوسر في ضواحي سقّارة. وكان يحمل في قاعدته اسم إمحوتب وألقابه. وإن شرف رؤية اسمه ظاهراً، على هذه الصورة، على تمثال كان أكثر من أمر نادر في بلاد تشاء فيها العادة أو التقليد، أن تُعزى تقريباً مجمل الصنائع والأعمال ذات الشأن إلى الفرعون نفسه. واعتبر العالمون بالمصريات أنهم، من ذلك الوقت وصاعداً، مخوّلين أن يعلنوا أن إمحوتب ـ وليس جوسر ـ كان مسؤولاً عن تشييد أول مبنى كبير من حجر على الأرض: الهرم المدرّج في سقّارة، الذي استطاع الأركيولوجي الفرنسي ليونار كوتريل تسميته «أقدم الأنصاب الحجرية والأكثر إدهاشاً في عالمنا.».

وقال أركيولوجي آخر شهير هو جان ـ فيليب لوير ذات يوم عن هذا الهرم: «لما أدركت أهميته ـ أول مبنى في العالم متدرّج شُيِّد بالحجر المنحوت الذي ابتكره إمحوتب، ميكيل ـ أنجيلو العصر ـ قرّرت أن أنذر نفسي لهذا العمل.» وقد كرَّس، فعلاً، السنوات الأربعين التالية من حياته لإعادة بناء المعابد والمنشآت التي تغطي مساحة الخمسة عشر هكتاراً، المحيطة بالهرم المدرّج حجراً حجراً. وكانت النتيجة إحدى أروع الطُرق المستحقة المشاهدة في مصر.

وأُحاذي السور الرائع والعظيم الذي يحيط بكل شيء، وعلوّه عشرة أمتار، وطوله أكثر من ١٥٠٠ متر. وداخل هذا السور؛ أُشاهد قاعة الشرف في الهواء الطلق الخاصة بالفرعون، والأعمدة الكلسية المنقوشة بموضوعات نباتية لطيفة، والسقف المنحوت لكي يحاكي العوارض الخشبية، والجدران المنحوتة برسوم خدّاعة تعطي على البعد وهم الحقيقة وتحاكي الحصر المنسوجة من قصب التي تكسو جدران المنازل المصرية. إن كل ذلك هو النسخة المطابقة الظريفة للقصر والمعابد المبنية بالآجر الصلصالي التي عاش فيها الفرعون في عاصمته ممفيس.

والهرم هو المسيطر، وساحق الكل. ويفيدني دليل أن قاعدته قياسها

١٣٦ متراً على ١١٤ متراً، وأن ست شرفات عملاقة ترتفع تقريباً ٦٦ متراً صوب السماء. ويقودني ممرّ على جانبيه أعمدة مغزلية الشكل إلى الأبواب الحجرية الثقيلة. وهي مفتوحة أبداً، وتنسخ، حتى أدنى تفصيل، الأبواب الخشبية في القصور القديمة.

في الداخل، أُحاذي ممرّاً يهبط منحدراً بلطف حتى حفرة عمقها ٣٠ متراً. في قاعها، يتيح الثقب الذي أُدخل منه جثمان جوسر، وقد خُتم منذ ذلك الحين بسدادة من الصوّان تزن عدة أطنان، ولوج الغرفة الجنائزية ذات الجدران الصوّانية.

من هناك، تشعّ عدة ممرّات تغوض إلى أكثر من ٣٠ متراً في العمق تحت رمل الصحراء لتؤدي إلى قاعات منحوتة على مستوى الصخر.

وأستفسر:

ـ ما كانت وجهة استعمالها؟

ولكن لم يجد أحد جواباً.

ما تزال إحدى الحجرات مكسوة بعد ببلاطات من الخزف الأزرق المخضرّ تحاكي الحصر المنسوجة من قصب التي كانت تزيّن، ولا ريب، قاعات قصر جوسر. وإذا كانت لهذه القاعات قوى خاصة، فأنا لا أُدركها. مع ذلك، لا يسعني أن أتمالك نفسي من التفكير في أن الأهرام الكبرى المبنية وفقاً لهذا الطراز، ليس فيها سوى قاعة واحدة أو قاعتين اثنتين. لماذا يضم الهرم الذي كان نموذجاً لها قاعات أكثر! أليس في الوسع أن نتصوَّر أن الأهرام تضمّ قاعات سرّية لم يُكشف عنها بعد؟

يجمعون في الأوساط الأركيولوجية على الاعتقاد بأن الهرم المدرّج في سقّارة كان الطراز البدئي أو النموذج الأصلي المُحتذى للأهرام الأكبر، التي شُيّدت بكتل حجرية تزن الواحدة منها عشرة أطنان، والتي أُنشئت في الجيزة في خلال القرنين الاثنين التاليين. حتى لو أن الهرم والأنصاب المحيطة به

كانت أعمال إمحوتب الوحيدة، فإنه لا يفتأ يستحق أن يخلد كذلك. في الواقع، لقد حدّدت هذه المباني بداية ألف سنة من الهندسة المعمارية الرائعة.

دون الأخذ في الاعتبار أن إمحوتب كان، علاوة على ذلك، رجل دولة، وعالماً فلكياً، وكاهناً أكبر، وطبيباً على الأخص. في الميدان العلمي، فإن مصر الفتية تدين للطب بمجدها. وبحسب كل مظهر، كان إمحوتب أول الأطباء في الأمة وأمهرهم. إليه يعزون، في ما بعد، قوى الشفاء ذات الطبيعة الإلهية.

وتُعلمنا الكتابات القديمة أن إمحوتب كان يملك، في ضواحي ممفيس مزاراً، كان في وقت معاً معبداً ومصحّةً، وكانت تدعى إسكليبيون، على اسم إسكليبيوس، إله الطب (أو الشفاء) لدى الإغريق، الذين ماثلوا به إمحوتب.

إلى هذا المكان، كان يُقبل المرضى ساعين وراء الشفاء، والمقعدون لاستخدام أعضائهم، والمصابون بالعقم للحصول على الخصوبة والانجاب. والمصريون، واليونانيون، والرومان، أخيراً، الذين خلفوا اليونانيين على رأس مصر، جاءوا يتوسلون عون إمحوتب طوال قرون عدة.

وكان المزار يضم أيضاً كلية للطب، يديرها تلامذة إمحوتب. وهناك تعلّم الأطباء ما هو أساسي في مهنتهم. وهناك، بحسب معرفتي، كان أول مثال للتعليم المهني في العالم.

إذا نحن صدّقنا المؤلفين القدامى، كان هناك جزء من السحر في التعليم الذي كان يُغدق على طلاّب إسكليبيون. ويفيض الأدب المصري بالسحرة ـ راقين أو مشعوذين ـ قادرين على إعادة نمو أعضاء مبتورة، أو بعث الموتى. وسأذكر على سبيل المثال قصة حدثٍ جرى في المستشفى، على حدّ ما يرويه يوناني مجهول كان يعالَج هناك:

«كانت الحمّى الشديدة تحرقني، والألم الذي يعصر جبيني كان

يخنقني، ويرهق عليّ بنوبات السعال. وكان رأسي ثقيلاً من فرط الألم، وكنت أستغرق في شبه غيبوبة.

«كانت أُمي جالسة قرب سريري، حزينة لعذابي. وعندئذ شاهدتْ ـ وهي لم تكن تحلم لأن عينيها كانتا مفتوحتين واسعتين ـ رؤيا إلهية.

«لم ترَ غير شخص ذي قامة فائقة قامة الانسان، مرتدياً ملابس متلألئة، وبيده اليسرى كتاب. نظر إليّ، وحسب، مرتين اثنتين أو ثلاث مرات من رأسي حتى قدميّ، واختفى.

«وما إن رأتني أُمّي سابحاً بالعرق، ولكن متحرّراً من الحمّى، حتى خرّت على ركبتيها لتبجّل الرؤيا الإلهية. ولمّا سكنت آلام جنبي، وأسبغ عليّ الإله علاجاً جديداً شافياً وملائماً، أعلنتُ بصوت مرتفع أفضاله.».

إني لأتساءل ماذا كان يستطيع كاهن مصري أن يفعل لكي يتّخذ قامة فوق بشرية، ويرتدي ملابس متلألئة. وأتساءل كيف كان يسعه أن يجعل الحرارة تهبط، ويضع حدّاً للآلام. إن اسكليبيون لم تخلّف أي محفوظات؛ حتى إننا نجهل أين كان موقعها بالضبط.

ولكن يبدو جلياً أن الطب المصري هو في أصل الطب الغربي الحديث. فأبقراط، الذي كان أبا الطب في القرن الخامس قبل عهدنا الميلادي هذا، كان يقرّ بأنه مدين لمصر. ويشاطر عدد كبير من المؤلفات، علاوة على ذلك، وجهة النظر هذه.

قرأت، مثلاً، أن مصر كان فيها أطباء كبار، وجرّاحون، واختصاصيون يُذكر بينهم أطباء أطفال، وأطباء نسائيون. ولم يكن البعض يعالج إلاّ الأمراض المتعلقة بالمعدة؛ وبلغ أطباء العيون مبلغاً من الشهرة كبيراً بحيث أن ملك فارس ،قورش الكبير، استقدم واحداً منهم إلى بلاده. وفي تلّ العمارنة، عُثر على ألواح من الصلصال تكشف أن البلاطات الأجنبية كانت غالباً تستدعي أطباء مصريين؛ وسورية وأشور هما مثالان على ذلك. ولقد

كانوا معادلين في العصور القديمة لأوائل الأطباء النفسانيين النمساويين.

لقد وصلنا الكثير من أوراق البَرْديّ المخصَّصة للطب. وأثمنها، ويشار اليها باسم إدوين سميث الذي اكتشفها، هي مخطوطة مجهولة الكاتب، ولا تحمل أي تاريخ، طولها خمسة أمتار. إنها أقدم كتيّب في الطب معروف في تاريخ العالم. وهي تتناول موضوعها على نحو عقلاني، دون اللجوء البتة إلى رقى السحر المؤذية، أو التعزيمات السحرية من نوع أو من آخر.

فيها نجد وصف ٤٨ حالة من الجراحة السريرية، والكسور في الجمجمة، والأذى في العمود الفقري. وتعالج كل حالة منها بترتيب منطقي، في فصول، مكرّسة بالتتالي للتسمُّع (كشف الصدر بالمسماع)، والتشخيص، والتكهُّن، والمعالجة، مرفقة جميعاً بملاحظات لشرح العبارات المستعملة.

يلاحظ العالم التشريحي وورين دوسون أن وجود البَرديّ يبرهن على أن المصريين قد درسوا الدماغ وكانوا يعرفون، بكيفية ما، أن الأذى الدماغي يمكن أن يؤثّر في أجزاء الجسم الأخرى. ومن بين المعالجات المعروضة والمشروحة، نجد تجبير الكسور، واستخدام الجبائر والأربطة والجبس (الجفصين)، وخياطة الجراح بوساطة المشابك، ونوع من الضماد اللاصق المجهول. كيف تسنّى لحضارة جدّ فتية أن تكتسب هذا القدر من المعارف الطبية في مثل هذا الوقت القليل؟

غير أن هذا ليس كل شيء. فقد كانت مستحضرات الأطباء المصريين النباتية من الشهرة والتقدير بحيث أنها انتشرت في مختلف أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط. وكانوا يعرفون ٧٠٠ دواء وعُقار لكل الأمراض المحتَمَلة، من لسعة الحيّة إلى حمّى النِفاس. وليس هناك شيء أسطوري أو مبالغ فيه. إن كل هذه العقاقير مصنَّفة ومُجَدْوَلة في وثيقة أخرى قديمة، هي الرقّ البَرْدي المعروف باسم رقّ (أو مخطوطة) إيبرس[٢].

واليوم أيضاً، نبتلع بكل ثقة عدداً من أنواع المزيج الغريب المعدّ منذ

أربعة آلاف سنة على ضفاف النيل. ومن بين الأدوية الموصى بها من جانب الأطباء والصيادلة في مصر القديمة، والتي ما نزال نستعملها في أيامنا هذه، نجد الأقاقيا (= السنط)، واليانسون، وبذور الخروع، (إن زيت الخروع القديم الجيّد كان مستعملاً كمسهل لدى المصريين)، والكزبرة، والزعفران، وكذلك المواد المعدنية من مثل الزرنيخ، وحجر الشبّ، وملح البارود (حتى إن اسمه مصريّ)، وبيكربونات الصودا، والكبريت.

ما همّ إن كان إمحوتب أم لا معلّم المعرفة الطبية في مصر، فالمصريون كانوا يجلّونه في كل الأحوال كأعظم شافٍ في جميع العصور. واكتشف العالمون بالمصريات، المئات من التماثيل الصغيرة البرونزية تمثّله؛ هي على وجه الاحتمال، نذور، وهبات من مرضى معترفين بالجميل وشاكرين. ومتحف اللوڤر في باريس، وحده، يضمّ خمسين من هذه التماثيل الصغيرة.

هذه التماثيل الصغيرة لا تمثّله كإله، ولكن كنابغة؛ الرأس حليق، مغطى أحياناً بقلنسوة، وهو يرتدي وزرة وينتعل خفّاً (صندال)، وهو جالس في وضعة تأملية، وقد نُشر فوق ركبتيه رقّ بَرْدِي. ويعود تاريخ التماثيل الصغيرة هذه تقريباً إلى القرن السادس قبل الميلاد. ولم يَغْدُ إمحوتب الإله المصريّ للطب إلاّ بعد ثلاثة قرون.

وتُبديه رسومه التي تعود إلى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد بكامل شخصه، مثل سائر الآلهة المصرية؛ وهو ملتحٍ ويمسك بيده صولجاناً، وكذلك رمزاً للحياة والسعادة. وفي جميع البلاد، من المستنقعات في الدلتا إلى صحراء النوبة، رُفعت المعابد تكريماً لإمحوتب.

سيكون من المنطقي الاعتقاد بأن يُدفَن امرؤ بهذه القوة وهذا التبجيل في رمس مشابه لرموس الفراعنة. مع ذلك، لم يكن هناك، ظاهرياً، شيء من ذلك، والحقيقة هي مفردة، على الأقلّ.

إن موضوع الخلود هو، فوق كل شيء، ما يضفي على الديانة المصرية

طابعها المميّز والأَصيل. فطالما أن النيل يعرف فيضانات جديدة، ويُبعث أُوزيريس، وتحيا البذرة من جديد، فإن الأمر نفسه يصيب الإنسان. إن حفظ الأموات المذهل في رمال مصر أَسهم، بلا ريب، في اعتقاد سيسيطر على الإيمان المصري طوال آلاف السنين، قبل أن يعرف بعثه الخاص في المسيحية.

لم تكن الحياة، بالنسبة إلى المصري، إلا تمهيداً أو استهلالاً لحياة أبدية في الماوراء، سيحيا في خلاله أفضل أوقات حياته الفانية. ولأن الحياة البشرية بعد الموت التي تنقضي في العالم الواقع تحت الأرض في الرمس، فإن هذا الأخير لم يكن، وحسب، نصباً، أو ضريحاً، أو قبراً فخماً، ولكن كان ينبغي أن يكون كذلك مسكناً حسن التنظيم، وبالنسبة إلى نبيل مثل إمحوتب، جديراً بمقامه ومنزلته. إن ضريح الوزير الكبير لفرعون كان يجب أن يكون بين الأفخم من الأضرحة. والمبنى في حدّ ذاته، من دون أي ريب في ذلك، كان يجب أن يكون نواة تحيط بها معابد، وأفنية، وأنصاب متنوعة.

ومع ذلك، لم تُكتَشَف قط مقبرة إمحوتب الكبيرة.

عبثاً حاول جميع الأركيولوجيين الذين قاموا بحفريات في موقع سقّارة العثور على ضريح إمحوتب. وقد كرّس واحد منهم أو اثنان عشرات السنين لهذا العمل المفرد وحده. وقد استعرضوا بدقة كل الروايات المصرية لكي يجدوا فيها دلائل محتملة.

ولكنها لم تكن حتى تشير إلى موته.

أترون ما أودُّ أن أخلص اليه؟ هل كان إمحوتب نفسه إلهاً إنسانيّ الشكل، يتمتّع مثل ڤيراكوشا، وكتزالكواتيل، وكوكولكان ـ ويسوع المسيح، ربما ـ بقوىً عجيبة ظاهرياً مقترنةً بحكمة كبيرة، ويكون قد «ذهب» بدلاً من أن يموت ويُدفن.

أنا لم أجْلُ قط هذه المسألة. ولكن بعد الآلاف المؤلفة من السنين المنصرمة، ليس في وسعي مطلقاً أن أرجو اختراق لغز المعرفة الهائلة لدى

إمحوتب واختفائه (إذا كان صحيحاً أنه اختفى). مع ذلك، الآن وقد هضمت مجمل المعلومات التي استطعت جمعها عنه، سأتولى مهمة تفحُّص في أي نطاق ستوضع بعض أعماله، إذا ما كانت قد أُنجزت اليوم، أفي نطاق الأمور السحرية أو نطاق تلك الخارقة للطبيعة.

كان الكهنة المصريون، على وجه الخصوص، مؤهلين لتلقّي المعرفة الغامضة التي حملها معه إمحوتب، ولنقلها. وكانوا قد ثبّتوا لأنفسهم شهرة هائلة كسحرة، وعرّافين عبر العالم القديم بأسره، شهرة اعترف بها غالباً اليونانيون الذين كانوا أبعد من كونهم جهلة.

ووفقاً للأُسطورة، كان الكهنة أنفسهم يستمدّون معرفتهم من **توت**، إله الحكمة، الذي حكم ثلاثة آلاف سنة على الأرض. ولاقترانه، بالقمر، بكيفية أو بأخرى، فقد مثّلوه كرجل له رأس أبي منجل، الطائر المائي الطويل القائمتين والمنقار، وهو الطائر الذي كان إمحوتب يبجّله ويجلّه، ومن يدري، رمز الرجل المعتمر خوذة فضائية... فهل يُعقل أن تكون أسطورة توت قد أوحت بها زيارة كائن فوق طبيعي وعطوف؟ ومع تذكُّري كيف أصبحت عبارة «دجي. أي. دجو» [G.I Joe] في زمن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ـ ١٩٤٥) لقب جميع الجنود الأميركيين، الذين اشتهروا بتوزيع هداياهم وصداقتهم في أوروبا، واليابان، وفي جنوبي شرقي آسيا، أتساءل إذا ما كان «**توت**» وقد أقبل من الفضاء لحمل المعرفة إلى البشرية، لم ينتهِ إلى أن عيِّن جميع رجال الفضاء معاً.

أنا أعرف أُناساً من أنصار علوم السحر والتنجيم يزعمون أن **توت** كان أطلنتياً، اشترك في بناء الهرم الكبير، الذي دفن في داخله ألواحه وأدواته السحرية. وكان المصريون يعتبرونه إلهاً يصنع كل شيء.

وبصفته مخترع الكتابة، ألّف هذا الإله النابغة، بلا ريب، أقدم كتب مصر التي يقول عنها الكهنة إنها كانت «بيد الإله نفسه». وتقول إحدى الأساطير إن **توت**، عندما كشف للملك تاموس فن الكتابة، رأى العاهل

الطيّب فيها تهديداً للمجتمع. ويقال إن الملك اعترض بقوله: «إن الأولاد والشبان الذين جدّوا في سالف الزمان في التعلُّم وحفظ ما لُقِّنوه سيهملون تمرين ذاكرتهم ويكفّون عن الاجتهاد.».

سواء أكان **توت** (أو **إمحوتب**) قد علّمهم أم لا، يبدو أن الكهنة المصريين كانوا أوائل البشر على الأرض الذين أتقنوا الكتابة. ومن علّمهم صنع الورق بتمليس أو تسطيح ساق نبتة البَرْديّ وتجفيفها؟ يبقى أنهم أنشأوا مدارس للكتبة مجاورة للمعابد، وأن طبقة من المتعلّمين نمت وتطورت، لمهر المملكة التي توحّدت حديثاً بالموظفين والإداريين.

إذا كان كهنة إمحوتب قد أنجزوا هذه الأمور الكثيرة، فإنه ليُسمح بالاعتقاد بأنهم لم يتوقّفوا عند هذا الحدّ، حتى لو أن الأجيال التي أعقبتهم لم تشاهد شيئاً.

وتبقى الأهرام، بلا أي شك، الدليل الأفضل المرئي على معرفتهم. وقبل مغادرتي مصر، يتعيّن عليّ، إذاً، تعميق التعرُّف إلى هذه المباني الرائعة.

هوامش المترجم

(١) **إن موت أُوزيريس** وبعثه يجعلانه نموذج الإله المثالي. وعبادته المقترنة بعبادة إيزيس انتشرت في العالم اليوناني ــ الروماني. غير أنه في أسرار أوزيريس وإيزيس الغامضة، فإن إيزيس هي من يحتل المرتبة الأولى.

(٢) **مخطوطة إيبرس**: هي مجموعة نصوص طبية مصرية يعود تاريخها إلى نحو سنة ١٥٥٠ قبل الميلاد، وهي أحد أول الأعمال الطبية المعروفة. وفضلاً عن وصفاتها السحرية الـ ٧٠٠، والأدوية الشعبية المقصود منها معالجة كل الأدواء من لسع التمساح إلى ألم ظفر أصبع القدم، والقضاء على الحشرات المنزلية كالذباب، والجرذان، والعقارب، تتضمّن وصفاً دقيقاً مذهلاً حقاً لجهاز الدورة الدموية، مشيراً إلى وجود أوعية دموية عبر الجسم، وعمل القلب، ووظيفته كمركز للتزود بالدم. وقد حصل على **مخطوطة إيبرس** الألماني العالِم بالمصريات جورج موريس إيبرس (١٨٣٧ ـ ١٨٩٨) في سنة ١٨٧٣، وهو روائي كذلك.

١٠

الحجارة تصون سرّها

أكّد وسطاء (الوسيط هو الصلة بين البشر والأرواح في التنويم المغنطيسي) مختلفون بقوة أنهم شعروا بإشعاعات مغنطيسية منبعثة من بعض الأهرام. وكان الدكتور لويس ألفاريز، الأميركي، الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء (١٩٦٨) أول عالم اشتبه بوجود مصدر إشعاعات كهرمغنطيسية داخل الأهرام.

تساءل الأركيولوجيون زمناً طويلاً عمّا إذا كان هرم الجيزة الثاني، هرم الفرعون خفرع، يخفي غرفاً سرّية لم يطلها الاكتشاف (من بين الأهرام المشيّدة في مصر القديمة والبالغ عددها نحو ٧٥ هرماً، يُعتبر هرم خفرع واحداً من الأهرام الأربعة الأكثر شهرة). وفي نهاية الستينات، تخيَّل الدكتور ألفاريز عرضاً جدّ معقّد لآلات إلكترونية من أجل سبر غور الهرم.

كان الأمر يتعلّق بإشعاع غامض آتٍ من الفضاء واكتشفه سنة ١٩١١ عالم الفيزياء النمساوي فكتور هس بفضل مناطيد استكشاف الطبقات العليا

من الجو. واستنتج من ذلك العالم الأميركي روبرت ميليكان الذي درس كثيراً هذا الإشعاع ـ وأعطاه اسم «**الشعاعات الكونية**» ـ أنه ينبغي أن يتعلّق الأمر بشكل من الإشعاع الكهرمغنطيسي. وهو يتمتع بقوة اختراق هائلة، ويستطيع أن يجتاز حتى رصاصاً سماكته عدة أمتار.

إن قوة الاختراق هذه هي تلك التي كان الدكتور ألڤاريز ينوي استخدامها في الجيزة. فركّز، على ذلك، أجهزته الإلكترونية في قلب الهرم لتسجيل الشعاعات الكونية التي تخترقه. وقد سُجِّلت المكشوفات على شريط مغنطيسي، وعولجت بناظمة آلية لإعطاء «صورة» عن داخلية الهرم، شبيهة تقريباً بصورة فوتوغرافية بالأشعة المجهولة (= أشعة إيكس).

ولفرط ذهول الجميع الكبير، والحالة هذه، تعثّرت الناظمة الآلية.

لاحظ الدكتور عمرو جُنيد، الذي كان يتولّى مهمة هذا البرنامج في المركز المعلوماتي «آي .بي.إم» (I.B.M) في القاهرة، أن الناظمة الآلية لم تُحدث سوى رسوم بيانية أو تخطيطية خرقاء، لا تتطابق مع قياسات الهرم. مع ذلك، إن الناظمة الآلية نفسها وفّرت كل ارتياح بالنسبة إلى البرامج الأخرى التي استُخدمت من أجلها في الآن نفسه. وأخضع تقنيو الـ «آي. بي. إم» الناظمة الآلية لكشف معمَّق من غير أن يكتشفوا أدنى اختلال في الاشتغال.

إذاً، كانت معطيات الدكتور جنيد التي كان يقدّمها إلى الناظمة الآلية هي التي لا تساوي شيئاً، والأشرطة المغنطيسية التي كان يُفترض أن تنسخ تسجيل الشعاعات الكونية الواصلة إلى الداخل.

لم يستطع الدكتور ألڤاريز قط أن يكتشف سبب هذه الأشياء الشاذة، غير المألوفة. واضطر، في آخر الأمر، إلى التخلّي عن مشروعه لأن العدّاد الخاص بالشعاعات الكونية كان يصاب بعطل في كل مرة كان يحاول أن يستعمله داخل الهرم. ومنذ تلك المغامرة، وهو يتساءل عمّا إذا كان الجبل

الحجري لا يخفي جهازاً غامضاً لإرسال (أو لاستقبال) موجات أو إشعاعات مجهولة.

وهو ليس الوحيد الذي يطرح هذا النوع من الأسئلة. فقد دُهش السائح الفرنسي المدعو بوفيس، لدى زيارته **الغرفة الملكية** برفقة جماعة من مواطنيه، لأن الفضلات التي كانت تغطّي الأرض، بسببٍ من آلاف الزوّار المهمِلين الذين يتعاقبون على هذا المكان السياحي الدولي، لا تنبعث منها أي رائحة كريهة. وقام بالتنقيب في هذه الكوم من الأقذار، واكتشف فيها حتى جثث هررة صغيرة لا تُطلق أي رائحة تعفُّن أو فساد على رغم الجو المحبوس أو المقفل. وحملها، وشرّحها، واكتشف أنها مجففة أو مزال منها الماء إلى حدّ كونها محنّطة. ماذا أصابها في الغرفة الملكية؟ لقد كان المصريون يحفظون المومياءات في نواويس أو توابيت حجرية، ولكننا لم نجد قط مومياءات في داخل أيّ هرم.

بلغ هذا الاكتشاف المميّز نوعاً ما مسامع مهندس لاسلكي تشيكوسلوفاكي هو كاريل دربال، الذي بلغ به الاهتمام حد أن قرّر الانكباب بدوره، على بعض الاختبارات. فصنع تصاميم ماكيتات أهرام صغيرة، ونجح في إقامة «علاقة لا تقبل الجدل بين شكل الفضاء المتضمَّن داخل الهرم والعمليات الفيزيائية، والكيميائية، والبيولوجية التي تدور فيه».

ودفع الاختبار أبعد بعد، فصنع إذ ذاك منمنماً دقيقاً للهرم الكبير، ووضع فيه شفرة حلاقة ليرى ماذا سيحدث.

كان مطّلعاً على الأساطير القديمة التي تفيد أن الأهرام كانت تخفي في ما مضى أشياء غريبة وعجيبة من مثل صفائح الزجاج التي نستطيع طيّها من غير كسرها، والسيوف التي لا تصدأ على الإطلاق. وتكشّف هرمه المنمنم، والحالة هذه، عن إحداث ظاهرة مدهشة ستثمر كثيراً بالنسبة إليه، وتدرّ عليه أموالاً طائلة.

إنّ الشفرة الموضوعة داخل الهرم، في حوالى الثلث من القمة ـ أيّ

في الموضع الذي تحتله الغرفة الملكية داخل الهرم الكبير ـ لا يعلوها الصدأ، ولا تتثلّم حتى، على أن يوجّه الهرم شمالاً تماماً، مثل نموذجه الحقيقي. وفي كل صباح، كان دربال يتناول شفرته من داخل الهرم، ويحلق بها ذقنه، ثم يعيدها بعناية إلى مكانها. وقد لاحظ أنها ظلت مسنونة (مشحوذة) بعد استعمالها للحلاقة أكثر من مئة مرة.

وصنع نماذج أخرى من الهرم، ولاحظ أنها تُحدث التأثير نفسه في شفرات الحلاقة، وعندئذ دخل معترك الأعمال صانعاً أهراماً صغيرة من رغوة البوليستيرين، كان يبيعها. وحصل على براءة لاختراعه المعروف في بلدان كثيرة في أوروبا باسم شحّاذ (= سنّان) شفرات الحلاقة «خوفو»، وفي الولايات المتحدة الأميركية يُعرف باسم **«هرم توت»**. واستعاد صناعيون نابهون فكرة دربال في كل من فرنسا وايطاليا حيث يباع الحليب واللبن الرائب في عبوة هرمية الشكل تمدّ، بلا جدال مدة حفظهما. ولا يستطيع أحد أن يفسّر اللماذا والكيف لتأثير الأهرام هذه. ونحن مضطرون إلى الملاحظة أن المصريين كانوا، في هذا الصدد، يعرفون أكثر ممّا نعرف نحن.

في اجتيازي الصحراء للذهاب إلى الهرم الكبير، لا أفتأ أبصر الرجال منهمكين في حفر الرمال، حاملين بأناة نتاج حفرياتهم في سلّتين صغيرتين معلّقتين في طرفيّ عصا طويلة، يحملونها بعرض الكتف.

وأُبصر أركيولوجياً يعتمر خوذة استعمارية ينحني لتفحُّص الخطوط الهيروغليفية على حجرين اثنين تمّ نبشهما من الأرض. إن هناك الآلاف من هؤلاء الأشخاص الذين يعيشون هكذا وسط الحرارة والغبار، مجدّين في حل رموز أبي الهول، وإبراز تاريخ مصر والمعرفة التي سادت فيها. ولدى وصولي، كان هناك ٥٩ مشروع تنقيب وحفريات جارية على قدم وساق على طول النيل. وليس هذا رقماً غير مألوف. فلقد طالما فتنت آثار مصر القديمة البشر.

منذ نحو ٢٥٠٠ سنة، عبّر الرحّالة والمؤرخ الإغريقي هيرودوتس

(حوالى ٤٨٤ ـ نحو ٤٢٠ ق .م)، آنذاك عن ذهوله حيال ما اكتشفه في أحد البلدان العريقة التاريخ بقوله: «ليس هناك بلد في العالم فيه هذا القدر من العجائب.».

في تلك الحقبة، كان عمر الأهرام، على الأقلّ، عشرين قرناً. وكانت إذاً بعيدة عنه في الماضي بقدر ما هو بعيد عنا اليوم الأكروپول. إن لدينا، من جهة أخرى، الدليل على أنه في زمنه، كانت جماعات من السيَّاح تزور الأهرام، وأن كهنة من فئة معيّنة كانوا يقومون بمهمة الأدلاء. وبالوسع أن نرى، بعد، اليوم النقوش والرسوم التي نقشها أو حفرها هؤلاء السيَّاح من عصر آخر على الجدران، وقد تم فك رموز عدد كبير منها.

وأدع جو وادي النيل يلفّني، مفكّراً في غنى تاريخه. فلقد خلّفت مصر حتى ذلك الوقت كنوزاً في ميدان الفنون والتقنيات عندما كانت بعد أوروپا في العصر الحجري. وكانت تشرع في آخر حقبها من الأزدهار عندما كان أسلاف أبطال هوميروس ما يزالون مخلوقات نصف همجيين، يخوضون المعارك عبر السهول المعرَّضة للهواء، المحيطة بمدينة طروادة. وكانت مصر ستصبح فريسة الاسكندر المقدوني [الكبير أو ذي القرنين] وتعطّشه إلى الفتح والغزو.

إن الجاذب الذي تمارسه هذه الأمبراطورية التي تمتد حتى أبواب الصحراء، لم يتوقف قط في خلال القرون. فمصر القديمة كانت تذهل الإغريق والعبرانيين والرومان كثيراً، والبعض يكنّون احتراماً عميقاً لنوابغها وفنّانيها، فأسرارها، وكنوزها، والآثار الفخمة والضخمة من عالم اختفى قد فتنت البشر في كل الدهور والعصور. وفي غالب الأحيان، كان أُناس جهلة وساذجون، يحملون حجارة صوّانية منحوتة تزن أكثر من طن لتزيين متحف أو مجموعة خاصة في الخارج. وطوال قرون، استُخدمت الأهرام مقالع حجارة من جانب المقاولين والملتزمين المحليين. وقبل أقلّ من قرن من الزمن، وحسب، وُضع حدّ للنهب على نطاق كبير.

انطلاقاً من تلك اللحظة، شوهد جنس مختلف يُقبل إلى ضواحي

القاهرة، مستبسلاً كذلك، ولكن يحدوه الفضول الفكري وليس النهب، كما في السابق. وتعاقبت على إقامة المخيّمات طوال شهور في الصحراء أربعة أجيال من الأركيولوجيين الذين يجتهدون في التنقيب، والنسخ، وإعادة التأهيل، والجمع، والتصنيف، وفك الرموز بحيث أنهم توصّلوا شيئاً فشيئاً إلى إعادة تشكيل پانوراما (نظرة شاملة) للحياة المصرية.

لدى وصولي، تعرف الأبحاث كسباً جديداً للطاقة. يقومون باكتشافات مذهلة ومثيرة. الأركيولوجيون مزوّدون بأدوات جديدة محسّنة ومتقنة ـ فعلاوةً على الرفوش، والمعاول، والسكاكين، والمسجّات أو المسْيعات (الآلات المملّسة التي يُدلك بها الطين)، والفراشي المصنوعة من وبر الجمال، تراهم يستخدمون الناظمة الإلكترونية، والشعاعات الكونية، مثلما سبق أن رأينا سابقاً. وبموازاة ذلك، كشفت صورة فوتوغرافية التُقطت من الجو بوساطة الأشعة ما دون الحمراء صوراً شبحية للماضي، مُظهرةً التخطيط تحت الأرضي لمبانٍ اختفت، وقنوات، وجسور، وسدود مائية (طاقم القمر الصناعي أپولو، مثلاً، التقط صورة لدلتا نهر النيل سمحت لرسّامي الخرائط بأن يموضعوا ويسمّوا أكثر من ألف قرية أصلية لا تبدو على أي خريطة). وكذلك، يتيح استخدام طرائق الرسم الطيفيّ بوساطة الأقمار الصناعية، تحديد العمر التقريبي لمبنى حجري، وتشكُّله المعدني، والتجاويف التي يخفيها، والقوى الخارجية التي مورست عليه. ومع ذلك، وحتى الآن، كان المستفيدين الرئيسيّين من ذلك علماءُ البيئة، والأركيولوجيون الذين يحلّون في المرتبة الثانية.

يؤكد الأركيولوجي البريطاني الشهير ولتر إيمري أن كل ما اكتُشف في مصر حتى الآن لا يمثّل «إلاّ جزءاً صغيراً جداً مما هو بعد مدفون في الرمال.».

بالنسبة إليّ شخصياً، تبقى الأهرام، ربما موضوع الدراسة الأكثر إثارة للشغف من بين جميع الموضوعات.

يبدو أن الأهرام المبنيّة بحجارة مقصوبة يزن الواحد منها نحو ١٥ طناً ـ الأمر الذي لا يحول دون أن تسوّى بدقة متناهية ـ قد تطلّبت، ظاهرياً، عشرات السنين من عمل بضعة آلاف من العمال. من استطاع إذاً، أن يقدّم إلى بعض الفراعنة فكرة البناء وفقاً لأسلوب جديد كلياً، ولم يكن له مطلقاً مثيل من بعد؟ ماذا كان يدور في رأس المصريين لمّا أقاموا هذه الأنصاب الضخمة والهائلة، منشئين مداخل مخفية بمهارة بأبواب زائفة، وممرّات تؤدي إلى كتل من الصوّان التي لا تُختَرَق؟ إذا ما اقتصر الأمر على تثبيط همة النهابين والسلابين الذين يسطون على الأضرحة، فقد كان هناك دلائل أكثر سرعة للحصول على النتائج نفسها. لماذا كان الفراعنة يحرصون على أن تكون نواويسهم مدفونة تحت جبل حقيقي من حجر ذي هندسة مثالية؟

يذكر هيرودوتس، الذي هضم كل الترّهات التي تدفّق بها الادّلاء والمرشدون، أن مئة الف عبد رقيق عملوا طوال عشرين سنة في بناء الهرم الكبير. وأطلعتني قراءاتي، من جهة أخرى، على أن العالمين بالمصريات قد صدّقوه بدورهم، وأنه حتى حقبة حديثة جداً، كانوا يعتبرون من الثابت أن هذا العمل الجبّار ما كان يُنجز إلاّ بجيوش من المحكومين بالأشغال الشاقة.

إنّ هذا الاعتقاد، المضاف إلى بيئة الأضرحة الصامتة والأنصاب ذات القياسات الهائلة، منحت المؤرخين رؤية شعب كئيب، تلاحقه فكرة الموت، مقضيّ عليه أن يجرّ طوال حياته كتلاً من الحجارة تحت لسع سوط رؤساء العمّال.

سوى أنني اكتشفت أنها كانت فكرة خاطئة كلياً. لم يُستخدم غير أربعة آلاف رجل دفعة واحدة، وكانوا جميعاً مواطنين أحراراً، كانوا يُعبّأون للقيام بالأشغال العامة في خلال الفصل الميت، عندما يمنع فيضان النيل العمل في الحقول. وكانوا يتغذّون بكيفية ملائمة؛ وتكشف السجلات والوثائق القديمة أن كميات مذهلة من البصل، والثوم، والفجل كانت تُحمل لكي تُضمّ إلى وجبات العمّال.

كان الرجال، في فرق مؤلفة من ١٨ عاملاً إلى ٢٠، يجرّون الكتل الحجرية الضخمة على مزلقات قبل أن يضعوها في مكانها. وعلى عدد كبير من الكتل هذه سجّلت فرق العمال أسماءها بفخر بالتراب الصلصالي الأحمر: «فريق قويّ»، أو «فريق صبور». . .

بالطبع، لم يكن هذا العمل حفلة لهو ومتعة، ولكن بالوسع التأكد من أن بناة الأهرام شعروا في المناسبة، بينما هم يعملون لحساب ملك إلهي، بشيء من الحماسة التي أنهضت في ما بعد بناة الكاتدرائيات في القرون الوسطى. وقد بلغ اعتزاز بعض الفرق بأنها تعمل من أجل الفرعون مبلغاً كبيراً، بحيث أن أحد رؤساء العمّال ذكر أنها كانت تعمل «من غير أن تنهك قوى أحد، ومن غير أن يعطش أحد».

وأخيراً كان العمال «يعودون إلى المنزل وهم منشرحون، ممتلئو البطن، ونشاوى بالجعة، كما لو كانوا عائدين من أي احتفال دينيّ جميل». إذاً، فأنا مقتنع بأن المصريين الذين بنوا الأهرام بعيداً عن كونهم شعباً حزيناً ومضطهداً، كانوا أقواماً اجتماعيين، ومرحين، وقد اعتُبروا من بين الشعوب الأكثر جدّاً واجتهاداً في العصور القديمة.

في خلال قرون، افترُض أن الأهرام لم تكن سوى أضرحة للفراعنة الذين عملوا على إقامتها. ولكن، في وقت حديث جداً، وحيال أحجامها المذهلة، شرعنا في طرح الأسئلة على أنفسنا. وحديثاً، قال البعض بينهم وبين أنفسهم، إن الاهرام يجب أن تكون أكثر من مجرّد حجارة ضريحية. وتوسعت البحوث. . .

واستطاع السر وليام ماثيو فلِنْدرز پُتري، عميد الأركيولوجيين العلميين الكبار، أن يكتب أن الهضبة الصغيرة الصحراوية التي تمتد إلى ضواحي قرية الجيزة «تشكّل ربما، الموقع الأبرز أو الأروع في العالم.».

إن المقصود، بالطبع، الأرض التي تقوم عليها الأهرام الثلاثة الأكبر،

الهرم الكبير المعزو إلى خوفو، وهرمان آخران حجماهما «بالكاد» أقلّ. ويكتب پتري: «هناك بالوسع أن نرى بدايات الهندسة المعمارية نفسها، وأضخم تكديس هندسي معماري بُني على الإطلاق، والبناء الأكثر دقة الذي تحقق على الإطلاق، والعمارة المختارة جداً، واستخدام الأدوات الأكثر براعة.».

من وجهة النظر التقنية وحدها، تشكّل هذه الأهرام إنجازات عجيبة في حدّ ذاتها، من غير أن تمسّ الحاجة إلى أن نعزو إليها أدنى مهمة غامضة. وإذا ما أخذنا في الاعتبار حقبة بنائها، وكذلك الأدوات والمواد التي كانت بتصرُّف المصريين، نستطيع القول إنها إنما كانت المباني أو الإنشاءات الأكثر صعوبة التي سبق للإنسان أن تصوَّرها.

إن سدودنا الكبيرة المبنية بالاسمنت، وجسورنا الفولاذية المعلّقة هي من صنع تقنية أكثر تقدماً ــ ومن وجهة نظر حضارتنا الخاصة ــ أكثر نفعاً. ولكن يبدو لي أن مهندسينا، مهما يكونوا قادرين ومخلصين أو متفانين، هم أقلّ جدارة واستحقاقاً من بناة الأهرام ــ طالما أنهم يشتغلون بالاسمنت الصناعي، والفولاذ المجنَّب (معطىً جانبية معيّنة)، والمتفجرات، ومختلف ماكنات الحفر والرفع.

كيف كانوا يعملون لكي يشيّدوا هرماً مصرياً إذا كانت أدواتهم المعدنية مجرّد أزاميل ومطارق نحاسية، وآلات قياسهم خيوطاً وأقلاماً فحمية، وأدواتهم الرافعة لنقل الكتل الحجرية التي تزن طنين اثنين - والزوايا، والعتلات، والزلاجات هي حبال من النخيل مجدولة، وأطواق؟

لقد تطلّب بناء الأهرام في آن معاً عملاً باهراً من جانب فريق رائع، وحسابات منطقية ذات دقة قصوى. وقد استخلص رودولف أنتيس من ذلك استنتاجاً مثقلاً بالمعنى: «مع الأخذ في الاعتبار كل شيء، فإن تاريخ الحضارة المصرية يحيل على الاعتقاد بأن التفكير الديني والتفكير المنطقي كانا أكثر تناغماً في حوالى السنة ثلاثة آلاف قبل الميلاد منهما حوالى السنة

الألف من عهدنا الميلادي في مصر، كما هما بالحري في عالم اليوم. إن مصريّ العصور القديمة كانوا يلجأون إلى العقل في أعلى درجة عندما كانت تمسّ الحاجة، ويتعاملون باحترام مع كل ما يتجاوز إدراكهم وفهمهم.».

قبل سنة ٦٦٣ قبل الميلاد، تُعتبر كيفيةً نوعاً ما، التواريخ التي يقدمها العالمون بالمصريات؛ فلقد لها هؤلاء، من جهة أخرى، بنقل التواريخ الأقدم من قرن إلى قرن. مع ذلك، رغماً عن التاريخ، يبدو لي جلياً أن المعارف الرياضية (نسبة إلى علم الرياضيات) كانت آنذاك متقدمة جداً منذ بداية تاريخ مصر. ولست أُريد دليلاً غير وجود الأهرام. إن غالبية شعوب العصور القديمة تُجمع، علاوةً على ذلك، على أن تعزو إلى المصريين اختراع هذا العلم: الرياضيات.

وأَظن، من جهة أخرى، أن المصريين عرفوا أيضاً عن علم الفلك أكثر كثيراً ممّا يقول المؤرخون إنهم أدركوا. لقد كانوا يعرفون الكفاية منه لكي يتكهّنوا بدقة باليوم الذي يفيض فيه النيل، و«توجيه» عدد من أنصابهم؛ في الواقع، إن مداخل معابدهم ومذابحها، المخصَّصة للآلهة نفسها كانت دوماً محوّلة أو موجَّهة في الاتجاه عينه، وفي أغلب الأحيان صوب المشرق.

إن أبا الهول ينظر إلى الشرق تماماً، وتنظر بعض المعابد إلى المكان الدقيق الذي تشرق منه الشمس صباحاً في المنقلب الصيفي. ومعابد أخرى متجهة صوب الشمال، ومعابد أخرى بعد، تنظر صوب مطلع الشعرى اليمانية (سيريوس) أو النجوم المتلألئة.

هل كان الكهنة يعرفون عن ذلك أكثر ممّا كانوا يودّون أن يعتقد الشعب الذي كانت خرافاته قيّمة بالنسبة إلى القادة؟ منذ أبعد الأزمنة في ما قبل التاريخ، طالما تساءَل البشر وهم يتأملون السماء ليلاً. وكان علم الفلك بلا أدنى ريب، أول علم مجرّد. وإذا لم يكن الفلكيون قد استمدوا معرفتهم من ذكاء أسمى، فقد كان تطلّب منهم ليالي رصد وكدسات من الحسابات كثيرة لكي يُطلعوا المسافر على الوسيلة لإيجاد طريقه بمساعدة النجوم، ويُعلموا

المزارع بموسم البذار والحصاد، ودورة الفصول. والكهنة الذين كانوا يعلنون للشعب هذه الأحداث لم يوضحوا قط من أين تلقّوا معارفهم.

وبقدر ما كانوا يتقدمون في دراساتهم السريّة والغامضة في علم الفلك، كانوا يشرعون في الربط ما بين حركة الأجرام السماوية وقوى المعبد. واتخذت آلهتهم حجماً جديداً.

كانوا يتأملون في سرّ النجوم كما لو كانت، جزئياً، عائدة إليهم من ذكريات بعيدة وغامضة من زوّار أقبلوا من النجوم.

مهما يكن من أمر، فقد تابعوا دراساتهم بلا ملل ولا كلل. ومن قرن إلى قرن، رصدوا موقع السيارات وحركاتها حتى غطت سجلاتهم ووثائقهم آلاف السنين، وأثبتوا التمييز بين السيارات (الكواكب السيارة) والنجوم الثابتة، وأدرجوا في مصنّفاتهم نجوماً من الحجم الخامس (غير مرئية تقريباً بالعين المجرّدة)، ووضعوا جدولاً بما يتكهّن به للبشرية، في نظرهم، دوران الأجرام السماوية المهيب والصامت.

كان تاريخ مصر «بالكاد» قد بدأ لمّا ووري جوسر تحت هرم إمحوتب المدرّج. وفي خلال السنوات السبعين أو الأقلّ والحالة هذه، التي أعقبت ذلك، أُنجز بنجاح بناء **الهرم الكبير**. من كان، إذاً، حائزاً على مثل هذه المعرفة؟

لن ينكر أيّ اختصاصي أن **الهرم الكبير**، إن لم يكن غير النتيجة للهرم المدرَّج، إنما يمثّل تقدماً مذهلاً بالنسبة إلى هذا الأخير، سواء بالنسبة إلى المواد المستعملة أو بالنسبة إلى قياساته الهائلة.

إنه يعطي، بارتفاع ١٦٠ متراً لدى الذروة، أو ما يعادل علو ناطحة سحاب مؤلفة من أربعين طبقة، مساحة قاعدية تزيد على خمسة هكتارات (أو ٥٠ ألف متر).

وقد استُعمل في بنائه أكثر من مليونين و٢٥٠ ألف كتلة حجرية، تزن الواحدة منها ما بين طنين اثنين واثني عشر طناً، ونُقلت من مسافة تزيد على مئة كيلومتر. إن هذا لهو، على الأقلّ، التقدير الأقرب الذي توصّل إليه الاختصاصيون من غير أن يفكّكوا الهرم حجراً حجراً.

قرأت أنه في البدء، كُسي الهرم بطبقة كلسية بيضاء وملساء، وتوّجت ذروته بالذهب من أجل أن يشاهد الفلاّحون العاملون في الحقول والرُّحل الذين يجتازون الصحراء من عدة كيلومترات من جميع الجهات، الرمز العظيم للقوة فوق البشرية التي تتلألأ في السموات.

قوة فوق بشرية؟ ينبغي الاعتقاد بذلك. فالقياسات الهائلة، والإتقان التقني، والروعة لم تكن المظاهر الأكثر لفتاً في **الهرم الكبير**. فبعد قرون عدة، شرع البشر في القيام باكتشافات مذهلة في موضوعه: اكتشافات تبدو، حتى اليوم، عصية على التفسير أو التوضيح.

كان الأقباط الأوائل الذين أيقظوا فضول الأجانب بالنسبة إلى داخلية الأهرام. زعم الأقباط، وهم شيعة مسيحية، أنهم يتحدّرون من المصريين القدامى، واستعملوا لغة دينية شبيهة باللغة المصرية. (إن تنصير مصر بوساطة فلسطين المجاورة يعود إلى القرنين الرابع والخامس). وفي خلال قرون عدة، تجمّعوا في أماكن سرّية لتكريم آلهة مصر القديمة. وقد كتب كاتب قبطي يقول: «إن أحد ملوك مصر في فترة ما قبل الطوفان... أمر ببناء هرمين اثنين كبيرين. وأمر الكهنة بأن يضعوا مجموع علمهم ومعارفهم في الفنون والعلوم من أجل أولئك الذين يمكنهم، في ذات يوم، أن يفهموها ويدركوها.».

واطّلع العرب على هذا الإعلان المفرد في نوعه عندما اكتشفوا، لدى إخضاعهم مصر للإسلام في القرن السابع، النصوص القبطية المقدسة. وعرفوا أيضاً من فم السكان الأصليين أن **الهرم الكبير** إنما يضمّ «كنزاً سرياً» بين جدرانه.

وكان العرب يحبّون الذهب والحجارة الكريمة، ولكنهم لم يكونوا أقلّ حباً للمعرفة والعلم؛ وكان علما الفلك والجغرافيا يفتنانهم على نحو خاص جداً. فمشّطوا الشرق الأوسط لاكتشاف المخطوطات العلمية الاغريقية، والرومانية، والهندية، وكانوا يدفعون أحياناً وزن المخطوطة ذهباً بالنسبة إلى الترجمات. وبنتيجة ذلك، قرّر الخليفة العباسي المأمون، التنقيب في الهرم لكشف المعارف السرية أو الثروات الطائلة التي يضمّها.

فقصد الجيزة على رأس جيش من المهندسين والعمّال. وشرعوا في تفحُّص الجوانب المنحنية في الهرم بدقة، دون أن يكتشفوا أيّ مدخل. عند ذاك أصدر الخليفة الأمر إلى رجاله بأن يتصدّوا للحجر، وبما أن أزاميلهم كانت تُثلم، أوقد العرب النيران وأغرقوا بالخلّ الكتل الحجرية المتقدة حرارة حتى ذابت، وبات بالوسع زحزحتها من مكانها بوساطة فحول الضأن (الأكباش).

وتكشّف عملهم التدميري عن أنه كان بلا طائل ولا جدوى. ودخلوا ممراً طويلاً تبعوه حتى حجرة الملك، ولكنهم لم يعثروا على غير ناووس من الصوّان فارغ، يُطلق صوتاً غامضاً. كان ذلك كل شيء: لا كنز ولا زجاج غريباً، طرياً ولا ينكسر، ولا سيوف سليمة، ولا مخطوطات. ويعود الخليفة خائباً إلى بغداد.

لم يُعثر قط على شيء آخر في **الهرم الكبير**، سوى حطام وفضلات موادّ البناء. في نظري، إن الحدث هو غامض في حدّ ذاته، فلو أن ناهبي الأضرحة قد حملوا كل شيء، كما يزعم العلماء بإلحاح، فكيف دخلوا؟ ولماذا تكبّدوا مشقة إعادة الحجارة إلى أماكنها بعد خروجهم؟

كان ينبغي انتظار فتح أو غزو جديد ـ فتح نابوليون بونابرت الشاب سنة ١٧٩٨ ـ للبدء باستشفاف ماذا يمكن أن تكون أسرار **الهرم الكبير** الحقيقية.

إن الحملة العسكرية الفرنسية إلى وادي النيل التي كانت تهدف إلى

قطع طريق الهند على الإنكليز، قد منيت بالإخفاق العسكري. غير أنه في المجال الأركيولوجي، ليس من شك في أهميتها. كان بوناپرت يدري تماماً أن الأرض التي يطأها تحتل مقاماً خاصاً جداً في تاريخ البشرية.

كان يعرف أنه في وادي النيل، أبدع الإنسان للمرة الأولى دولة كبيرة موحَّدة، وتصوَّر للمرة الأُولى مؤسسات سياسية مكلَّفة حكم منطقة جغرافية فسيحة الأرجاء، ونفّذ للمرة الأولى مشروعات ضخمة ذات مدى طويل. (في تلك الحقبة، بالطبع، كانت قد نُسيت تماماً أمبراطورية تياهواناكو القديمة. هل كانت أمبراطورية تياهواناكو أم لا أكثر تقدماً من الأمبراطورية المصرية القديمة؟ حتى اليوم، لا أحد يستطيع أن يعرف، بالتأكيد، أيتهما كانت الأُولى).

في وادي النيل، بكل تأكيد، أعدّ الإنسان نمط حياة كان يمثّل فيه العمل والواجب، بالطبع، دوراً كبيراً، ولكنه كان يتضمّن، مع ذلك، أوقات فراغ، وفيه كانوا يغذّون المرح، والأناقة، والمعرفة، والفنون. وبموازاة هذا النمط من الحياة، أبدع المصريون أدباً دنيوياً قائماً بذاته، يشمل دراسات وبحوثاً في «كيف تنجح في الحياة»، ومناقشات حول حالة العلم، وروايات مغامرات، وأغاني الحب.

كان بوناپرت يعرف ماذا يقول وهو يتوجه إلى جيشه قبيل معركة الأهرام: «أيها الجنود، من أعلى هذه الأهرام، إن أربعين قرناً تنظر إليكم!». . . وأدري الآن أن «أربعين قرناً» لم تكن بعد كافية.

واصطحب بوناپرت، متبصّراً، جيشاً من المتقبِّلين (المشتغلين التزاماً) الفكريين: خمسة وسبعين عالماً، أركيولوجيين وفنّانين كانت مهمتهم استكشاف بلاد ما تزال غير معروفة تماماً، ودراستها. وبفضلهم - تُرسم خطوط الصورة الأُولى - وقد استعيدت بالتفصيل في المجلدات الستة والثلاثين من كتاب «**وصف مصر**» - صورة شعب مفعم بالحيوية، وموهوب قدرات كبيرة.

اختار المهندسون الفرنسيون من أجل رسم خريطة لمصر الهرم كنقطة تثليث ملائمة. والتثليث هو مسح الأرض بالاستعانة بعلم حساب المثلثات تسهيلاً لرسمها. (حسب نابوليون لدى رؤيته الهرم للمرة الأولى، أنه بوساطة موادّ بنائه، بالوسع إقامة جدار ارتفاعه ثلاثة أمتار يحيط بفرنسا بأسرها. وقدّر بعض من كانوا يرافقونه أنه إذا ما وُضعت الحجارة حجراً إزاء حجر يمكن أن تحيط بثلثيّ العالم، على مستوى خط الاستواء).

لمّا درس واضعو الخرائط نقاط التثليث، لاحظوا أن الهرم متجه تماماً إلى الشمال كَسْراً ضئيلاً من الدرجة تقريباً. أما وجهه، أو جانبه الشرقي، فكان متراصفاً تماماً مع المحور القطبي للكوكب.

في ما بعد، اكتشف واضعو الخرائط أيضاً أن الهرم يرتفع بدقة وسط إسقاط مسطّح للعالم: ليس إسقاط العالم كما كان معروفاً سنة ٢٥٧٥ قبل الميلاد، ولكن إسقاط العالم أجمع. وإذا ما تفحّصت خريطة نصفيّ الكرة الأرضية حديثة، ستدرك ما أودّ قوله. فالجيزة تقع في منتصف الطريق ما بين الساحل الغربي للمكسيك يساراً، والساحل الشرقي للصين يميناً؛ وبين الرأس الشمالي في الأعلى، ورأس الرجاء الصالح في إفريقية، في الأسفل. إن إسقاطات مركاتور[١] تدلّ على أنّ القاهرة الحديثة (والجيزة هي على بضعة كيلومترات، من هناك) تقع لدى تقاطع خطيّ العرض والطول الثلاثين.

لم يكن لدى مهندسي الهرم المعماريين إلاّ وسيلة واحدة لاختيار موقعه المركزي إن لم يتعلّق الأمر بالمصادفة: مراقبة الأرض من الفضاء، ورسم الخريطة الكروية، ورسمها مسطحة، ورسم خطوط الزوال للوسط الصحيح لوجه الأرض (الأديم).

وانطلق الباحثون وقد أبهجتهم هذه الاكتشافات في دراسات مفصّلة، قائمين بالقياسات، والأوزان، محلّلين بدقة نتائجهم. وتواصل العمل، سنة بعد سنة؛ وتضاعف رويداً رويداً حجم الاكتشافات الجدّية. وحتى في أوساط الأشخاص من الأكثر تشككاً ومحافظة في العالم الأكاديمي، شرع هؤلاء في

الاعتقاد بأن **الهرم الكبير** كان التعبير عن معرفة تدقّ عن الشرح أو التفسير للكوكب وعلاقاته بالكون. وكان عليهم أن يدركوا تماماً أن وضع الهرم، واتجاهه، وقياساته تتوافق على نحو كبير مع اتجاه الأرض في مجملها وقياساتها. وكان من الصعب رؤية مجرّد مصادفة في ذلك.

كان من واضعو مخططات الهرم (سواء أكان فرداً أو عدة أشخاص) يدركون، على حدّ ما تذكر الأساطير، كيف يرسمون خرائط ممتازة للسماء كانت تتيح حساب خط الطول، وخرائط للكرة الأرضية بفضلها كان بالوسع السفر بحسب الإرادة عبر المحيطات والقارات. وكان **الهرم الكبير** تصغيراً على مقياس نصف الكرة الشمالي، مرسوماً انطلاقاً من كَسْرٍ معيّن من محيط دائرة الكرة الأرضية.

قد يكون من المحتمل أن الهرم استُخدم من بين كل الأمور الأخرى، للرصد. فقد عرف بُناته، بكيفية أو بأخرى، أن الأرض مستديرة ومسطحة لدى القطبين الاثنين، وأنها تدور على نفسها في يوم واحد حول محور منحنٍ قدره ٢٣,٥ درجة بالنسبة إلى دائرة البروج، محدثةً هكذا الليل والنهار، مع كون الانحناء في أصل الفصول؛ وكانوا يعرفون كذلك أن الأرض تدور حول الشمس في ٣٦٥ يوماً وكسرٍ. وكل هذه المعطيات والقياسات تم نسخها في توجيه الهرم وموضعه.

من الجائز الاعتقاد بأن المهندسين المعماريين كانوا يعرفون كذلك أن القطب الشمالي السماوي يرسم دائرة بطيئة حول دائرة البروج معطياً الانطباع بأن مجموعات النجوم «تنزلق القهقرى» (مبادرة الاعتدالين)، وجالباً، من جهة أخرى، كوكبة من النجوم جديدة في دائرة البروج خلف الشمس في اعتدال الربيع (والخريف) كل ألفيّ سنة تقريباً في أثناء دورة واسعة من ٢٦ ألف سنة. وقد دخلت مثل هذه المعطيات، بالفعل، في شكل الهرم الداخلي. ومع ذلك، لم يسع المهندسين المعماريين أن يرصدوا النجوم طوال ألفين ومئتي سنة! ولا ننسَ أنه قبل بضعة قرون، وحسب، من بناء

الأهرام، لم يكن المصريون قط بعد غير قبائل بدائية منتشرة على طول نهر النيل.

وينبغي الانتظار بعد قروناً عدة إثر بناء الأهرام لكي تغدو حضارات أخرى قادرة على حساب محيط دائرة الأرض، والوقت الذي تستغرقه لكي تجوب مدارها. وإنه ليتضح أكثر فأكثر أمام عينيّ أن رسل حضارة أقدم كثيراً حملوا إلى المصريين معارف في الفلك والرياضيات.

وإذا صحّت هذه الفرضية، فقد يكون القدامى فكّروا في أنه من أجل تأمين بقاء هذه المعارف ينبغي حفظها بشكل سجلات ووثائق هائلة جداً بحيث تكون، عملياً، غير قابلة للتدمير. وحمل **الهرم الكبير** الجواب عن هذه المتطلبات.

ليس بالوسع، حقاً، تقدير ضخامة «جبل سرڤان»(٢) من حيث العمارة، أو البناء ما لم يرتقه المرء حتى القمة على طول الجانب الشمالي، الجليلة على الرغم من حالتها التالفة. إن الدرجات ضيّقة، وعرضها أقلّ من أربعين سنتيمتراً، ولكي لا تنسّق شيئاً، هي بارتفاع متر تقريباً، أي أنها أكثر من بضعة سنتيمترات بالنسبة إلى سيقان ورُكَب متوسطة الطول.

ولا عجب إذاً، إن أنا شعرت في آن معاً أنني محنّك ومنتصر بوقوفي للمرة الأُولى على قمة هذا النصب، على ارتفاع ١٣٣ متراً فوق الصحراء. ولمّا كانت الكتل الحجرية التي كانت تؤلف القمة قد اختفت اليوم، أُلفي نفسي فوق منصّة يبلغ طول جانبها عشرة أمتار تقريباً، من حيث أُشرف على **الهرم الثاني**، ضريح الفرعون **خفرع**.

كان القدامى يعتبرون أن **الهرم الكبير**، كان الأكبر من بين عجائب الدنيا السبع، من حيث حجمه وأناقة نِسَبِه. غير أن الداخل بممراته، ومجازاته، وقنوات التهوية فيه، والقاعة الكبرى، والغرفة الملكية إنما تمثّل جميعاً آية هندسية معمارية لا تقلّ شأناً مطلقاً.

ومثلي كمثل الآلاف من السيّاح قبلي، أتبع دليلاً على طول الممر الذي يهبط زهاء عشرين متراً حتى الضريح (القبر الضخم)، الذي نجتازه ونحن نزحف على أربع قبل أن نتسلّق بشكل أقعى قرابة مئة درجة تقود إلى صميم الهرم نفسه. وأجد نفسي في **الغرفة الكبرى**، وهي قاعة طولها خمسون متراً، وترتفع أكثر من تسعة أمتار. وأجتاز غرفة انتظار، وأبلغ سرداب الدفن الجنائزي، على ارتفاع أربعين متراً من مستوى الأرض، ذا الجدران الصوّانية.

كان ينبغي أن يتمتع المهندسون المعماريون بمعارف متقدمة على نحو كافٍ لكي يوفّروا فسحات داخلية قادرة على تحمُّل ثقل الحجر الذي يعلوها. وهكذا، فإن سقف **الرواق الكبير**، مثبّت بدعامات بكل عناية. (إنه كناية عن مجاز طويل، ضيّق يؤدي إلى غرفة الانتظار في **الغرفة الملكية**).

إن هذه الغرفة كان يمكن أن تكون استخدمت مقراباً (تلسكوباً) أو راصدة ذات هاجرة (خط نصف النهار) ثابتة. وكان بوسع سلسلة من المراقبين أو الراصدين القائمين على طول منحدر المجاز أن يرصدوا بدقة مرور الأجرام السماوية بالكيفية نفسها التي يضبط بها الفلكي الحديث جهازه على هاجرة عمودية. وبتطلُّعه إلى عمق المجاز في حوض الانعكاس، كان بوسع الفلكي المصري أن يرى اللحظة الدقيقة التي مرّت بها نجمة ما. إن مرصد البحرية الأميركية يستخدم اليوم المبدأ نفسه. يلحظون ويدوّنون حتى كَسْرٍ من الثانية تقريباً مرور النجوم اليومي بوساطة انعكاسها في حوض من الزئبق.

وإذا ما أخذنا بأقوال رتشادر پروكتور، الفلكي والكاتب البريطاني، فقد كان **الرواق الكبير** «المرصد الأكثر إتقاناً الذي تمَّ إبداعه قبل أن تتيح تقنية المقراب الرصد بدقة لا تحتاج إلى وجود بنيات بمثل هذه الضخامة». وبفضل **الرواق الكبير**، ربما وضعوا خريطة منظومتنا الشمسية وفقاً للمبدإ الشمسي المركزي (المتعلق بالشمس باعتبارها مركزاً)، قبل بضعة آلاف من السنين قبل الفلكي الپولوني كوپرنيكوس (١٤٧٣ ــ ١٥٤٣).

يشمل تخطيط الهرم الداخلي غرفتين جنائزيتين اثنتين بقيتا غير منجزتين. . . لماذا؟

يفترض الأركيولوجيّون أن الفرعون خوفو ربما بدّل رأيه. ويُعتقد عادة أن الفرعون كان قد توقّع في الأصل هرماً أصغر، تكون الغرفة الجنائزية فيه قائمة تحت مستوى الأرض، في القاعدة الصخرية التي سيقوم عليها الهرم. ثم إنه مع مساعده الطموح، عمل على تكبير مخطط الضريح مرتين اثنتين، رافعاً في كل مرة موضع سرداب الدفن داخل الهرم. غير أن هذه الحكاية لا تفسّر في شيء لماذا تنسخ قياسات الهرم على شكل منمنم قياسات الكوكب، وترمز إلى دوران النجوم.

ليس العلماء، من جهتم، مستعدين بعد للاعتقاد بأن غاية غامضة، وغريبة، ومجهولة قد سيطرت على بناء الغرفتين غير المفيدتين. (كما أنهم يرفضون فكرة أن الهرم يُخفي في جدرانه جهازاً مجهولاً هو كناية عن جهاز مرسل أو لاقط (مستقبل) قادر على تعطيل عدّاد الشعاعات الكونية التي قال بها الدكتورألڤاريز).

مهما يكن من أمر، فإن **الغرفة الملكية** يعلوها سقف جدّ مرتفع، مؤلف من ست صفائح من الصوّان هائلة، توفّر خمس عيون أو خانات مخصصة لتخفيض الضغط. وهناك نقّاد يذهبون إلى أن مهندسي مصر القديمة المعماريين المهرة قد غالوا في تقدير قوى الضغط، وأن تجويفاً واحداً كان كافياً لتخفيض الضغط الممارَس من أعلى إلى أسفل. ولست أعتقد أن بناة الأهرام كانوا كُلّيي العلم، غير أنني أحرص على ملاحظة أننا في عصرنا، عصر الرافدات الصغيرة المحلَّلة إلكترونياً، غالباً ما ننزع إلى نسيان أن المهندسين المعماريين، لبضع عشرات من السنين، كانوا يبنون بعامل أمان هو خمسة، أو ثمانية أو حتى اثني عشر. . .

لدى وفاة خوفو، تمّ تحنيط جثمانه، ووضعت مومياؤه، ولا ريب، في نعش من خشب. ثم إنهم نقلوا نعشه في ما بعد، على طول المجاز الصاعد، ومن **الرواق الكبير** حتى **الغرفة الملكية**. هناك، وُضع النعش في

ناووس بسيط من الصوان، كان قد بُني في الوقت نفسه الذي بُني فيه الهرم، لأنه أكبر قليلاً من أن يمرّ في المجاز الضيّق الذي يؤدي إلى الغرفة الجنائزية. ووُضع على الناووس غطاء حجري ثقيل بوساطة أوتاد حجرية... للخلود، بحسب الاعتقاد.

ولدى الخروج، أزاح العمّال بحذر عدداً من الدعامات كانت في غرفة الانتظار: ثلاث كتل ضخمة تحطمت أرضاً، فسدّت المدخل.

ثم إنهم زلقوا كتلاً حجرية من **الرواق الكبير** على طول المجاز الصاعد. فسدّت الكتل هكذا المجاز بدورها. ثم إن الرجال غادروا الرواق من طريق بئر، وصعدوا ثانية على طول المجاز الهابط. وقد أفسدت هذه الاحتياطات الخارجة على المألوف مشاريع النهّابين الأكثر مهارة، الذين يسطون على الأضرحة، على الأقلّ، مدة أربعة قرون.

ولكن، تبقى أُحجية. لمّا حفر رجال الخليفة المأمون مدخلاً، وشقّوا لأنفسهم طريقاً حتى **الغرفة الملكية** لكي لا يعثروا على أي شيء، افترض الاختصاصيون أن لصوصاً نجحوا في دخول الهرم وأنهم حملوا المومياء، وكذلك غنائم كثيرة. (لماذا يسرقون مومياء؟). من جهة أخرى، إذا كان **الهرم الكبير** لم يُصمَّم قط لكي يكون ضريحاً، ولم يكن قط كذلك، فينبغي، ربما، إزالة فرضية اللصوص. ولكن، إذاً، من أشرف على بنائه؟ ولماذا سُدَّ؟ إن حيرتي لهي كبيرة!

في القرن التاسع عشر، وبينما كانت نظرية التطور التي طلع بها العالم البريطاني تشارلز داروين(١٨١٢ ـ ١٨٧٠) تواجه العلم بالدين، تساءل الكثيرون بشغف عن مبرر وجود **الهرم الكبير**. واعتقد مفسّرو (= مؤولو) الكتاب المقدس أنهم يرون في ذلك كل أنواع المعاني. وانكبّ أنصار علوم السحر والتنجيم على القياسات الداخلية، واستخلصوا منها أنه إذا تأملنا قياساً اصطلاحياً يدعى «وحدة هرمية»، تمثّل سنة واحدة، فإن الرواق الكبير، بسذاجته وعريه، يتصدّر جميع التواريخ المهمة في تاريخ البشرية.

حسبت مجموعة أولى تنتمي إلى هذه الفئة من المتحمسين هكذا أن أُعجوبة كبيرة شبيهة بمجيء ثانٍ للسيد المسيح، ستحدث في سنة ١٨٨١. ولمّا لم يجرِ شيء من ذلك في سنة ١٨٨١، ذرعت مجموعة أخرى الممرّات أو المسالك القائمة تحت الأرض، وأخرجت منها نبوءة جديدة: ستنشب حرب في سنة ١٩٢٨، وسيعود السيد المسيح إلى الأرض سنة ١٩٣٦.

وبعد سنة ١٩٣٦، قام عشاق الهرم، وهم أبعد ما يكونون عن أن تثبّط همّتهم، مجدداً بحساباتهم، وعدّلوا تنبؤاتهم. في هذه المرة، أعلنوا أن حدثاً خارقاً للطبيعة سيحدث سنة ١٩٥٣. فلما انقضت هذه السنة بهدوء، بالحري، حقَّ لهم القيام بكثير من التكهنات الخيالية القائمة على حسابات هي غير مؤكدة نوعاً ما، بحيث حدث نوع من ظاهرة الرفض. وتحوّل الرأي العامّ المثقف عن الموضوع، تاركاً إياه لصحف الإثارة.

تؤيدني زياراتي الشخصية للهرم، وإن لم تعنِ كثيراً جداً، مع ذلك، في فكرة أن أناساً أذكياء أقبلوا من الفضاء قد يكونون تسلّموا تماماً، بين وقت وآخر، أمر تطوير البشرية. وأكثر من أي وقت مضى، أقول، بيني وبين نفسي، إن الأهرام ما فتئت، من دون أي ريب، تدهشنا.

أَنا أفكّر في العدد الذي لا يُعَدّ ولا يحصى من المعلومات التي لا ينبغي أن تستطيع إخفاء آلاف الحروف الهيروغليفية، والكتابات المسمارية الراقدة في دُور كتبنا ومتاحفنا بانتظار أن نتفضل بفك رموزها. غير أن العلماء يُبدون، على نحو جليّ، نفوراً من دراسة ـ إن لم نقل تحليل ـ الأدلة على أن حالة من المعارف المتقدمة جداً بالنسبة إلى العصر قد أشرفت على بناء **الهرم الكبير** في الجيزة.

وأُفكر في الأهرام الأخرى التي تنتشر في العالم. فمنذ زمن پتري، كان يُعتقد أن أهرام مصر هي فريدة في نوعها في العالم. ولكن اكتُشف في ما بعد أن هناك منها في الشرق، وفي الجزر البريطانية، وفي أميركا اللاتينية، وفي أميركا الشمالية. هل أن ثمة علاقة في ما بينها؟

في حوالى سنة ١٩٢٠، أطلقت جماعة من الانثروپولوجيين الهواة سُمّيت في ما بعد باسم «جماعة المشيِّعين» الرأي القائل إن جميع الحضارات تعود إلى مصر. وإذا أخذنا برأي العالم التشريحي البريطاني السير غرافتون إليوت سميث، فإن رئيس «المشيِّعين» كان ذهب إلى بلاد ما بين النهرين حيث يقال إنه بنى - أو بالحري، تعلّم أن يبني للمواطنين الأصيلين - الزِقُّرات الأولى (الزِقُّرَة: برج ديني من عدة طوابق في بلاد ما بين النهرين)، محاكاة لأهرام مصر. وهناك مصري آخر، على ما يقال، قام بالعمل عينه في كمبوديا؛ وقام آخرون ببناء الزِقُّرات كذلك في أميركا الوسطى حيث اكتشفوا الأمبراطوريات المنسية التي سبقت حضارتيّ الآزتيك والمايا.

من يدري؟ ولكن ليس ممنوعاً البتة أيضاً الاعتقاد بأن الأهرام أُبدعت بطريقة مستقلة، يبدو أنها عرفت استعمالات متنوعة بحسب الحضارات، والهندسة المعمارية فيها مختلفة.

فالزقُّرات الأشورية، مثلاً، وهي معابد على شكل جبال، كانت تتألف من شرفات تضيق أكثر فأكثر تحيط بجوانب الهرم الأربعة لولبياً من القاعدة حتى القمة. وفي القمة، كان معبد يُستخدم في آن معاً كمقدس أو مزار، وكمرصد. وكانت كل المدن السومرية، وفي ما بعد، مدن بابل، تضم زِقرة داخل المدينة. ويعتقد الكهنة، على ما يبدو، أن علو الزقُّرات كان يتيح للآلهة أن تسمع صلواتهم.

في كثير من البلدان، لا تتميّز الأهرام بأحجامها الهائلة. ففي أميركا، كان أكبر مبنى موجود قبل بناء ناطحات السحب في مانهاتان، معبداً من معابد المايا يُعرف اليوم باسم «تيكال - ٤»، لا يرتفع إلاّ سبعين متراً، وحسب. ومن جهة أخرى، إنه يشبه برجاً أكثر منه هرماً. وكان يعلوه أيضاً مزار، وليست تلك الحال مطلقاً بالنسبة إلى أهرام مصر.

إن لديّ الانطباع بأن الأهرام التولتيكية هي ربما، الأكثر إثارة وأهمية من بين كل أهرام العالم الجديد. وها أنذا مستغرق في دراسة النصوص التي يُحتمل أن تطلعني بعد أكثر عليها.

إن أعمدتها الأُحادية الحجر (= المتراصة) تحملني على التفكير في جذوع أشجار عملاقة. وبعضها محيط دائرته يناهز العشرة أمتار ـ بوسع اثني عشر رجلاً الاختباء وراء واحد منها ـ ويتجاوز ارتفاعها العشرين متراً. أما تيجان الأعمدة التي تعلوها، فهي من الضخامة بحيث يستطيع مئة رجل الوقوف فوقها. ويبلغ ارتفاع سائر الأعمدة أربعة عشر متراً.

ليست الردهة المعمّدة، بأعمدتها المئة والستة والثلاثين الهائلة، سوى القسم الأوسط لمجموعة من المباني تغطي مساحة تفوق نصف مانهاتان، في نيويورك. وهناك أمكنة في السور تكفي لإيواء كل من كاتدرائية القديس بطرس في روما، وكاتدرائية ميلانو، وكاتدرائية نوتردام في باريس. وتحيط بمعبد الكرنك أفنية، وجادّات تحفّ بها تماثيل لأبي الهول، ومسلّات، وتماثيل. إن عشر كاتدرائيات يمكن أن تقوم بكل يسر في داخل السور الخارجي.

بعد بناء المجمّع الهندسي المعماري الأضخم في كل العصور، بعشرين سنة «بالكاد»، دمّر المصريون أنفسهم جزءاً كبيراً منه. ويجهد أركيولوجيون حديثون، منذ سنين، في إعادة بنائه حجراً حجراً، متصدّين لأحد أصعب التحديات في ميدان المصريّات.

وإنه لتحدٍّ آخر، بالنسبة إليّ، أَقبله وأتصدّى له.

لقد وضعتُ نصب عينيّ هدفاً، هو اكتشاف حياة ذاك الذي أسهم إسهاماً كبيراً في بناء الكرنك، والذي أطلق ثورة دينية قلبت رأساً على عقب، وبعمق، الصرح الأمبراطوري المصري: **الفرعون أخناتون**.

يصفه الأركيولوجي والمؤرخ الأميركي الشهير دجيمس بريستد(1) بأنه «المثاليّ الأول في العالم... والموحِّد الأول، ونبيّ الدولانية الأول (الدولانية: مذهب يسمو إلى تجاوز حدود الدول وإقامة اتحاد بين الشعوب والأُمم)؛ والشخصية الأروع في العالم القديم، قبل العبرانيين.».

مخروطيّ الشكل في جزر أُوركني)[٣]، طوله ثمانية عشر متراً، يعطي الاتجاه لحجر ضخم يشير إلى المدار الصيفي (انقلاب الشمس الصيفي).

ومن بين النقاط المشتركة في ما بين مختلف الأهرام، سنلاحظ أيضاً وجود سلّم مركزي. ستقولون لي إنه أمر منطقي جداً أن يوجد سلّم للصعود إلى قمة أنصاب في مثل هذا الحجم. غير أنه ربما كان هناك سبب آخر. إن السلّم يمكن استخدامه كخط هاجرة ثابت لرصد النجوم.

ولكن ماذا يمنح منذ البداية الأهرام مثل هذه القوة السحرية؟ الجبل الذي تذكّر به، والذي يجذب الأنبياء منذ أقدم العصور؟ هل هو شكلها في حدّ ذاته الذي يبدو أنه يعانق الكون؟ هل لأنها تشبه سلالم جليلة وفخمة ترتفع حتى أعلى السموات؟ أَم هل أن الكوى المُحْدَثة في أسوارها الحجرية سمحت للبشر بدراسة الأجرام السماوية؟

لقد اكتسبتُ على الأقلّ، يقيناً: صلة النسب في ما بين حضارات شعوب المايا، والآزتيك، والتولتيك. إن في أهرامها جميعاً، في الواقع، سلّماً يؤدي إلى قمة مسطحة. وهي جميعاً موجّهة وفقاً لخطوط الرصد الفلكي، وتتطابق مع تقويم دوريّ موضوع لمدى طويل.

بعد قولي كل ذلك، أنا لست متقدماً البتة. فإذا لم يحدث في أثناء بحوثي، ما يهدم فرضياتي المتعلّقة بمرور كائنات عطوف على الأرض، آتية من مكان آخر، فإن أيّ نظرة شاملة على الانتشار الذي كان يمكن أن يكون قد حدث انطلاقاً من بوغ مفرد، لم ترَ النور بعد. بوسعنا دوماً أن نرسم نظريات، فلن نعرف، ربما، المزيد عن ذلك مطلقاً.

هوامش المترجم

(١) **جيرارت مركاتور**، واسمه الأصلي جيرارت كريمر (١٥١٢ ـ ١٥٩٤)، هو عالم بالرياضيات وجغرافي فلمندي، أعطى اسمه لنظام إسقاط تكون فيه خطوط الطول

ممثّلة بخطوط مستقيمة متساوية البعد [من نقطة معينة] ودرجات الارتفاع بخطوط مستقيمة متوازية عمودياً بالنسبة إلى الهاجرة [خط نصف النهار].

(٢) **جبل سرڤان**: بالألمانية «ماترهورن»، وهو قمة في سلسلة جبال الألپ، ما بين الڤالية والپييمون، مطلة على وادي زرمات؛ ارتفاعها ٤٤٧٨ متراً، وقد تسلّقها سنة ١٨٦٥ متسلّق الجبال الانكليزي ادوارد ومپر (١٨٤٠ ــ ١٩١١) وكان أول تسلُّق للقمة هذه.

(٣) **جزر أوركني**: أرخبيل بريطاني، شمالي اسكتلندا، يتألف من ٩٠ جزيرة، أكبرها هي جزيرة مينلاند. ويبلغ عدد السكان فيها ١٨ ألف نسمة يعيشون على تربية الماشية والصيد.

١١

ملحد في الكرنك

على ضفة نهر النيل اليمنى، في الكرنك، ينتصب معبد خارق. بُني لثلاثة وثلاثين قرناً خلت، ويبقى النصب الديني الأكثر اتساعاً في العالم.

وإذا كنت أُقرّر رؤيته، فلأن تاريخه يرتبط ارتباطاً جدّ وثيق بتاريخ رجل يبدو، بعد إمحوتب بـ ١٢٧٠ سنة، أنه حظي بنفوذ عظيم يكاد يعادل نفوذه.

ولست مخيَّب الظن. ان مجمل معبد الكرنك يُثبت، وحده ـ بكيفية تختلف عن الأهرام في قرون سابقة ـ أن المصريين كانوا أكبر البناة في جميع الأزمنة.

إن الردهة المعمَّدة (= المرتكز سقفها على أعمدة) هي الجزء الأشهر منه. فلسنا نجد في أي معبد آخر في العالم ردهة بهذا الاتساع. وبمساحة الخمسة آلاف متر مربع التي تقوم عليها، تبلغ تقريباً مساحة إحدى أكبر الكاتدرائيات في أوروبا القرون الوسطى، كاتدرائية كانتربري، في انكلترا.

إن أعمدتها الأُحادية الحجر (= المتراصة) تحملني على التفكير في جذوع أشجار عملاقة. وبعضها محيط دائرته يناهز العشرة أمتار - بوسع اثني عشر رجلاً الاختباء وراء واحد منها - ويتجاوز ارتفاعها العشرين متراً. أما تيجان الأعمدة التي تعلوها، فهي من الضخامة بحيث يستطيع مئة رجل الوقوف فوقها. ويبلغ ارتفاع سائر الأعمدة أربعة عشر متراً.

ليست الردهة المعمّدة، بأعمدتها المئة والستة والثلاثين الهائلة، سوى القسم الأوسط لمجموعة من المباني تغطي مساحة تفوق نصف مانهاتان، في نيويورك. وهناك أمكنة في السور تكفي لإيواء كل من كاتدرائية القديس بطرس في روما، وكاتدرائية ميلانو، وكاتدرائية نوتردام في باريس. وتحيط بمعبد الكرنك أَفنية، وجادّات تحفّ بها تماثيل لأبي الهول، ومسلّات، وتماثيل. إن عشر كاتدرائيات يمكن أن تقوم بكل يسر في داخل السور الخارجي.

بعد بناء المجمّع الهندسي المعماري الأضخم في كل العصور، بعشرين سنة «بالكاد»، دمّر المصريون أنفسهم جزءاً كبيراً منه. ويجهد أركيولوجيون حديثون، منذ سنين، في إعادة بنائه حجراً حجراً، متصدّين لأحد أصعب التحديات في ميدان المصريّات.

وإنه لتحدٍّ آخر، بالنسبة إليّ، أَقبله وأتصدّى له.

لقد وضعتُ نصب عينيّ هدفاً، هو اكتشاف حياة ذاك الذي أسهم إسهاماً كبيراً في بناء الكرنك، والذي أطلق ثورة دينية قلبت رأساً على عقب، وبعمق، الصرح الأمبراطوري المصري: **الفرعون أخناتون**.

يصفه الأركيولوجي والمؤرخ الأميركي الشهير دجيمس بريستد[1] بأنه «المثاليّ الأول في العالم... والموحِّد الأول، ونبيّ الدولانية الأول (الدولانية: مذهب يسمو إلى تجاوز حدود الدول وإقامة اتحاد بين الشعوب والأُمم)؛ والشخصية الأروع في العالم القديم، قبل العبرانيين.».

لقد قطع كل علاقة مع ألف سنة من التقاليد والخرافات، وحكم طوال سنوات قصار مملكة انقطعت للسلام، والحب، والجمال. وإني لأتساءل مرة أخرى كذلك، عمّا إذا لم يكن فرعونها الثوري مرشَداً بذكاء أقدم من الإنسانية، فمَثّلهُ في ذلك كمثّل إمحوتب، وتوت الأسطوري.

كانت مصر أخناتون جد مختلفة عن مصر إمحوتب وبناة الأهرام. لما ارتقى عرش الفراعنة سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد، وهو في نحو الخامسة عشرة من سنيّه، ألفى نفسه على رأس أمبراطورية كانت تمتدّ من إثيوبيا إلى نهر الفرات. وقد اغتنت البلاد كثيراً بفضل قبائل آسيا والتجارة في حوض البحر المتوسط. وقد أفسح لباس المصريين الأنيق ببساطته في المجال، في مختلف فئات السكان، لميل غريب إلى الترف والبذخ. لم يكن هناك تاجر لم يكن يمتلك ختمه الذهبي أو الفضي. كان جميع الرجال يضعون في أصابعهم خاتماً على الأقلّ، وجميع النساء كنّ يتزيّنّ بسلاسل ذهبية، يبلغ طول الواحدة منها أحياناً متراً ونصف المتر. وكان جميع الرجال، والنساء، وحتى المراهقون يتحلّون بأقراط للأذنين ثقيلة، ودمالج، وجواهر معلقة بسلاسل تُلبس في العنق، وعقود من الحجارة الكريمة.

كانت طِيبة، العاصمة، في ذروة روعتها. وكانت شوارعها تغصّ بالتجار الذين كانت مناضد بضائعهم تعجّ بمنتجات العالم أجمع. . . وكانت مبانيها «تتجاوز بسخائها جميع مباني العواصم القديمة أو الحديثة.» وكانت معابدها المتعاظمة تنوء تحت ثقل التقديمات والتبرّعات. وفي الكرنك، كان يُقام المتنزَّه السلطاني وقاعة الحفلات والأعياد لتمجيد الفرعون، والآلهة.

لم يعد الكهنة البحّاثة الكبار. لم يعودوا مطلقاً غير التوابع الملزمين للعرش، وكانوا يقومون بمهمة الشرطة السرية. وفي الواقع، وإن لم يكن قانوناً، كانت وظيفة الكاهن تنتقل من بعد من الأب إلى الابن، بحيث ان الكهنة انتموا إلى تشكيل طبقة أغنى وأقوى نفوذاً من الأرستقراطية الاقطاعية والأسرة المالكة نفسها. وكانت الأضاحي والقرابين التي تقدّم إلى الآلهة توّفر

للكهنة المشرب والمأكل. وكانت عائدات الأراضي المخصّصة للآلهة تدرّ عليهم أموالاً كثيرة.

هذه كانت لوحة مصر على زمن سطوعها، قبل قليل من انحطاطها. وأخيراً قدّر الأمبراطور أنها إنما تضلّ.

ارتقى العرش باسم أمينوفيس الرابع، أمون، سيّد الكرنك، إله الآلهة، الذي يشاء التقليد أن يكون الفراعنة ابناءَها. وكان جَدّ الفرعون الشاب الأكبر أمينوفيس الثاني، قد ضحّى للإله أمون، بيده شخصياً، بستة ملوك أَسرى. وكانوا يختارون دوماً الابنة الأجمل من أُسر طِيبة النبيلة لتضحيتها على مذبح أمون (الأمر الذي يعني، ربما، أنهم كانوا يسلّمونها إلى الكهنة).

غير أن فرعوننا لم يشأ أن يسمع أي حديث عن أمون، الذي كان اسمه يعني «[الإله] المحجوب». وكان يودّ وضع حدّ لفساد رجال الدين. فقرَّر، إذاً، إلغاء عبادة أمون، وجميع الآلهة والإلاهات في مصر. وأمر بإقفال المزارات المكرّسة لهيكت، الإلآهة الضفدع، وأُوادجيت، الإلهة كوبرا، ونخبت، الإله النسر، وتوركت، أُنثى البرنيق (أو فرس البحر) الحامل التي تسهر على عمليات الوضع. وليسقط الإله ـ قرد، والإله ـ ابن آوى، والإله القمري، وآلهة النبات، والريح، والآلهة البشرية، وكل الآلهة التي لا تعدّ ولا تحصى!

ورسم أنه لم يعد مسموحاً من ذلك الوقت وصاعداً غير عبادة إله واحد هو أتون، الذي حُفر رمزه على أفاريز كلسية: قرص تشعّ منه إلى أسفل شعاعات تنتهي بأيدٍ صغيرة.

ووفقاً للأسطورة، يمثّل القرص القرص الشمسي، وهذه هي الترجمة التي نجدها في كل النصوص التي تتعلّق بذلك. ولكن، بينما أنا أتفحّص القرص والأيدي في أطراف الشعاعات، أتساءل على الرغم مني عمّا إذا لم يكن بالامكان رؤية معنى مزدوج. وعما إذا لم يكن لدينا هناك: مركبة فضائية على صورة قرص ينقل كائنات ذات أيدٍ مسعفة، موزّعة الطاقة؟

وأبقى مقتنعاً بأن المصريين، لأسباب مختلفة، تساءَلوا هم أيضاً بصدد أتون، لماذا كانوا بحاجة إلى أتون؟ فأمون، بحسب أقوال الكهنة، كان ما يزال إلٰه الشمس. وكان لديهم الإله رَعْ، وهو إله الشمس أيضاً، وكانت عاصمته هيليوپوليس؟ الإلاهان كانا أحياناً ممزوجين في إله واحد: أمون ـ رعْ. فإذا كان هذا الفرعون عدو التقاليد، يتمنّى أن يعبد الجميع الشمس، فلماذا اختار إلهاً جديداً؟

غير أن جميع هذه الأسئلة لم تبلغ قط، من دون أي شك، مسامع الفرعون الذي واصل ببهجة إزالة كل العبادات القديمة.

وفي خلال السنة السادسة من حكمة، اتّخذ اسم **أخناتون**، «ذاك الذي يخدم أتون» أو «أتون راضٍ». وكان فكره يعجّ بالأفكار الجديدة، وفي ما بعد، سنرى في أفكاره مساهمات مبتكرة وأصيلة بالنسبة إلى إدراك الإنسانية. وفكرة أن الشمس هي مصدر الحياة والطاقة لم تكن سوى التعبير الديني لما سيُعترف به في ما بعد كحقيقة علمية.

وقد نظم نشيداً لأتون. يحملني غموضه على التفكير في أنه ربما كان لدى أخناتون بعض الأفكار عن المركبات الفضائية، والـ «**پنسپرميا**»، والقوى الغريبة المبدعة التي كانوا يعزونها إلى إله تياهواناكو:

يا أتون الحيّ، بدءُ الحياة،

خالق الجرثوم في المرأة،

خالق المني في الرجل،

أنت يا من تهب الذين تخلقهم النَفَس

لكم هي متنوعة أعمالك!

إنها محجوبة عن عيوننا،

أيها الإله الأوحد، يا من لا يمتلك أحد سواك القوة

جميع الذين في السماء،
الذين يحلّقون بأجنحتهم،
لكم هي ممتازة تدابيرك،
يا سيد الأبدية!
هناك نهر نيل في السماء من أجل الغرباء
ولماشية جميع الأُمم...
أنت تظهر متلألئاً، تبتعد ثمّ تعود...
أنت تخلق ملايين الأشكال
بقدرتك وحدها...
خلقت البلدان الغريبة وكذلك أرض مصر.
وضعت كل شخص في مكانه.
البشر يتكلّمون لغات عديدة بالجسد وباللون، إنهم متنوعون،
ذلك بأنك ميّزت ما بين الشعوب والشعوب...
لا أحد يعرفك..
غير ابنك أخناتون.
أنت منحته الحكمة
بتدابيرك وبقوّتك...

بقدر ما نعلم اليوم، كان ذلك أول تعبير عن التوحيد، قبل أشعيا بسبعمئة سنة. إن المزمور ١٠٤، من جهة أخرى، يفسّر غالباً نشيد أخناتون الكبير. ولكن كيف اتصل بصاحب المزمور خبر النشيد، لا يسع أحداً أن يدري.

قبل الأمبراطور أكبر في الهند، بثلاثين قرناً، كان أخناتون يرى في الشمس، مصدر النور والحياة، وكان يعتبر البشرية أخوية واحدة ومفردة. وفي نظره، كانت الأمم متساوية أمام إله أوحد حتى إنه ذهب إلى إحلال بلدان أخرى قبل بلده تحت حماية أتون. يا له من تقدّم لافت ورائع بالنسبة إلى الآلهة المتعصبة، والضيّقة التفكير، والمنتقمة!

إذا كانت كائنات من عالم آخر قد ألهمت، بالفعل، أخناتون، فإنها كانت تعرف أقلّ عن الطبيعة البشرية منها في مجال الفنون والعلوم. كانت تلك واحدة من مآسي التاريخ. فأخناتون، متخيّل الوحدة العالمية، لم يكتفِ بترك نبالة ديانته تغزو ببطء قلب البشر.

فبجرأة الشاعر، رفض كل تسوية، وحاول أن يفرض بالقانون عبادة أتون فأعلن أن عبادة الأوثان يجب أن تبطل. وحظر كل تمثيل للإله الجديد على شكل بشري أو حيوانيّ (هل أنه كان يرفض بذلك أن يماثَل بأحد ما؟)، وحظر إفساده بالشعوذات والرقى والتعاويذ.

وأُعلنت كل سائر الديانات غير قانونية، وصدر الأمر مجدداً بإقفال كل المعابد القديمة. ولكي يستبدلها، أوعز ببناء معبد **أتون** الكبير في الكرنك، في الهواء الطلق، وقد أقام حوله سبعة وعشرين تمثالاً أكبر من الحجم الطبيعي على صورته، وببعض الذهول ألاحظ أن امرأً بمثل ورعه وتقواه يمكن أن يكون محبّاً لشخصه أو صورته.

ولكن لعله كان يعتقد بأن إخلاص شعبه حيال فراعنته، سيسهم في إرساء الدين الجديد، وأن التماثيل تشير إلى إخلاصه الشخصي.

كانت تلك غلطة، وقد ارتكب غلطة أخرى هي أسوأ أكثر بعد. لقد أصدر الأمر بمحو كل الآلهة من على النقوش العامة عبر مصر بأسرها، لكي لا يدع مجالاً إلاّ لبقاء اسماء **أتون**. وقد شوّه حتى اسم والده على مئات من الأنصاب بإزالة اسم **أمون**.

كان في ذلك إفراط. فاعتبر رعاياه عمله تجديفياً. فقد كانت عبادة الموتى مقدّسة. لقد غالى في تقدير استعداد شعبه للارتفاع فوق الخرافة.

غير أنه على النقيض، قدّر بأقل من الحقيقة قوة الكهنة، وتصلّبهم، وعنادهم. فمنذ أكثر من ألف سنة، وهم يكنزون الثروات، ويبسطون نفوذهم. ومنذ السلالة الخامسة، كان الفراعنة يُعفون الكهنة من إعارة خدمهم للقيام بالأشغال العامة. ثم إنه لم تكن تبرز مسألة تسديدهم جزءاً من دخولهم إلى الصناديق العامة. وكان الاقتصاد الوطني يعاني الأمرّين من هذه الامتيازات التي كانت تحرم الخزينة القومية من ثروات كان بوسع الحكومات استخدامها من أجل رفاه الشعب. وسيأتي وقت لن تعود البلاد من الغنى بحيث يسعها إعالة سكانها.

مع الإعفاء من الضرائب، كانت بداية إثراء الكهنة. وفي أثناء الفتوحات المصرية، اختصوا أنفسهم بجزء كبير من الغنائم بفضل الاتاوات التي كانت تقدَّم إلى الآلهة لشكرها على النصر. فلما وصل أخناتون إلى السلطة، أصبح الكهنة الأشخاص الأكثر غنىً والأكثر نفوذاً في جميع أرجاء مصر، وكانت سلطتهم تعادل تقريباً سلطة الفرعون نفسه.

وكان أقوى الجميع طرّاً كهنة أمون، في طِيبة. وكان كاهن أمون الكبير يمتلك العقارات الأوسع في العالم القديم؛ وقدّر البعض أن مساحة أراضيه تمثل ٣٠ بالمئة من مجموع مساحة مصر.

وكان للكهنوت أيضاً نفوذ كبير على الشعب. إن مليوناً من المواطنين الفخورين بأمتهم كانوا يعتقدون أنهم يدينون بتوسع الأمبراطورية المصرية لتعدُّد الآلهة، وللكهنة الذين جعلوهم مفضلين، ومحظوظين. وكذلك كان الشخص العادي يُشرك الآلهة في حياته اليومية. وكان الكهنة يبيعون التعاويذ والطلاسم، ويتمتمون بالرُقى والتعزيمات، ويقيمون الشعائر السحرية لقاء المال. ولدى كل خطوة، كان المصريّ الورع يتمتم بصيغ غريبة لكي يتقي الشر ويجتذب الحظ السعيد. وكان يجب وجود إله واحد أو إلهين اثنين لدى

كل باب لطرد الأرواح الشريرة والخبيثة، وتأمين المرور دونما أي معارضة عنيفة أو صدمة إلى الحياة الثانية (= الآخرة).

في كتابه «**العصور القديمة: تاريخ العالم المبكر**»، يكتب المؤرخ دجيمس بريستد: «وهكذا، فإن أول تطور أخلاقي نستطيع أن نرسمه لدى الشرقيين القدامى أُوقف على حين غرّة، أو على الأقلّ، كُبح بمناورات كهنوت بغيضة وساذجة.».

كان أخناتون، بحجة الاصلاح الديني، يتمنّى ظاهرياً، تنفيذ إصلاحات اجتماعية. هل أنه أُلهم بوساطة رؤيا، على غرار الأنبياء الآخرين؟ أم هل أن عقيدته الجديدة كانت نتيجة عمل باهر فكريّ شخصيّ؟

برفقة زوجته الشابة، الملكة **نفرتيتي** ذات الجمال الأسطوري، التي كانت تجاهر بحماسة بإيمان زوجها، غادر العاصمة طِيبة الخاطئة، وهبط النيل لكي يذهب إلى حيث يؤسس عاصمته الجديدة، تمجيداً للإله **أمون**. وفي منتصف الطريق إلى ممفيس، اكتشفا موقعاً على الضفة اليسرى من النيل، حيث يبتعد الشاطىء الصخري عن النهر، مطوّقاً هلالاً من الصحراء. وحدها بعض بيوت الفلاحين كانت تنتشر على الضفة الخصبة.

وأمضى أخناتون الليل تحت الخيمة الملكية، ثم إنه صعد إلى عربته المذهبة، وجاب السهل حتى رشقته شعاعات الشمس لكي تقول له أن قفْ. هناك، أقام الحدود الجنوبية لمدينته الجديدة، في منتصف الطريق بين الحدود الشمالية لمصر وجنوبيّها، فوق أرض بكر، لم تكرَّس قط من قبل لأي إله.

وقدّم القرابين إلى **أتون**. ثم وعظ أولئك الذين تبعوه. وأعلن على نحو مؤثر جداً أن أيّ كائن بشري لم ينصح له بأن يأتي إلى هذا المكان. وقد صرّح بقوله: «لا، إن **أتون** شخصياً هو من استحثّني على أن أبني له هذه المدينة». وسمّى العاصمة الجديدة **أخيتاتون** ـ «**مدينة أفق أتون**».

وارتفعت مدينة رائعة وعظيمة بسرعة مذهلة. وفي نهاية سنتين اثنتين،

أصبحت قصورها ومبانيها مستعدة لاستقبال السكان. وكان انتقال الملك ورعاياه الأوفياء صوب العاصمة الجديدة مشروعاً غير مألوف. فمئات السفن الشراعية جابت النيل، ناقلة الأُسر مع كل ممتلكاتها.

وحُملت المياه والتربة إلى أخيتاتون، بحيث غدت المدينة مخضوضرة، وبجنائنها وحدائقها العامة المنتشرة من غير نظام، كانت نقيض طِيبة ذات التناسق الصارم. وفي خلال السنوات القليلة التي تلت، كانت الحياة في **مدينة الأفق**، بلا أدنى ريب، أسعد منها في أي مدينة أخرى في ذلك الحين.

كانت العقيدة تعلن أن الإله الجديد «يحيا بالحقيقة»، وغدت الحقيقة كلمة السرّ في دين الفرح الجديد. وكان الفرعون الملحد يعني بـ «الحقيقة» انفتاح الفكر، ورفض الرياء، وتصميماً على إظهار الأمور كما هي. وهذه الأفكار التي أثّرت بالضرورة في الحياة اليومية، ولّدت أيضاً فناً جديداً.

كانوا يكرّمون الفنانين في أخيتاتون. وكانت مساكنهم ومحترفاتهم تقوم في أجمل جادّات المدينة. وهناك أبصر النور بعض نماذج الفن المصري. ومثّلوا، مستلهمين مفهوم أن إلهاً محبّاً للطبيعة أوجده الفرعون، جميع أشكال الحياة النباتية أو الحيوانية بواقعية مذهلة وإتقان نادراً ما تمّ تجاوزه في تاريخ الفن.

وقدّم أخناتون ونفرتيتي نموذج الحياة العائلية الطبيعية. كانا يعانقان أولادهما علناً، وينزّهانهم بالعربة في الشوارع، تاركَيْن الإمساك لهم بأعنّة الخيل، والقيادة. وأظهرا بعد جرأة أكبر، فرفضا أن يمثّلهما الفنانون بالوضعات المتصلّبة أو المنمنمة (الموجزة بغاية الزخرفة) التي يبدو بها الفراعنة القدامى. كانا يتمسّكان بالواقعية قبل كل شيء. ويرددان أن الهيبة المجمّدة في مصر الأمبراطورية كانت زائفة.

وبالغ الفنانون، بلا ريب، إذ أخذوا أخناتون بالمعنى الحرفيّ، في خصائصه الجسدية. فالرسوم والتماثيل تمثّل شاباً وجهه لطيف ورقيق، ويبدو

حالماً، كتفاه هابطتان، والبطن ناتىء والأعضاء نحيلة (احتمال كونها العلامات الخارجية لاضطرابات في الغدد). ومثّلوه أيضاً في مشاهد من حياته الحميمة، زوجته فوق ركبتيه، أو مداعباً بناته، وهنّ بعد صغيرات.

وشيّد المهندسون المعماريون معابد في الهواء الطلق لكي يدعوا اشعاعات الشمس تدخل بتدفُّق، مختلفة كثيراً عن المزارات المعتمة والمخيفة ذات العلاقة بـ «الإله المحجوب». ولم تكن الثروات غير متوفرة لأنه لم يكن هناك نفقات حروب، وكان المالكون يسدّدون الضرائب لصيانة معابد أتون. وكانت المدينة تزداد جمالاً سنة اثر سنة، بينما كانت الأشجار تنمو وترتفع والحدائق تتفتح رياحينها. وافتُتحت حدائق للحيوان، وأحواض وبرك، وأروقة خارجية (مقصورات صغيرة بلا أعمدة) لمتعة السكان. وجاءت المطاعم، والمشارب، والمخابز، والاسطبلات تضيف الكثير إلى حياة البذخ والترف. وفي ما بعد، في خلال الحفريات، اكتشف أركيولوجيون حتى قرية نموذجية صغيرة ذات بيوت لطيفة مخصَّصة للعمال الذين شيّدوا المدينة.

يبدو أن لغزاً واحداً ذا طابع ثانوي قد خيّم على المدينة. لمّا طلب الفنانون إلى الفرعون أن يصف لهم إلهه لكي يتمكنوا من رسم صورته، بقي أخناتون مجانباً، فردّ بتعالٍ أن أتون ليس له شكل ولا يمكن، والحالة هذه، تمثيله على نحو واقعي، فاضطروا إلى الاكتفاء بقرص شمسي.

وفي استغراقه في تحوُّل مصر الداخلي، أهمل التقارير التي كانت تصل من المقاطعات والأقاليم الخارجية. ولم يدع له الكهنة والموظفون أي مجال للراحة. ومن أجل ادارته الشخصية، لجأ إلى «جيش من الرجال الجدد» من أصل متواضع. وحقيقة ان النبلاء قد اتخذوا جانب التقليل من مقامهم، تنزع إلى التدليل على أن بداية ثورة اجتماعية حقيقية كانت تختمر، وعلى وشك أن تولد. وتحمل بعض الدلالات أيضاً على الاعتقاد بأن النساء في مدينة **الأفق** كنّ يتمتعن بحرية أكبر وبوضع أو منزلة أرفع.

ولكن المتاعب كانت وشيكة. فمثالية الفرعون ونزعته السلمية جعلتاه

يهمل الأمبراطورية وأعداءَها. فلما لجأ إليه الملكان السوري والفلسطيني المتحالفان طالبين أن يقدِّم إليهما عوناً عسكرياً، تردد. لم يكن متأكداً من أنه كان في مصلحة مصر الانضمام إلى تحالفات، أو إبقاء شعوب أخرى تحت نيرها. وكان يرفض، علاوةً على ذلك، إيفاد مصريين للقتال في ساحات وغىً نائية والتضحية بحيواتهم.

لم يرسل، إذاً، أي جيش. وفي سنة ١٨٩٣، اكتشف السر وليام پتري وهو يقوم بالحفريات والتنقيب في المدينة الميتة. أكثر من ثلاثمئة لوح باللغة المسمارية تتضّمن في معظمها نداءَات للنجدة كانت توجهها حكومات المقاطعات المصرية، أو يوجهها قادة الدول الحليفة إلى أخناتون.

لمّا أدركت البلدان المحتلّة أنها إنما تتعامل مع قدّيس انتقضت بسرعة على الحكّام المصريين، وتوقّفت عن دفع الجزية، وغدت في الواقع من الدول الحرة.

ولكن في أثناء ذلك، في كواليس طيبة وهليوپوليس، كان الكهنة يتآمرون، ويتأهبون. وفي سرّية المنازل، استمر السكان في عبادة آلهتهم التي لا تُعدّ ولا تحصى، والمرعبة. وكانت مئات التجارات الصغيرة والمشاريع الحِرَفية الصغيرة التي كانت حياتها تعتمد على المعابد المهجورة والمهملة تلعن الملحد سرّاً. وحتى في قصره في أخيتاتون، كان وزراء الفرعون والقادة العسكريون يحتقرونه لأنه ترك الامبراطورية تتفتّت بين يديه، ويصلّون كي يقضي نحبه.

وبدأت الأُمور تفسد بالنسبة إلى الفرعون وأولئك الذين كانوا يحبونه. وقضت على حين غرّة الأميرة ميكيتاتون، الابنة الثانية لنفرتيتي وأخناتون. فإله القرص الشمسي لم يمنحها حياة مديدة. وإذا كان للفرعون ست بنات، فإنه لم يُرزق ولداً. وإذا كان القانون يسمح له بأن يتخذ زوجة ثانية لكي يُنجب ولياً ذكراً للعهد، فقد رفض لكي يظل مخلصاً لنفرتيتي. وصناديقه التي كانت تملأها حتى ذلك الحين جزيات المقاطعات الغربية، تكشّفت عن أنها

تكاد تكون فارغة. وكانت الضرائب ضئيلة، وقد توقّف العمل في مناجم الذهب. وثارت المستعمرات، وتحالفت ضده كل القوى في مصر، بانتظار سقوطه.

هنا، يختفي اخناتون ونفرتيتي من السجلات والوثائق. ومثلهما كمثل شخصيات أيّ حلم مجيد، يتبخّران من التاريخ. ولم يعثر الأركيولوجيون قط على إشارة واحدة لموتهما؛ ووُصف الضريح الذي خصِّص لهما على الشواطىء الصخرية التي تشرف على أخيتاتون ولكنه كان فارغاً. أليس مصادفةً غريبة أن يختفي، على هذه الصورة، أكبر مجدِّدَيْن في التاريخ المصري ــ **إمحوتب وأخناتون** ــ دون أن يخلّفا أي آثار؟

يبقى حكم أخناتون الذي دام تسع عشرة سنة، لغزاً بالنسبة إلى جميع المؤرخين. ويصفه ليونار كوتريل بأنه «أحد أغرب الحقب في تاريخ العصور القديمة.». ويضيف إلى ذلك قوله: «نحن لم ندرك بعد مجمل أسبابه وتأثيراته. إن شخصية فرد واحد كانت في الأصل... حول شخص هذا الملك ثارت المجادلات، هل هو عبقري أم مجنون؟».

في مؤلفه الرائع «**دراسة التاريخ**»، يقدّم إلينا المؤرخ الانكليزي أرنولد توينبي(٢) رأيه الشخصي: «إن أفضل دليل على أن الحياة كانت غائبة عن المجتمع المصري يقدّمها إلينا إفلاس محاولة البعث الوحيدة... فبعبقرية صرف، أبدع أخناتون مفهوماً جديداً للإله وللإنسان، وللحياة، وللطبيعة، ولّد فناً وشعراً جديداً. وينزع إخفاقه إلى تبرير فكرة أن الظاهرة الاجتماعية للتاريخ المصري منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد إنما هي مقدمة بدلاً من أن تكون تاريخ مجتمع جديد.».

ولم يُبطىء الكهنة في استعادة زمام الأمور. فالفرعون الشاب توت عنخ أمون، الذي كان قد وُلد في ظل دين أتون باسم توتخاتون، عقب تغيير هذا الاسم، قفل عائداً إلى طيبة حيث أعلن للشعب الهائج إعادة الآلهة القديمة، والعمل بكل الأعياد التي سبق إلغاؤها.

وعاد إلى الظهور العاملون بالأزاميل لكي يزيلوا اسم أخناتون عن جميع المباني، ويحفروا من جديد الأسماء التي كُشطت. وحظر الكهنة التلفُّظ باسم الفرعون الثوري وعاصمته، ولم يعد الشعب يدعوه بغير لقب «المجرم الكبير».

وهجروا مدينة أخيتاتون الرائعة التي ما لبثت أن تهدّمت من غير أن يأتي من يقلقها، حتى وصول العالمين بالمصريّات في القرن التاسع عشر. ودُكّ معبد أتون في الكرنك، واستعملت حجارته ثانية لإقامة أنصاب أخرى ضخمة لآلهة وفراعنة جدد.

في إعلان محفور على جدران الكرنك، يؤكد توت عنخ أمون أنه من جزيرة فيلة(٣) جنوباً، إلى الدلتا، شمالاً، كانت المعابد والمزارات الخاصة بالآلهة والآلهات قد «غدت موحشة، وقد غزتها الأعشاب الضارة، والمُصلّيات فيها متهدمة كما لو أنها لم توجد قط... وكانت البلاد رأساً على عقب، وقد هجرتها الآلهة.».

بالنسبة إلى ما تبقّى، لم يتميّز توت عنخ أمون مطلقاً في خلال حكمه، وقضى في سن الثامنة عشرة دون أن يُعقب ولداً. ولم يكن ليشتهر مطلقاً في ما لو لم تُكتَشف في ضريحه كنوز هائلة. وقد اغتصب العرش قائد عسكري مقدام يدعى حورمحبّ لدى وفاته، وخلفه.

وسيّر هذا قواته على طول السواحل لإعادة غزو، مؤقتاً، جزء كبير مما فقدته مصر من الأراضي في خلال حكم أخناتون.

كان حورمحب القائد السابق لقوات أخناتون، وقد اضطر إلى أن يتظاهر، على الأقلّ، بأنه يعبد أتون؛ وقد انصرف، بسبب ارتباكه من ماضيه المُلحد، على وجه الاحتمال، لأجل تحويل الأنظار، إلى عملية هدم النفائس (= نزعة همجية لتخريب الآثار الفنية والصنائع) في الكرنك. وبأوامر صادرة عنه، شوّهت كل صور نفرتيتي التي وُجدت على أعمدة قصرها

المدمَّر. وقد كُشطت الأيدي في أطراف شعاعات قرص أتون. ثم إنهم، بإعادة قلب الحجارة، أخفوا الصور في داخل الأعمدة الجديدة. وهكذا، أبرز رجل الشعب السابق حورمحب ازدراءه الأسرة المالكة التي سقطت، ووضع إلى الأبد، بحسب اعتقاد، الملكة خارج مرأى البشر. وكان ينبغي انتظار سنة ١٩٦٥، حين عكف الأركيولوجيون على دراسة أنقاض الكرنك، لكي تُكشف الأعمال المشوّهة وتظهر للعيان.

وخلف حورمحب فراعنةُ السلالة التاسعة عشرة، الذين احتفوا بذكرى أمجادهم ومآثرهم بتوسيعهم المباني الهائلة في الكرنك. وقد ازدحمت الهندسة المعمارية بنوع من الواقعية، وغدا الرسم والنحت أكثر خشونة كردة فعل على محاولة الإصلاح الجمالي الذي قام به اخناتون.

وإذا ما أخذنا بمفهوم الدورات التاريخية، الذي يقول به أوزڤالد شپنغلر[٤]، فإن هناك مقايسة وثيقة ما بين المباني الضخمة في المرحلة الأخيرة من الأمبراطورية المصرية، والمباني، والنحتية (المتعلقة بصنع التماثيل) الهائلة في انحطاط روما الأمبراطورية. ولدينا أمثلة أخرى عن الحقبة التاريخية «الجبارة» مع حقبة بناء نينوى على يد سنحريب، وحكم الأمبراطور هوانغ ـ تي في الصين، والحقبة التي تلت السنة ١٢٥٠ في الهند، حيث أُقيمت الأنصاب الهندوسية الهائلة. وقد شهدنا ظاهرة مماثلة مع المباني الكبيرة والثقيلة التي أُقيمت في أميركا من سنة ١٨٩٠ حتى سنة ١٩٢٠ تقريباً، وفي وقت حديث أكثر بعد، على عهد هتلر، في برلين.

إن الأنصاب هي انعكاس لحياة الفرد والعرق (الجنس)، والملجأ (المأوى) الذي تشيّده الكائنات البشرية، يكشف عن طبيعتها على نحو جليّ مثلما هي قوقعة الحلزون علامة نوعها. والكرنك يعكس كل التاريخ المأساوي لآخر حبّ عابر للتعملق المصريّ.

حيث نجح إمحوتب، أخفق أخناتون، كان متقدماً، بَعْدُ، آلافاً من

السنين بالنسبة إلى عصره، غير أن الريح والرمل لم يدمّرا غير جسد مصر القديمة، فقد بقي فكرها حيّاً في فنون جنسنا وأعماله.

نحن الذين نحسّ قليلاً جداً بالروابط الروحية مع مصر القديمة، ما نفتأ نستخدم اختراعاتها، إن لم يتعلّق الأمر بجلوسنا فوق كرسيّ ذي أربع قوائم أمام طاولة ذات أربع قوائم، أو ونحن نكتب بوساطة ريشة على قصاصة ورق. إنها الحضارة المصرية أيضاً التي نقلت إلينا الزجاج، والنسيج، والتقويم (الروزنامة)، والپندول (رقّاص الساعة)، وعلم الهندسة، والألفباء. وقد ورثنا الكثير من معارفها الطبية، ومن نموذج تعليمها الابتدائي والثانوي، وحتى الدروس التقنية في إدارة الأعمال، والإدارة، والتنظيم. واستفدنا من التعبير الأول المُصاغ بوضوح للشعور الفردي والعامّ، والنداء الأول من أجل عدالة اجتماعية، وإنشاء الزواج الأحادي (للمرأة والرجل)، وأول ظاهرة للتوحيد (الإيمان بإله واحد)، وأول تعبير عن فلسفة أخلاقية. إن الحضارة المصرية، من طريق الفينيقيين، والسوريين، واليهود، والأقريطيشيين (سكان جزيرة كريت)، واليونانيين، والرومان، قد غدت جزءاً لا يتجزأ من تراث البشرية. والتحريض الذي أحدثته مصر، منذ فجر الزمن، تسبّب في انطلاق عدد كبير من الأمم.

في نهاية رحلاتي الطويلة في مصر، تبيّن لي أنني ذهبت إلى أبعد ما يمكن الذهاب إليه على طول ممرّات الزمن الغسقية، بصفة كوني شاهداً عياناً، على الأقل. وما تعلّمته جاء يدعم فرضيتي. وحظيت كذلك بالبرهان، بالنسبة إلى صعود الأمبراطورية المصرية وانحطاطها، على أن العودات المفاجئة إلى الخلف يمكن أن تمحو قروناً من التقدم. وتعزّزت فكرتي عن أن دينامية المبدع في سومر وفي مصر قد تكون نتاج الإرشاد من جانب كائنات سابقة لعهد الطوفان. ويبدو لي ممكناً أن أفكاراً مستقلة أو تلقائية قد تأصّلت في البيئة الموطدة في دلتا نهر النيل، لكي تغدو نقطة الانطلاق لتقدم البشرية. وإن لديّ رؤية أكثر وضوحاً عن ماضٍ ناءٍ حيث كانت الجماعات البشرية منتشرة على أرض في مجملها صحراء. وفي كل من تلك الجزر،

كان هناك أناس يتذكّرون تعاليم ماضٍ أوفر غنى، وقد استخدموها لحلّ مشكلات الحياة المباشرة. وأحسب أنني أحزر لماذا ترتدي أساطير الأطلنتيد مثل هذه النبرة من الحقيقة. لقد ولّدت تياهواناكو أطلنتيداً، وربما عشرات. ذلك هو، على الأقل، افتراضي. وستقدّم إليّ الصين والتيبت تفاصيل أخرى، ولكن في الوقت الراهن، يتعذّر عليّ بلوغهما، ولست أعرف مكاناً آخر في العالم للاستكشاف لكي اكتشف فيه دلائل جديدة زائلة عن مرور زوّار اختفوا.

بالمقابل، أنا أعرف عدداً من الباحثين الذين يُحتَمل أن يحملوا إليّ أدلّة جديدة. وعلى ذلك، أقرّر أن أضرب موعداً للقائهم.

هوامش المترجم

---

(١) **دجيمس** هنري بريستد (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) عالم بالمصريّات وأركيولوجي، ومؤرخ، عزّز البحث في تاريخ مصر القديمة، والحضارات القديمة في آسيا الغربية. وبدعم مالي من دجون د. روكيفيلر، الابن، نظّم بريستد «المعهد الشرقي» (١٩١٩) في جامعة تشيكاغو. وقد غدت هذه المؤسسة مركزاً عالمياً مشهوراً لدراسة الحضارات القديمة في جنوبي غربي آسيا والشرق الأوسط. وبإدارته، قام بعدد من أعمال الحفريات المهمة؛ بما في ذلك حفريات مجدّو التي كشفت عن اسطبل خيل كبير يُعتقد أنه كان خاصة الملك سليمان الحكيم، وحفريات أخرى في برسيپوليس في فارس (إيران)، التي أبرزت بعض المنحوتات من عهد الأخمينيين (وقورش الكبير من سلالتهم).

(٢) **أرنولد توينبي** (١٨٨٩ ـ ١٩٧٥) مؤرخ بريطاني، يضع مؤلّفه النفيس «**دراسة التاريخ**» في اثنيّ عشر مجلداً، فلسفة للتاريخ تستند إلى تحليل التطور الدوريّ للحضارات وانحطاطها، أثارت جدلاً كثيراً. وفي كتابه هذا درس توينبي نشوء ٢٦ حضارة وسقوطها في سياق التاريخ البشري، واستخلص أنها إنما صعدت بالاستجابة بنجاح للتحديات بفضل قيادة أقليات مبدعة مؤلفة من قادة من النخبة. وسقطت الحضارات لمّا كفّ قادتها عن الاستجابة الابداعية، ثم غاضت إذ ذاك الحضارات بسبب خطايا القومية، والعسكرية، والطغيان لدى أقلية ظالمة. وعلى نقيض أوزڤالد شپنغلر في كتابه «**انحطاط الغرب**»، لم يعتبر توينبي موت حضارة ما أمراً محتوماً،

ذلك بأنها قد تواصل، أو قد لا تواصل الاستجابة لتحديات متعاقبة. وعلى نقيض كارل ماركس، رأى أن التاريخ تشكّله قوى روحية، وليس قوى اقتصادية.

(٤) **فيلة** هي إحدى جزر النيل، قبالة أسوان، كانت على عهد الفراعنة قاعدة عسكرية ذات شأن.

(٥) **أوزڤالد شپنغلر** (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦) فيلسوف ومؤرخ ألماني، صاحب الكتاب الشهير «انحطاط الغرب» (١٩١٨ ـ ١٩٢٢).

١٣

المصـــادر التوراتية

أوضح لي دجوزف بلامرتش:

ـ لقد انطلقتُ من وجهة نظر سلبية كلياً. ففكرة هبوط رجال من الفضاء على الأرض في ما مضى بدت لي في آن سخيفة ولا سند لها.

ودجوزف بلامرتش هو صاحب كتاب يحمل عنوان «**مركبات حزقيال الفضائية**»، وهو مهندس في وكالة الفضاء الأميركية (N.A.S.A) وقد مضيت، للاستفسار منه، إلى مدينة هنتسڤل، في ولاية آلاباما. وقلت له:

ـ هل أن ثقافتك الهندسية هي التي أملت عليك وجهة النظر هذه؟

ـ بلا أدنى شك. فقد بدأت حياتي مهندساً في الطيران البحري سنة ١٩٣٤، وفي سنة ١٩٥٩، انتقلت إلى ميدان الطيران الفضائي. وأعترف بأنني كمهندس، كنت أنزع إلى الهزء بأولئك الذين كانوا يروون أن النبيّ حزقيال قد وصف مركبات فضائية.

ـ مع ذلك، فقد غيّرت رأيك.

ـ من أجل أن أدحض كل ما كانوا يروونه، قرّرت أن أرى عن كثب أكثر، وأن أُلقي نظرة على سِفْر حزقيال، في الكتاب المقدّس (في العهد القديم منه). ووقعت، والحال هذه، في الإصحاح الأول، الآية السابعة منه، على جملة يمكن أن تكون مرت دون ملاحظة من جانب مؤوّل [للكتاب المقدّس] أو شارح، أو أي قارىء عادي، فهمتها أنا على خير وجه بصفة كوني مهندساً في مجال الطيران الفضائي.

ويناولني الكتاب المقدس، فأفتحه على صفحة «رؤيا» حزقيال. لقد فسّرتها أجيال وأجيال من اللاهوتيين على أنها رؤيا رمزية، ولكنهم وجدوا مشقة في تفسير معناها.

كان النبيّ العبري الشاب حزقيال ينتمي إلى أُسرة من الكهنة في أورشليم القدس اقتيدت الى بابل في أثناء التغريب الأول (النفي). وفي خلال هذه السنوات الخمس من الاعتقال [خارج الوطن] (في القرن السادس قبل الميلاد) تلقّى ما دعاه رؤاه لله تعالى.

لقد شهد أولى رؤاه، كما نقرأ في سفر حزقيال، بينما كان على ضفة نهر خابور. فعلى ضفاف هذا النهر الغريب، المخضوضرة، رأى، وهو يرفع بصره، شيئاً غريباً يبلغ السماء، وفي الوقت عينه إذا بريح عاصفة جاءت من الشمال.

قلت له:

ـ لقد لاحظت أننا نجد في مصر القديمة وفي الصين، تماماً كما في الكتاب المقدس، أساطير تذكر ظهور كائنات في السماء آتية من الشمال؟ هناك اليوم أُناس يقولون إنه إذا ما جاءت أجهزة ما من خارج الأرض أو جوها، إلى الارض، فإن طريق الوصول الآمنة أكثر من سواها ستكون من نجمة القطب، للاستفادة من الثغرات القطبية في حزام ڤان آلن... ولكن لنعد إلى حزقيال.

وفقاً للوصف الذي يورده الكتاب المقدس، فإن حزقيال رأى سحابة عظيمة وناراً متواصلة وحولها لمعان ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار. وسمع صوت مياه عظيمة. ومن السحابة نزل شبه أربعة حيوانات.

وأقول:

ـ لقد شاهدتُ صوراً لكبسولات فضائية وهي تقوم بالهبوط على سطح القمر. إننا نراها تنزل ببطء في سحابة من نار مُحدَثة من جرّاء الهبوط كما لو كانت قائمة على عادم مُفاعِل. والوصف الذي يمكن أن يكون القدامى استطاعوا تقديمه لا يمكن أن يكون بعيداً جداً عن وصف حزقيال. بالطبع نحن نجهل ماذا قال بالضبط. ذلك بأن المترجمين من اللغة الآرامية لم يكن لديهم أي فكرة عما كان يرويه...

فيقول لي بلامرتش:

ـ هذا صحيح، ولكن لنرَ الآية السابعة.

فأقرأ:

«وأرجلها أرجل قائمة وأقدام أرجلها كقدم رِجْل العجل وبارقة كمنظر النحاس المصقول».

ويقول بلامرتش:

ـ في مكان آخر يتحدث حزقيال عن أرجل مستديرة. وقد ذكَّرني الوصف، بكيفية جد دقيقة، بنوع من جهاز فضائي كنت أعرفه جيداً لأنني اشتركت في تصوُّره.

ـ جهاز مخصَّص للهبوط بنعومة، أليس كذلك؟

ـ أجل. من سنة ١٩٦٢ إلى سنة ١٩٦٤، أدرت جماعة من المهندسين

في وكالة الفضاء الأميركية، مكلّفة بدراسة عجلات جديدة للهبوط لجهاز افتراضي مخصّص لكي يحط على سطح القمر. الحق يقال، إن هذا الجهاز لم يُصنَع قط، ولكنه كان مهمّاً مع ذلك، إيجاد حلول للمستقبل. وقد قمنا بصنع عجلات هبوط مؤلفة من سوق (جمع ساق) مستقيمة ركِّب في أطرافها هياكل دعوناها «مزالج»، قد يمكن أن يُذكّر مظهرها تماماً حزقيال بأقدام أرجل العجل المستديرة والمسطحة.

ـ هل كان هناك أشكال أخرى ممكنة؟

ـ ليس أكثر من ذلك، لا. كان ذلك ما بدا لنا الأكثر منطقاً بعد تفحُّص كل الاحتمالات. وكان ناجحاً جداً. فقد جرّبناه على الطريق، وعلى تكسيات [من حجارة أو جصّ] مختلفة لنرى كيف تتصرّف مزالجنا. وفي آخر الأمر، اقتنعنا بأنه من أجل هبوط جهاز بنعومة على سطح صلب، والتنقّل من دون أي عائق، لدينا ههنا ما بالوسع القيام به على الوجه الأفضل. بحيث أنني لدى قراءتي حزقيال، فكّرت من فوري في أنه كان يصف شيئاً حقيقياً.

ـ ولكن بماذا ينبغي التفكير في ما يتعلّق بالوصف الاجمالي الذي يورده بشأن المركبة؟

ـ ستلاحظ أنه يصف الخيالات الأربعة (الصور الظلّية) شبه الإنسان، التي تنزل عبر السحابة، ولكل واحد أربعة أجنحة. إنه يشرع في التحدث عن «بشر» ثم عن «كائنات حيّة»، ويستعمل صيغاً من مثل «رجال ولكنهم ليسوا رجالاً». وبالاشتراك مع زوجتي، جمعنا كل ما عندنا من الكتب المقدسة في المنزل، بالألمانية، والإنكليزية، ورحنا نقارن الترجمات. لقد أمضينا ليلة فاتنة.

ـ وهل توصّلتما إلى استنتاج في ما خصّ المخلوقات ذات الأجنحة الأربعة؟

ـ بالطبع. قلنا بيننا وبين أنفسنا إن الأمر يتعلّق بالطوّافات (الهيليكوبتر). فالأجنحة الأربعة كانت شفرات المروحة المتحركة أو «الشغّالة».

وأفكر لحظة، ثم أقول:

ـ نبيّ عبري، يجهل كل شيء عن الطوّافات ومحرّكات الصواريخ، لا يسعه مطلقاً إلاّ أن يصف ما رآه بعبارات مألوفة. وأمام الضجة والحركة حسبها كائنات حيّة... ولكن، لماذا هذا التشكيل من أربعة أجهزة؟

ويقول لي وهو يبتسم:

ـ بالنسبة إليّ، هذه تماماً النقطة الحاسمة. لست أعتقد أنها كانت تحلّق، حرفياً، في تشكيل، وحزقيال لا يذكر شيئاً من ذلك. يقول إنها كانت متصلة بعضها ببعض.

ـ هل هذا ممكن من وجهة نظر تقنية؟

ـ في البدء، ألفيت ذلك هذياناً. ولكنني أعتبر حزقيال جدّياً، من وجهة نظر المهندس. تذكّر أنه أعطى الأوصاف المفصّلة لأربع رؤى عن مركبات فضائية. وهو يقول، حتى، في الإصحاح الثامن من سفره [سفر حزقيال] إن واحدة منها «رفعته ما بين الأرض والسماء»، لكي تضعه على ما يبدو، لدى الباب الشمالي لأورشليم، حيث عاش. وجاب أرجاء المدينة طوال بضعة أيام، ولاحظ الحرمان السائد فيها، وأُعيد إلى ضفة نهر خابور من الطريق عينه. يبقى أنني انكببت بكل عناية على أوصافه، وانني حاولت أن أتخيَّل كيف يمكن الوصل ما بين أربع طوّافات. ما هو الجسم المركزي للجهاز؟ لقد جرّبت عدة حلول؛ ولكنني لم أتوصّل إلى شيء.

وأبتسم.

ـ لديّ الشعور أنك، مع ذلك، كوّنت فكرة عمّا شاهده حزقيال.

ـ ليس تماماً. في الواقع، لقد تذكّرت مقالة لرودجر أندرسون، كنت قرأتها في مجلة تقنية، وصف فيها جسماً إنسيابيّ الشكل، عالي المقاومة، قادراً على السفر في فراغ الكون، ثم اجتياز جوّ كوكبي شبيه بجو الأرض، لكي ينتهي بالهبوط بنعومة.

وأرفع حاجبيّ.

ـ لماذا تصوّر هذا الجهاز؟ لم يكن داخلاً في إطار برنامجنا الفضائي، أليس كذلك؟

ـ لا، ليس آنذاك، ولا اليوم. لقد استعملنا دوماً النظام عينه لدخول الجو. إن الكبسولة الفضائية تسقط كالحجر وهي تتخلّص من درعها الحرارية، ثم تنشر مظلّاتها للوصول إلى البحر، على نحو انحداريّ استحكاميّ. ولكن سيأتي يوم سنضطر فيه إلى المكّوك لإدراك الأرض واستعادة مركبة مدارية. ويضع المهندسون، عن طيب خاطر، مشروعات لن توضع قيد الاستعمال إلاّ بعد مضي عشرات السنين.

ـ تودّ أن تقول إنه بالإمكان صنع مكّوك جديد بالوصل ما بين أربع طوّافات في جهاز واحد؟

ـ إن ذلك لكذلك تماماً، على ما قد يبدو هذا غريباً. لقد بحثت عن مقالة أندرسون القديمة في مطبوعة يصدرها المعهد الأميركي للطيران ولريادة الفضاء. فقد اكتشفت أن البنية التي تشكلها الطوّافات الأربع الموصولة معاً تصنع جسماً إنسيابيّ الشكل قد يتكشّف عن أنه جد مفيد، ليس، وحسب، بالنسبة إلى رحلات الارتباط الجوية ما بين الفضاء والأرض، ولكن للاستعمالات الأخرى المتنوعة. إن مركز الأبحاث التابع لوكالة الفضاء الاميركية قد صنع بعيماً (= طراز بدائي أو نموذج أصلي محتذى) انطلاقاً من مشروعه، وتمّت تجربته في الأوساط الصنعية، بالسرعة التي هي دون سرعة الصوت، وبأقصى السرعات التي تفوق سرعة الصوت. وأظهرت التجارب

أنها مقنعة. ومثله مثل كل الطوّافات، كان الجهاز مرناً، طيّع القيادة إلى حدّ كبير، ويمكن أن يحلّق بسرعة صفر على الأرض.

وقد صنع شخصياً رسماً بيانياً [أو تخطيطياً] للجهاز، أراني إياه.

ـ هوذا المجموع. هل ترى الطوّافات الأربع؟ إنها مرتّبة بشكل مربع: اثنتان هناك، وواحدة إلى الأمام، وواحدة إلى الخلف، وهذه هي البنية المركزية (الوسطى) التي تحملها وتصلها الواحدة بالأخرى. ومن أجل منح هذا الجسم شبه المخروطي كل فعّاليته، كان يجب أن نؤمّن له شكلاً انسيابياً: لا شيء أسهل من إعادة الطوّافات لكي تُرَتّب على هذا النحو. إن شكل الجسم المقاوم يصبح مُتحرّراً، وتغدو فعّاليته قصوى من ناحية انسيابية الشكل.

وأتفحّص الرسم البياني. إن الجسم المركزي هو مكيال قمري شبيه بمكيال مركبة أپولو.

ـ هل هذا هو الرسم البياني لأندرسون، أم هو رسمك أنت؟

ـ ليس هناك، بالفعل، شيء مني، غير هذا المنحنى، هناك، الذي يمكنك أن تدعوه اختراعي إذا كان هذا يلائمك. إنه يُضفي على الجهاز صورة جانبية انسيابية الشكل تسمح بصعوده مدارياً. ألا يبدو ذلك رؤيا حزقيال الوارد وصفها في الكتاب المقدس؟

ـ إن المركبة التي رآها كان يجب أن تعتمد على مركبة أُمّ موضوعة في المدار.

ـ سيكون ذلك أمراً منطقياً. لن يُستخدم مثل هذا الجهاز للقيام برحلات طويلة في الكون.

وأعود إلى الغوص لحظة في الكتاب المقدس.

ـ والبَكْرات التي يصفها حزقيال في الآيات من ١٥ إلى ٣١ (من الإصحاح الأول، من سفر حزقيال)؟ اسمع: «فنظرتُ الحيوانات وإذا بَكْرة واحدة على الأرض بجانب الحيوانات بأوجهها الأربعة. منظر البكرات وصَنْعَتها كمنظر الزبرجد. وللأربع شكل واحد ومنظرها وصَنْعَتها كأنها كانت بكرة وسط بكرة. لمّا سارت على جوانبها الأربعة لم تَدُرْ عند سيرها. أمّا أُطُرها فعالية ومخيفة. وأُطُرها ملآنة عيوناً حواليها للأربع. فإذا سارت الحيوانات سارت البكرات بجانبها، وإذا ارتفعت الحيوانات عن الأرض ارتفعت البكرات. إلى حيث تكون الروح لتسير يسيرون إلى حيث الروح لتسير والبكرات ترتفع معها لأن روح الحيوانات كانت في البكرات، فإذا سارت تلك سارت هذه، وإذا وقفت تلك وقفت. وإذا ارتفعت تلك عن الأرض ارتفعت البكرات معها لأن روح الحيوانات كانت في البكرات.».

قال:

ـ لست أعرف تفسيراً واحداً صحيحاً لهذا المقطع، ومع ذلك، فهو جدّ بسيط؛ يكفي التفكير فيه.

ويتناول قلماً رصاصاً، ويرسم رسماً بيانياً سريعاً.

ـ تصوّر إطاراً داخلياً [في مطاط عجلة]، إنه يدور طبيعياً بخط مستقيم في طريقه. ولكن إذا ما أدرت الحوق(إطار المطاط أو طوقه)، فإنه سيدور على نحو عمودي بالنسبة إلى نفسه. بالنسبة إلى ما تبقى، يكفي تحويل هذه الفكرة إلى لغة الميكانيكا. لقد وجدت حلّين اثنين ممكنين، ومنهما هذا، ولست أحسب أن هناك حاجة للبحث عن سواهما. هوذا، إذاً، دولابنا (عجلتنا). إنه يتألف من مركز أو محور، وشعاعات (قضبان الدولاب)، بوسعه أن يدور إلى الأمام كما إلى الخلف، كما هو، ولكن إذا ما دفعنا قسماً على شكل برميل على محوره، بوسعه أن يدور بحسب صعيده الأولي، أو أن يخرج من صعيده، أترى؟ إن التنسيق ما بين الانطلاقة والدوران يتيح لدولابنا أن يذهب في أيّما اتجاه كان. وأستطيع، ربما، أن أقول لك أيضاً

إنني تقدمت بطلب براءة اختراع في هذا الصدد. وقد قُبل طلبي، والمعاملة الرسمية جارية على قدم وساق.

وأستغرق في الضحك.

ـ إنك تسجّل براءة اختراع، نجده في العهد القديم من الكتاب المقدّس!

فردّ بدقة التقني:

ـ إنّ براءتي تستند إلى التفسير الذي أقترحه لوظيفة بكرة حزقيال!

وأُواصل قراءتي، أقول:

ـ ولكن اسمع، إنه يتحدث عن ذلك من جديد: «.... وأطُرُها ملآنة عيوناً حواليها للأربع!» تُرى ماذا يمكن أن يعني ذلك؟

ـ يذكر حزقيال غالباً العيون التي تغطي أُطُر الدواليب. وذلك يبدو جد غريب، أوّلياً، ولكن انظر إلى ذلك الذي رسمته. إذا كان لهذه الأنواع من البراميل سطح أملس، فإنها تنزلق، وعلى الأرض، سيثير كبح المركبة مصاعب. والحل المنطقي لهذه المشكلة سيكمن في تزويد الدواليب بتضرُّسات صغيرة تغرز في الأرض لدى كل دورة. نوع من الأظفورات أو المخالب للتشبُّث ولكن أقصر، و«العيون» التي رآها حزقيال لم تكن غير هذه النتوءات الصغيرة المصممة للحؤول دون انزلاق المركبة.

ـ لقد كان مراقباً ممتازاً، على ما يبدو. إن قلة من البشر قد تكون قادرة على القيام بوصفٍ مفصّل، وكامل لجهاز فضائي كهذا، من دون استخدام عبارات تقنية. ولكن، مهلاً! لقد قفزنا عن شيء من الإصحاح الأول: الوجوه. إنه يقول إن سائر المخلوقات التي نزلت من السحابة «كان لكل واحد منها أربعة وجوه»: وجه إنسان، ووجه أسد، ووجه ثور، ووجه نسر. بماذا يمكن أن يذكّر هذا مهندساً ما؟

يهزّ بلامرتش كتفيه.

ـ إن أجهزة كثيرة لها أشكال يمكن أن تذكّر بالوجوه. إن الجميع إعتقدوا أنهم يرون وجوهاً في الصخور، والسُحب، وأوراق الشجر. تذكّر الكبسولة دجيميني؛ من وجهات نظر كثيرة، كان بالوسع أن نرى فيها تشابهات مع الوجوه. ووحدة القياس القمرية تشبه كثيراً حشرة عملاقة نسمّيها البرغوث.

ـ هل تحسب أن حزقيال استطاع رؤية الوجوه في شكل طوّافة؟

ـ هذا ممكن. لا تنسَ أنه لم يسبق له قط أن رأى آلة في حياته.

في الطوّافات التي نصنعها اليومَ، تأتي القوى المحركــة من أسفل، وتحت دوّارات (الأجزاء المتحركة في الآلات المحورية)، وجميع أنواع السوق، والآلات، وأذرع الرافعات ستُتَجاوَز، فيما لو لم نحمها من الغبار وتقلبات الحرارة بغطـاء معدني (وقاء للمحرك في السيارة أو الآلة) ممـلوء بالحدبات والحزوز أو الفُرَيْضات، الغاية منها استقبال الرافعات والسوق. وهو يذكر غالباً جداً وجهاً... تعلوه أجنحة في حركة، مثلما ورد في وصف حزقيال.

وأواصل قراءتي بصوت مرتفع: «وعلى رؤوس الحيوانات شبه مقبَّب كمنظر البلّور الهائل منتشراً على رؤوسها من فوق». لكأنه تماماً وصف الفقّاعة الزجاجية الشفافة التي يجلس فيها الملاّح والركّاب في الطوّافة... «فلما سارت سمعت صوت أجنحتها كخرير مياه كثيرة... ولمّا وقفت أرخت أجنحتها».

وأطرح سؤالاً على بلامرتش:

ـ في هذه الترجمة، يقول حزقيال إنه رأى «فوق المقبَّب الذي على رؤوسها، شبه عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق وعلى شبه العرش شبه

كمنظر إنسان عليه من فوق»، شيء ما اعتبره الله، اعتبره يهوَه. ما رأيك في ذلك؟

ـ إنه يصف هنا ما سنسمّيه مقياس القيادة في مركباتنا الفضائية. وفي الكبسولة، يرى شيئاً أو شخصاً يعزو إليه شكلاً بشرياً. في النصّ الأصلي، إنه يعطي اسم آدم. وما كان ليعطي كائناً سامياً هذا الاسم. وباستعماله اسم آدم، أحسب أنه كان يسعى إلى إفهامنا أنه رأى كائناً يشبهنا حقاً على الرغم من بعض الفوارق.

وأقول:

ـ الواقع، إن هذا الشخص، مهما يكن، قد يكون أسدى إليه نصائح حكيمة، ظاهرياً، ذلك بأنه منذ ذلك اليوم عمد حزقيال إلى التبشير في أوساط رفاقه في الأسر والنفي بأفكار المسؤولية الفردية. إن الخطيئة ليست مشتركة بين جميع البشر، مثلما كان الاعتقاد السائد في قديم الزمان. لقد كانت التوبة والخلاص فرديين أو شخصيين، هما كذلك. إن كل إنسان كان معاقَباً أو مُثاباً على أفعاله الشخصية، وليس على أفعال أبيه أو قبيلته.

ويوافق بلامرتش ويضيف:

ـ في خلال السنوات الثلاث والعشرين التي ستلي، كان حزقيال الراعي الحقيقي للقطيع المنفي. وإذا كانت الوقائع التي يرويها حقيقية، فإن مستشاريه ما كانوا ليختاروا ترجماناً أفضل. كان ينبغي أن يكونوا حسني الاطلاع على الأشخاص، ما لم يكونوا قد عيّنوه بالمصادفة. لطالما طرحت السؤال على نفسي.

وأطرحه بدوري على نفسي، في طريق العودة.

إنني أتذكّر روايات توراتية أخرى ذات أصداء غريبة جداً أيضاً.

وأُفكّر في قوة كلمات سفر الخروج: «هذه الرعود، هذه الأضواء،

والجبل المدخّن. . وكانت السحابة تغطّي جبل سيناء لأن الرب كان ينزل بمجده.» وأفكر في ينوخ الطيّب «الذي كان يسير مع الرب»، والذي حمله «إعصار» لكي لا يموت، وفي يونان الذي قد تكون إقامته التي لا تُصدّق في بطن الحوت نزهة في غوّاصة، وفي النبيِّ إيليا الذي سمع صوتاً على جبل حورب، وغادر الأرض على متن «عربة من نار» مغطاة بزوبعة من ريح.».

وهناك أيضاً دانيال، الذي رأى على ضفة نهر مخلوقاً يصفه هكذا: «كان لوجهه منظر الزبرجد، ولوجهه منظر البرق، وعيناه مثل مصابيح من نار.».

وهناك جميع الملائكة الذين نزلوا من السموات لزيارة إبراهيم، وجدعون، ويعقوب، وهوشع، ولوط، وداود النبيّ الذي يوجّه أنظار البشر إلى ما وراء النجوم.

وكل الخرافات والأساطير المماثلة، وهي، بعد، أقدم من الكتاب المقدّس؟

ماذا عن بُسُط الريح والطيور العملاقة في الحكايات الشرقية؟ وعن أيار كاشي، الإنكا الطائر الذي يقال إنه «ظهر في الأجواء بجناحين كبيرين» لكي يهبط في وادي كوثكو؟

وماذا أيضاً عن الخرافة اليونانية حول المخترع والتقني ذي المهارة العجيبة ديدالوس(١)، الذي سافر في الأجواء، من جزيرة كريت إلى جزيرة صقلية، وابنه إيكاروس الذي حلّق قريباً جداً من الشمس وسقط في البحر؟

لقد ذكر الشاعر ڤرجيل هذه الأسطورة في كتاباته، مثلما فعل كذلك أوڤيد، وكل من پلوطارخوس، وديودوروس الصقلّي، وقبلهم الشعراء الإغريق إيپيمينيدس، وباخيلّيديس، وكليديموس، وفيلوكوروس. لقد أنشد هوميروس الشاعر الإغريقي ديدالوس في «**الإلياذة**». ولكن كان ينبغي انتظار حفريات العالم الأركيولوجي الألماني الهاوي هاينريش شليمان (١٨٢٢ ـ

١٨٩٠) في سنة ١٨٨١ لكي يعرف العالم بذهول أنه ينبغي أخذ عدد معيّن من الأساطير الإغريقية على محمل الجدّ. ولم يشرع العالم في الاعتقاد بوجود ديدالوس الحقيقي إلاّ بعد أن أمضى آرثر إيڤانز ربع قرن من الزمن في نبش قصر الملك مينوس، في كنوسوس [في جزيرة كريت]، كاشفاً متاهته الأسطورية.

كم من خرافات البشر الطائرين ستتكشّف ذات يوم عن أنها تستند إلى تقنيات عالم آخر نجده في **سفر حزقيال**؟

إني لأتذكّر موضوعات مماثلة، في الثقافة المصرية. إن **كتاب الموتى الكبير** يُلمع مراراً عدة إلى «كائنات متلألئة تعيش في شعاعات الضوء»، وفيه نجد جملاً من مثل: «أنا أسافر في الفضاء والزمن». وهناك عادةً مسألة «أقراص مجنّحة»، و«كتائب في السماء».

أيّان ذهبتُ، وأيّان درستُ الحضارات القديمة، ما فتىء موضوع الطيران يبرز من جديد. لقد امتزجت في الموضوع فكرتان اثنتان أو ثلاث أفكار أخرى وجد بعض روّاد الفضاء الأميركيين أنها تستحق الاهتمام. فأُقرّر، إذاً، أن أُجري مقابلة مع الرائد إسكوت كارپنتر، لكي يحدّثني عن الأرض كما تُشَاهد من الفضاء، وكما كان من حظ عدد قليل جداً من معاصرينا أن يروها بأمّ العين.

هوامش المترجم

---

(١) **ديدالوس** [باليونانية تعني «المنفعل ببراعة»]، مهندس معماري ونحّات خرافيّ إغريقي، يقال إنه شيّد، في جملة ما شيّد، المتاهة المثالية (أو النموذجية) للملك مينوس، في جزيرة إقريطش القديمة (كريت) حيث سجن المينوطور. وقد فقد **ديدالوس** حظوته لدى هذا الملك الذي سجنه؛ وقد صنع أجنحة من شمع وريش له ولابنه **إيكاروس**, وهربا إلى جزيرة صقلية. غير أن إيكاروس حلّق عالياً جداً على مقربة من الشمس، فذاب جناحاه، وسقط في البحر فغرق فيه، وقد سُمّيت الجزيرة التي قذفته عليها الأمواج على اسمه ــ **إكاريا**.

وقد عزا الإغريق في العصور التاريخية القديمة إلى ديدالوس مباني وتماثيل فُقدت أصولها في غياهب الماضي. وقد عزا النقّاد الذين جاءوا في ما بعد، إلى ديدالوس، مستحدثات وتجديدات من مثل تمثيل البشر في المنحوتات والتماثيل بأرجل منفرجة وعيون مفتوحة، وقد سميت باسمه مرحلة من الفن الإغريقي المبكر ـ **النحت الديدالوسي**.

في الميثولوجيا الإغريقية، أن **المينوطور** هو مسخ نصفه رجل، ونصفه الآخر ثور. وقد وُلد من العلاقة الغرامية التي نشأت ما بين پاسيفايي، زوجة مينوس (ملك إقريطش المذكور أعلاه) وثور أبيض أرسله پوسيدون إله البحر. فحبسه مينوس في المتاهة التي بناها له ديدالوس، حيث كان يقيته باللحم البشري. وقد قضى عليه ثيزاوس.

ويُذكر هنا أن الحضارة الإقريطيشية تُعرف بالحضارة المينوية (٣٠٠٠ ـ ١١٠٠ ق.م).

١٣

الأرض مرئية من عَلُ

إن أحد الألغاز الأكثر فتنة في التاريخ والجغرافيا هو، بلا ريب، التالي: ماذا كانت تعرف عن العالم شعوب العصور القديمة قبل أن تتوفر لها طرائق اكتشافه؟

الآن، وقد اكتشفنا البحار، والجزر، والقارّات، وقد رسمناها على خرائط، فإننا نتبيّن على حين غرّة أن شعوب العصور القديمة، التي كان لدينا نزعة، بالحري، إلى الإشفاق عليها، وكنا نعتقد أنها تجهل كل شيء، عن الأراضي النائية، لم تكن، ربما، جاهلة بالقدر الذي كنّا نفترضه.

بطريقة غامضة جداً، وجدتْ كل أنواع التفاصيل المتعلقة بالبلدان النائية وغير المستكشَفَة بعد وسيلة بلوغ حانات جميع موانىء أوروبا. فمنذ الأمبراطورية الرومانية، كانوا يروون أنه بعيداً جداً في الشرق، في ما وراء الهند، كان يعيش شعب قويّ أعطاه الإغريق اسم **سيريس**، ولكنهم كانوا يجهلون أين تقع بلاد سيريس، وأي نوع من البشر هم. وفي الغرب، لم

يكن أحد قد رأى صينياً، وكذلك لم يُرَ قطّ أي أوروبي في الصين؛ هناك أيضاً، مع ذلك، كانت الأساطير تشير إلى وجود أمم متحضرة، بعيداً في ما وراء سهوب آسيا.

ثمّ إنه كانت هناك، بالطبع، الأسطورة الخالدة القائلة إنه تقوم على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، قارّة مترامية الأطراف. وكانت هذه الشائعات تنتشر قبل خمسمئة سنة من الميلاد، بحسب ما تثبته كتابات متنوعة لم تُخفق في إغراق أجيال لا تعدّ ولا تحصى من واضعي الخرائط في الحيرة والارتباك. ويذكر الرومان في العصر الكلاسيكي وجود هذه القارّة كحقيقة لا تقبل الجدل، وهم يعرفون اسمها: **أولتيما تولي**. فحوالى سنة ١٥٠ قبل عصرنا الميلادي، يكتب الرّحالة والجغرافي اليوناني الكبير پوزانياس (القرن الثاني للميلاد) أنه بعيداً جداً، غربي المحيط، هناك مجموعة جزر لون بشرة سكانها نحاسيّ، ولهم شعر أسود وقاسٍ كعرف (شعر العنق) الحصان. وما لم نفترض أن پوزانياس كان يتمتع بخيال/فيّاض، فإننا مكرهون تماماً على إدراك أنه إنما يصف على نحو جيّد هنود أميركا الحمر.

من أين جاءت مثل هذه الروايات؟ هل أنها سارت من ڤنلاند[١] حتى أوروبا عبر غرينلاند[٢]، وإسلندا[٣]، وجزر [أرخبيل] فيرويه[٤] أم هل أنها حُملت بوساطة أولئك الصيادين الفرنسيين الشهيرين الذين ينبغي أن يكونوا قد عرفوا سواحل تير ـ نوف أو نيوفاوندلاند[٥] (الأرض الجديدة) قبل قرون عدة من مولد الرحالة الإيطالي كريستوف كولومبوس (حوالى ١٤٥١ـ ١٥٠٦)؟ أم هل أنه يجب البحث عن مصدر معلومات أكثر غرابة بعد؟

كان لدى أوروبا القرون الوسطى مجموعة كاملة من الفولكلور البحري يمتزج فيه الحقيقي بالخيالي. وكانت هذه الميثولوجيا البحرية تعجّ بالخرافات والحكايات، ولكنها كانت تتضمن أيضاً نتفاً من الحقيقة والواقع لا يسعنا الاكتفاء باستبعادها كما لو كان الأمر يتعلّق بهذيان قبطان بحري تعتعه السكر.

أنا أفكّر، مثلاً، في جميع القصص التي رويت عن الكاهن يوحنا، هذا

الكاهن ـ الملك الذي كان يحكم في وسط إفريقية، الله وحده يحكم أين، شعباً مسيحياً، وفي خلال وقت طويل سخر الجغرافيون الجدّيون من ذلك. وإذا بالپرتغاليين، بإعادة اكتشافهم إثيوبيا (الحبشة)، سيكشفون أنه كان كان هناك سلطان إفريقي أدكن البشرة، رئيس كنيسة مسيحية عمرها، على الأقلّ، تسعة قرون.

وأفكّر كذلك في الشائعات التي دارت في أماكن عدة عن شعب مسيخ أو مشوّه الخلقة، حُدِّدَ موطنه في المناطق القطبية. وقد وُصِفَ رجال بلا عنق، وجههم على الصدر، وأقدامهم من الكبر بحيث تقيهم من الشمس... وإذا كانت شعوب القرون الوسطى من السذاجة لكي تصدّق مثل هذه الخرافات أو الترّهات، فإن المثقفين ما كانوا يستطيعون إضافة أيّ إثبات أو دليل على صحة هذه الروايات... حتى كان اكتشاف جزيرة غرينلاند في القرن السادس الذي كشف أن هذه الكائنات الغريبة هي الاسكيمو في خليج بافن، بجزماتهم المصنوعة من الفرو، ونعالهم الثلجية العريضة التي يمشون بها على الثلج. وقد كان ذلك مناسبة للمستغرقين [العالمين باللغة والأدب الإغريقيين ـ اليونانيين] لكي يتذكّروا رواية أفلاطون (٤٢٦ أو ٤٢٧ ـ ٣٤٨ و٣٤٧ ق.م)، التي لم يصدّقها قط أحد، وفيها يصف أرضاً تشرق فيها الشمس طوال ثلاثين يوماً باستمرار من غير أن تغرب. كيف عرف أفلاطون ومعاصروه الدائرة القطبية التي لم تكن قد اكتُشفت بعد؟

أما في ما خص المناطق القطبية الجنوبية، فقد دارت الشائعات حولها قبل فترة طويلة من اكتشافها. ففي مطلع القرن، كان بعض الجغرافيين يعتقدون بعد أن الأرض التي نشاهدها في ما وراء الزوابع والجليد الساحلي في المحيط المتجمّد الجنوبي لم تكن تتألف إلاّ من سلسلة من الجزر. وطالما أن المحيط الشمالي مغطىً بكتل الثلج التي تنساق مع التيار، فقد أحدثت الطبيعة، دونما أي جدال، النوع نفسه من المحيط في القطب المقابل (القطب الجنوبي). ومع ذلك كان هناك بحّارة يزعمون أن ثمة مدى هائلاً من الأرض. كيف يسعهم أن يحزروا ذلك؟ كان القطب الجنوبي أكثر أمكنة

العالم برودة؛ لم يكن فيه أي شجرة، ولم يكن هناك أي ساكن في مسافة ثلاثة آلاف كيلومتر من جميع الجهات، وحدهما حملتان استكشافيتان اثنتان اقتربتا من هناك.

ومع ذلك، ومرة جديدة، تتكشف روايات البحّارة عن أنها صحيحة. ونحن نعرف اليوم أن القطب الجنوبي هو قارّة تكاد تكون بكبر أوروپا وأستراليا معاً. واليوم أيضاً، تبقى مساحة ١٥٠٠ كيلومتر من السواحل غير مستكشفة، والإنسان لم يطأ سوى واحد بالمئة من مساحتها.

على زمن السيد المسيح، سمع الناس الحديث عن الأراضي الصغيرة المعروفة اليوم بجزر ماديرا[(٦)]، وجزر الرأس الأخضر[(٧)]، وجزر الكناريّ[(٨)]، وجزر الآزور[(٩)]. غير أن الجغرافيين أكدوا بعناد حينذاك أنه لا يوجد هناك أي أرخبيل صوب الغرب، حيث كانت الشائعة تموقعه. وكانت الروايات الشعبية تتضمّن، بالحري، الكثير جداً من التفاصيل لكي تكون مبتكرة من الألف إلى الياء. إن أحداً ما، في الزمن القديم، قد رأى هذه الجزر حقاً.

ولعلّ الخرافة الأكثر عناداً في تاريخ استكشاف الكوكب هي الخرافة التي تمسّ أستراليا. لقد ورث عصر النهضة الأوروپية من العصور القديمة فكرة أنه كان هناك في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية قارة مترامية الأطراف مجهولة، كانوا يشيرون إليها، عموماً، على الخرائط باسم «**الأرض الجنوبية المجهولة**» (Terra Australis Incognita)، باستثناء خريطة واحدة رسمها پومپونيوس ميلا سنة ٤٠ قبل الميلاد (ما تزال محفوظة إلى اليوم)، وفيها تدعى «**المتقاطرات**» [الأجزاء الواقعة على الجهة المقابلة من الكرة الأرضية]. وفي خلال القرون، تبادل بحّارة سابقون حكايات وقصصاً تتعلّق بهذه القارة الشبحية التي تمتد جنوبي الهند. وقد حكمت لهم أو صوّبتهم الأحداث الوقائع. فلمّا عاد الرحالة الهولندي آبيل تاسمان (١٦٠٣ ـ ١٦٥٩) من رحلته الطويلة سنة ١٦٤٢، ترك وجود أرض فسيحة الأرجاء في هذا الجزء من المحيط، ميدان الأسطورة. ولكن كان ينبغي انتظار اكتشافها الرسمي سنة

١٧٧٥ على يد القبطان والرحالة الانكليزي دجيمس كوك (١٧٢٨ ــ ١٧٧٩)، الذي استولى عليها باسم ملكة بريطانيا العظمى، لكي يُجلى لغز **الأرض الجنوبية المجهولة**.

هناك عدد لا بأس به من الخرائط القديمة التي رُسمت عليها وعُيِّنت بدقة بعض أجزاء العالم قبل اكتشافها بقرون من الزمن. وفي مؤلفه «**خرائط ملوك البحار القدامى**»، يصف الدكتور تشارلز هاپغود خرائط يونانية يبدو أنها كانت من نتاج المعارف العلمية المفصّلة. وقد استُخدمت، بالحري، تالياً، في وضع خرائط الكرة الأرضية.

في القرن الثالث قبل الميلاد، لم يكتفِ العلاّمة اليوناني إراتوسثينيوس برسم الأرض بشكل كرة، ولكنه قدّر قياس المحيط والقطر بـ ١,٣ بالمئة تقريباً بالنسبة إلى تقديرات اليوم. وحسب أن العالم القديم كان يحتل ثلث محيط الأرض، وهو رقم قريب على نحو مدهش، من الواقع والحقيقة. فكيف استطاع إراتوسثينيوس أن يتحرر من عقيدة أرسطو (٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق.م.) الذي كان يعلّم أن العالم إنما يتألف في مجمله من أوروپا؟ وكان أرسطو يؤكد أنه لا يمكن أن يوجد أي قارات أخرى، وقد اعتُبرت أفكاره حجة بكيفية شبه عامة حتى حقبة متقدمة من القرون الوسطى.

في سنة ١٩٢٩، اكتُشفت في استنبول خريطة مرسومة بصورة رائعة سنة ١٥١٣ على يد أميرال تركي [عثماني] يدعى پيريس رئيس. وقد دوّن هذا الأخير على خريطته أنه استوحى «خرائط قديمة» لمصر. وهي تُظهر بوضوح حدود كل من أميركا الشمالية والجنوبية، والقطب الجنوبي مموقع تماماً بالنسبة إلى إفريقية. وتضمّ مكتبة الكونغرس في الولايات المتحدة الأميركية عدداً وافراً من الخرائط التي يعود تاريخها إلى القرون الوسطى، تشير بدقة مذهلة إلى سواحل أجزاء من العالم كان يُعتقد أنها كانت مجهولة في تلك الحقبة.

لقد كان واضعو الخرائط هؤلاء يعرفون، على ما يظهر، أسلوباً محدَّداً

لقياس خطوط الطول والعرض، وهي طريقة لم تكتشفها حضارتنا إلاّ في القرن الثامن عشر.

إذا ما كنّا مستعدّين للقول باحتمال أن تكون الأجهزة الفضائية قد حلّقت فوق المحيطات والقارات في فجر الزمن، وأنه من هذه المركبات نزلت إلى الأرض كائنات للاتصال بسكان كوكبنا، ندرك على الفور مصدر هذه الخرائط، والخرافات، والشائعات التي تتكشّف في ما بعد عن أنها صحيحة وحقيقية.

أعترفُ أنني، شخصياً، لست أرى تماماً كيف يمكن تفسير هذه الحال بخلاف ذلك. وبالوسع أيضاً الافتراض أنه، قبل عصر اليونان الكلاسيكية المجيد بكثير أو في أثنائه، حدثت استكشافات واسعة النطاق، بقيت مجهولة منذ ذاك وإلى الأبد. قد يكون الأمر كذلك. وقد يكون أيضاً أن روّادنا الفضائيين الودّيين قد جعلوا بعض المستكشفين يحلّقون فوق الأراضي التي كانت مجهولة آنذاك.

وهذا ليس من غير أن أتذكّر الأساطير القديمة حيث يتعلّق الأمر بأشخاص نُقلوا عالياً جداً في الجو بوساطة الطيور. لقد طرحت السؤال على سالي، زوجتي، وهي موثّقة (من تجمع الوثائق والمستندات وترتّبها وتحتفظ بها لمؤسسة أو جماعة... الخ) من الطراز الأول، وشغوف بالميثولوجيا:

ـ هل هناك روايات يصفون فيها الأرض كما نراها من علو شاهق؟

وعلى الفور، تذكر لي روايتين:

ـ هناك رواية تعود إلى بابل القديمة. إنها قصة إيتانا، ملك كيش، الذي لم يعقب وارثاً يخلفه، فتمنّى بحرارة الصعود إلى السموات لكي يجد إلهاً يمكن أن يساعده على حل مشكلته.

وتناولني الترجمة، فأقرأ:

«يطلب إيتانا إلى نسر أن يتفضّل بحمله. فيُعلم النسر إيتانا أنهما سيرتفعان بسلسلة من الطلعات إلى المكان الذي يذهبان إليه». وأرفع عينيّ.

ـ لكأنه صاروخ ذو مراحل ثلاث يضع مركبة فضائية في المدار.

وأواصل قراءتي، ثم إني أقول:

ـ إن النسر يقدّم ملاحظات حول الأرض والبحار التي يحلّقان فوقها، مثله في ذلك كمثل قبطان السفينة الذي يحاول تسلية ركّابه.

اسمعي هذا: «انظر، يا صاح، كيف هي الأرض، تأمل البحر وسفوح الجبل. انظر، إن الأرض تغدو جبلاً، والبحر يتغيّر إلى مياه من...» إن الجزء من اللوح يتوقّف هناك.

وتقول زوجتي:

ـ تذكّر ما قاله لك إسكوت كارپنتر[١٠]، من أنه من أعلى قمة من أعلى جبل، ليس للرؤية أي علاقة بالرؤية التي تكون لنا من مركبة فضائية.

وأعمد إلى الإتيان بإضبارة دوّنت فيها محادثاتي مع كارپنتر. وأقتبسه:

ـ «إن ما أذهلني، هو رجحان المحيطات والزرقة. بقدر ما نبتعد، بقدر ما نرى المحيط».

وتلاحظ سالي:

ـ مثل إسكوت كارپنتر، سرعان ما لاحظ النسر وإيتانا البحر. ومن هنا، تغدو قصتهما تقنية أكثر. إنهما يستعملان عبارة السير المزدوج للإشارة إلى الوقت الذي يقضيانه لكي يقوما بصعودهما. لقد كان ذلك، من غير أدنى شك، مقياساً للمسافة مألوفاً بالنسبة إلى محارب في تلك الحقبة من الزمن.

ـ ربما كان الأمر كذلك، ولكن ليس لديّ معرفة بمقياس من هذا النوع. كم يساوي السير المزدوج؟

ـ إن الوقت المزدوج، أو السير الحثيث، يجب أن يمثّل سرعة تراوح ما بين ستة كيلومترات إلى اثني عشر كيلومتراً في الساعة، بحسب اعتقادي. وفي قصة إيتانا، في نهاية المرحلة الأولى من الطيران، ارتفع الاثنان ـ نسره وهو شخصياً ـ بسير مزدوج مدته ساعة.

ـ الأمر الذي يعني، إذاً، أنهما اعتقدا أنهما على ارتفاع هو ما بين ستة كيلومترات واثني عشر كيلومتراً. إن الأمر شيّق. وإذا كان إيتانا قد حلّق، بالفعل، برفقة روّاد فضائيين، فإنها حقاً نوع التفاصيل التي يكونون استطاعوا أن يجعلوه يلاحظها.

ولكن، لنرَ التتمة: عقب انقضاء ثلاث ساعات من السير المزدوج، يبدو البحر شبيهاً بـ «قناة بستانيّ». ماذا يمكن أن يعني ذلك؟

تقول سالي:

ـ لعله يودّ التحدث عن قناة تصريف أو ريّ. أنا أعتقد أن أحد البحار الأكثر صغراً قد يبدو له جدّ ضيّق. يقول إسكوت كارپنتر تماماً «إنما في المدار الأرضي نكون، بعد، قريبين جداً بحيث لا نرى إفريقية إلاّ إذا كنا فوقها بالضبط؛ نميّز خضرة الأدغال، وسمرة الصحراء...» لعلّ إيتانا لم يرَ غير شريطة من المحيط في الأُفق في خلال هذا القسم من الرحلة.

ـ وتقول الأسطورة بعد ذلك إن إيتانا ونسره وصلا إلى «صعيد النجوم الثابتة». وهناك أيضاً، تتوقّف القطعة فجأة. ولكن لعلهما وصلا في الوقت الذي تضعف فيه الجاذبية الأرضية، ويعطي أحدهما الآخر مساراً محدَّداً. في الواقع، يبدو على إيتانا مظهر من لا يودّ الصعود أعلى من ذلك، على حين غرّة.

تقول سالي:

ـ لعلّ انعدام الجاذبية قد أسقمه قليلاً. وهكذا، يكون البابليون الذين رووا هذه القصة يعرفون احتمال الوجود على صعيد مداري!

ـ غير أنهما يتلقيان دفعة جديدة، ويتسلّقان بعد. وربما كانت قصة إيتانا قد تحوّلت تماماً لفرط ما تُنوقلت من فم إلى أُذن؟ باختصار، بعد ساعة أخرى من السير المزدوج، يبدو البحر شبيهاً بـ «حديقة حيوانات». وبعيداً أكثر، تبدو الأرض مثل «جنينة»، والبحر يشبه «سلة من قصب».

وتقول سالي:

ـ لست أدري كيف يمكن تصوُّر كل هذا دون السُكاك (= الهواء بين السماء والأرض في الجزء الأعلى من الغلاف الجوي). وليست أوصافه بعيدة كثيراً عن أوصاف إسكوت كارپنتر، أو روّاد فضاء آخرين، وما نشاهده في الرسوم الفوتوغرافية التي عادوا بها. أنا تصوّر تماماً أن أشكال البحار والقارّات قد تكون ذكّرته بأمور مألوفة من مثل قطيع، أو جنينة، أو سلّة قصب.

ـ وساعة أخرى بعد من الصعود، ولا يعود إيتانا يميّز البحر مطلقاً.

هوذا بالضبط ما رواه إسكوت: «بقدر ما نبتعد، يكون المظهر العام أزرق، بسبب أبخرة الماء المعلّقة في الجو».

ـ إنّه ليُقال، إذاً، إنّ أحداً قد وصف طيراناً حقيقياً في السُكاك!

ـ صحيح. كيف كان بوسع المؤلف أن يحزر ماذا تشبه الأرض من على ذلك العلو فيما لو لم يعاينها بعينه؟

ـ حسناً، وما هي أسطورتك الثانية، الآن، يا سالي؟

ـ إنّها تستند، ربما، إلى المغامرة نفسها. إنها تتعلّق، في الواقع، بالإسكندر الكبير (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م.)، الذي كان قد أمضى بعض الوقت في بابل حيث يؤكد المؤرخون أنه كان محاطاً بالكهنة والسحرة.

ـ هل أن تحليقه ينطلق من بابل؟

ـ إننا نجهل ذلك. إنهم يمثّلونه وهو يهمّ بالتحليق في عدد من النقوش الضئيلة البروز واللوحات الجدرانية في اليونان، وعلى جدران رومانية، وحتى لدى الأقباط والأرمن، وفي سورية، وفي فرنسا، في عصر ما قبل التاريخ. غير أننا لا نرى مطلقاً عملية الإطلاق.

ـ هل أن هناك أوصافاً أو رسوماً لما قد يكون شاهده في أثناء طيرانه؟

وتقول مستشيرة ملاحظاتها:

ـ يروون غالباً القصة على هذا النحو: في تلهُّفه على فتح عوالم جديدة، كان الإسكندر يتمنّى اكتشاف القبّة السماوية. فقبض، إذاً، على أربعة طيور كبيرة، وحرمها القوت طوال ثلاثة أيام. ثم إنه شدَّ الأربعة معاً إلى نير علّق به سلّة كبيرة الحجم. وجلس إذ ذاك في السلة، حاملاً بيده عصا طويلة ربط في طرفها قطعة من اللحم. وسرعان ما طارت الطيور حاملة إياه، على رجاء التقاط قطعة اللحم.

قلت ضاحكاً:

ـ ماهر! أمر لا يكاد يصدَّق، أليس كذلك؟

وتقول سالي:

ـ إذا ما كان قد حلّق حقاً، فإنه ليدهشني أن يكون حُمل هكذا. غير أن المؤلفين لم يكن لديهم تفسيرات كثيرة في تصرُّفهم.

ـ وفي ما بعد، ماذا حدث؟

ـ بعد فترة من الوقت، أصبح الهواء مثلجاً...

ـ عجباً! كنت أحسب أن القدامى كانوا يعتقدون أن الجو يدفأ مع الاقتراب من الشمس.

ـ على أي حال، لقد ذاب جناحا إيكاروس، وعربة فيتون[١١] السماوية اشتعلت فيها النار. ويبقى أن الاسكندر قد يكون التقى رجلاً ـ طائراً ربما، جعله يلاحظ أنه ليس هناك ما يفعله في الأعالي.

ـ أمر منطقي، الملاّح القديم المحنّك يحمل الملاّح الشاب العديم الخبرة على توخّي الحيطة والحذر. . .

وتقول سالي:

ـ إني لأتساءَل عمّا إذا لم يكونوا قد اتصل بعضهم ببعض باللاسلكي. لا، ليس ذلك محتملاً البتة. لم يكونوا يتكلمون اللغة نفسها. ولئن كان روّاد الفضاء القدامى قد اتصلوا بسكان الأرض، فيسكون ذلك، بالحري، بوساطة التخاطر (تناقل الخواطر والوجدانيات من عقل إلى عقل على البعد، بغير الوسائل الحسية المعروفة). ولكن لنعد إلى الاسكندر؛ فالقصة تروي أن الخوف تملّكه، وأنه نظر إلى أسفل، نحو الأرض، ولعلّه وصفها بأنها سطح نورج (أو بيدر) تلتفّ حوله حيّة: **البحر**.

ـ إنها كذلك مقارنة صحيحة تماماً؛ ففي بعض الصور الفوتوغرافية التي التُقطت من أجهزة فضائية، يحمل البحر والسحب جميعاً على التفكير في الحيّات. وأحسب أننا نرى الاسكندر يعود فيطأ الأرض الصلبة من جديد.

ـ نوعاً ما. فإذا ما كان قد نجح في الهبوط بنعومة ـ أريد أن أقول، في الواقع، وليس في الأسطورة ـ، فلأن مركبته الفضائية كانت متقنة أكثر من كل المركبات التي صنعها الأميركيون والروس حتى الآن. ويبدو أن القصة تشير إلى أنه هبط على مسافة مسيرة سبعة أيام من معسكره، وكاد يقضي جوعاً وهو في طريق العودة.

لماذا كانت الحاجة إلى الطيران تُعتبر ملحّة كثيراً بالنسبة إلى الإنسان، منذ الأزل؟ أقول ذلك بيني وبين نفسي، وأنا أُفكّر في الأساطير التي لا تعدّ

ولا تحصى، المخصّصة له في جميع ثقافات العالم، بما في ذلك الثقافة الغربية.

لماذا جازف البشر بحياتهم، أقوياء في يقينهم أن الطيران هو أمر ممكن؟ ما الذي أقنعهم بذلك؟ هل كانت أساطير الرجال الطائرين هي المسؤولة الوحيدة؟

تحطّم سيمون، الساحر في زمن الأمبراطور الروماني نيرون (٣٧ ـ ٦٨م.) أرضاً في ميدان روما (الفوروم). وتحطّم لدى قاعدة أحد الأبراج امرؤ مغربي يدعى اسماهود، جرّب أن يُري أحد أباطرة بيزنطة، من أسرة كومنينوس (وهم ستة أباطرة حكموا الأمبراطورية الرومانية الشرقية من سنة ١٠٥٧ إلى سنة ١١٨٥)، أنه يستطيع الطيران. وفي القرون الوسطى، قفز راهب في مامزبري (في انكلترا) يدعى أوليڤر من أعلى سطح بعد أن ثبّت على جسده جناحين من خشب وقماش. وقام أحد تلامذة العبقري الايطالي ليوناردو دا ڤنتشي (١٤٥٢ ـ ١٥١٩) واسمه دانتي، بتجربة الآلة الطائرة التي ابتكرها معلّمه، فقضى بسببها. ونعرف أيضاً من هؤلاء الذين حاولوا الطيران صانع أقفال فرنسياً في القرون الوسطى يدعى بينييه، وخوان تورتو في البرتغال، وكاسپار موهر كاهن، فورتمبرغ الطائر في ألمانيا.

[وعند العرب، حاول المخترع الأندلسي عبّاس بن فرناس، المتوفى سنة ٨٨٨، الطيران برداء من ريش. فسقط على زمكّه، وقضى نحبه].

في مطلع القرن السادس عشر، صنع الأب جان داميان جناحين من ريش الدجاج، وتمنطق بهما، وقفز من سور في قصر سترلنغ. وقد بقي حيّاً، وروى مغامرته. وكان هناك أيضاً الخيّاط الصغير في مدينة أولم الألمانية، ولوي ـ پيير موبار الشاعر، والكاپيتين جان ـ ماري لو بري، وشخص يدعى باكڤيل. وفي النهاية، في سنة ١٨٥٣، صنع المخترع الانكليزي السير جورج كايلي (١٧٧٣ ـ ١٨٥٧) طائرة شراعية صغيرة، حملت ولداً. وهو من حدّد جميع مكوّنات الطائرة الحديثة. وفي سنة

١٨٩٦، صنع المهندس الألماني أُوتو ليلنتال (١٨٤٨ ــ ١٨٩٦) طائرة شراعية قادرة على نقل إنسان، ولكنه تحطّم أرضاً وهو على متنها، وقضى نحبه. ويُعتبر ليلنتال رائد الطيران الشراعي.

إن جميع هؤلاء الأشخاص أخطأوا، أو بالحري، بكيفية ما، كانوا كما لو أنهم خُدعوا. هل أن يقينهم كان يستند لدى الانطلاق إلى واقع أو حقيقة؟ هل كان يستند إلى روايات تعود إلى أزمنة سحيقة حيث طار البشر، فعلاً، كما يقولون؟ روايات صحيحة صحة روايات الأب جان داميان، أو أولئك الرجال الذين كانت وجوههم على صدورهم؟ هل كنتم تعلمون أنه اكتُشفت تصاميم مفصّلة لطائرة ذات محرك في رقّ سنسكريتيّ؟

في الديانات القديمة، كانوا يمثّلون دوماً آلهة قادرة على التحرك في الأجواء، أو بارزة من السحب. وقد شاهدتُ المئات والمئات من الرسوم والمنحوتات تمثّل آلهة مجنّحة، لها جسم طير أو رأسه، أو يحمل الرأس على التفكير بالخوذة الفضائية.

وإذا لم نرَ قط هذه الآلهة المزعومة من غير ملابسها الفضائية، فإننا نحسب أنها صُنعت هكذا، أو أن ذلك كان لباسها العادي، وكانوا يمثّلونها على هذا النحو في ما بعد على الجدران والنقوش الضئيلة البروز. ليس هناك أمر منطقي أكثر من ذلك.

إن عبارة من العالم النفساني السويسري كارل يونغ (١٨٧٥ ــ ١٩٦١) تفسّر كيف نشوّه ونعقلن حدثاً غير منتظر كلياً وغير قابل للتفسير قَبْلياً، ونحن ننقله من فم إلى أُذن: «لما كان هناك كمّ كبير من الأمور التي تتجاوز الإدراك البشري، فإننا نستعمل باستمرار عبارات رمزية لتمثيل مفاهيم لا نفهمها تماماً.».

بمعنى آخر، إن امرأً بدائياً يرى طيّاراً أو رائداً فضائياً يحطّ على الأرض بجهازه سيروي، على وجه الاحتمال، لمن هم حوله أنه كان له جناحان، أو أنه كان واقفاً على عربة وهّاجة، لكي يجعل الأمر أسهل على التصديق.

وسيكون عاجزاً كثيراً عن وصف مركبة فضائية.

قبل اكتشاف إفريقية، لم يكن جميع الأشخاص العاقلين يرون إلا في ذلك خرافة ليس إلاّ، في جملة الأساطير التي كانت تذكر أرضاً رهيبة، تمتدّ هناك، غير بعيد عن خط الاستواء؛ بلاد تسفع باللون الداكن أو الأسود بشرة البشر. حتى لمّا أرسل المستكشفون الأوائل تقارير تؤكد وجود سكان أصليين سود في إفريقيا وفي استراليا، فإن العلماء والعلاّمة رفضوا تصديق ذلك.

نحن ننزع، خصوصاً، إلى تصديق ما نتمنّى تصديقه، ونجد صعوبة في مواجهة أحداث أو وقائع منعزلة وغير مفسَّرة، إذا ما عارضت الفكرة التي لدينا عن العالم. لعلّنا ضحايا إغلاقات ذهنية ستبدو سخيفة بعد ألف سنة.

هوامش المترجم

(١) **ڤنلاند**: أبعد البلدان غرباً من تلك التي اكتشفها الڤايكنغ حوالى سنة ١٠٠٠ للميلاد، وتقع بلا ريب، في أميركا، بين اسكتلندا الجديدة [نوڤا سكوتيا] ونهر الهدسون. ونوڤا سكوتيا هي إحدى المقاطعات «البحرية» في كندا، على المحيط الأطلسي.

(٢) **غرينلاند**: جزيرة دانمركية، شمالي شرقي أميركا، تغطي الثلوج معظمها. اكتشفها سنة ٩٨٢ إريك الاحمر، وأعيد اكتشافها في القرن السادس عشر، على يديّ ديڤيس وهدسون. وقد استعمرها الدانمركيون ابتداءً من سنة ١٧٢١، وهي مقاطعة دانمركية منذ سنة ١٩٥٣، وتتمتع منذ سنة ١٩٧٩ بوضع استقلالي وحكم ذاتيّ داخلي. مساحتها ٢,١٧٥,٠٠٠ كيلومتر مربع.

(٣) **إسلنده**: جزيرة في شمالي المحيط الأطلسي، جنوبي شرقي غرينلاند، تكثر فيها المَجْلَدات والبراكين. في القرن التاسع كانت بداية الاستعمار الاسكنديناڤي في «أرض الثلج» هذه. وقد استقلّت سنة ١٩٠٣، وهي اليوم جمهورية مساحتها ١٠٣,٠٠٠ كيلومتر مربع.

(٤) **أرخبيل فيرويه**: هو دانمركي، يقع شمالي اسكتلندا، ويتمتع بالاستقلال منذ سنة ١٩٤٨.

(٥) **نيو فاوندلاند**: جزيرة كبيرة في أميركا (مساحتها ١,١٢٢,٩٩٩ كيلومتراً مربعاً) تقع عند مصبّ نهر سان لوران، الذي يشكّل مع شمالي شرقي لابرادور، إحدى مقاطعات كندا البالغة مساحتها ٤٠٤,٥١٧ كيلومتراً مربعاً. ونيو فاوندلاند اليوم هي ثانية

المقاطعات الكندية بعد أن غدت كندية سنة ١٩٤٩.

(٦) **ماديرا**: جزيرة پرتغالية في المحيط الأطلسي، غربي المغرب، اكتشفها الپرتغاليون سنة ١٤١٨، مساحتها ٧٤٠ كيلومتراً مربعاً.

(٧) **الرأس الأخضر**: أرخبيل بركاني، في المحيط الأطلسي، غربي السنغال، مساحته ٤٠٣٣ كيلومتراً مربعاً، استقل سنة ١٩٧٥، وكان سابقاً من الممتلكات الپرتغالية.

(٨) **جزر الكناريّ**: أرخبيل اسباني في المحيط الأطلسي، شمالي غربي الصحراء الكبرى، مساحته ٧٢٧٣ كيلومتراً مربعاً.

(٩) **الآزور**: أرخبيل برتغالي في المحيط الأطلسي، مساحته ٢٣٣٥ كيلومتراً مربعاً.

(١٠) **إسكوت كارپنتر**: ثاني رائد فضائي أميركي (مولود سنة ١٩٢٥) يقوم بتحليق فضائي مداري، في المركبة «اورورا ـ ٧». قام برابع تحليق في المشروع الفضائي مركوري، مطوّقاً الأرض ثلاث مرات في ٢٤ أيار ١٩٦٢، وقد أدار قسماً من التحليق يدوياً. وقد شارك مع ستة أشخاص في نيسان ١٩٥٨ في «مشروع مركوري القومي لفن الطيران والفضاء». ولكنه في سنة ١٩٦٤، كسر ذراعه في حادث دراجة نارية، فمنعه ذلك من تحريك ذراعه الأمر الذي أبعده عن مشروع الطيران الفضائي الذي نُقل منه لكي يتولى بعد سنة (١٩٦٥) قيادة فريقين اثنين في مشروع «سيلاب ـ ٢» ـ المختبر البحري، الذي تطلّب العيش والعمل على عمق ٢٠٥ أقدام تحت سطح الماء في المحيط الاطلسي كجزء من جهود البحرية الاميركية لإيجاد طرائق إنقاذ أفضل بالنسبة إلى الغواصات. وساعد في سنة ١٩٦٧ في إقامة مشروع «سيلاب ـ ٣»، ولكنه استقال من الخدمة في البحرية سنة ١٩٦٩، للانخراط في البحوث الخاصة بعمل الاوقيانوسات (= المحيطات) والطاقة.

(١١) **فيتون** [باللغة اليونانية معناها: مُشرق، متألق]: في الميثولوجيا اليونانية، هو ابن هيليوس، إله الشمس، وامرأة أومورية تُماثَل على نحو متباين بكليمين، أو پروت، أو رودس. فلما وبِّخ فيتون بطريقة ساخرة أو مهينة بأنه ابن غير شرعي، استغاث بوالده الذي أقسم على أن يُثبت أبوّته له بمنحه ما يطلبه. فطلب فيتون أن يقود عربة الشمس عبر السموات يوماً واحداً. واضطر هيليوس المقيّد بقسمه أن يدعه يقوم بالمحاولة. وانطلق فيتون، ولكنه كان عاجزاً تماماً عن السيطرة على جياد عربة الشمس، التي اقتربت كثيراً جداً من الأرض وراحت تحرقها. ولكي يحول دون مزيد من الخسائر والتلف، رشق زفس (زوس أو زيوس)، ربّ الأرباب، فيتون بصاعقة، فسقط أرضاً عند منبع نهر اريدانوس، الذي عُرف في ما بعد أنه نهر الپو في ايطاليا.

١٤

ما منشأ الذكاء البشري؟

إن قصة التطور لهي الأقرب، وتاريخ التحوُّل التدريجي للحياة، في خلال مئات الملايين من السنين، بمئات الملايين من الأشكال والمخلوقات المتنوعة، تاريخ عالم مأهول بمجموع أجسام وحيدة الخليَّة ولّد دماغاً مؤلَّفاً من مليارات الخلايا المنوّعة، هو قصة تتجاوز جميع القصص الميثولوجية، وجميع الميلودرامات (الميلودراما: مشجاة، أو تمثيلية عاطفية مثيرة) تمَّ تصوُّرها من قبل.

هذا هو الإطار العام الذي ليس فيه كل حدث آخر، وكل مغامرة أخرى، سوى تفصيل بسيط. إن الأمر يتعلّق ليس، وحسب، بأكثر القصص التي لا تُصدَّق التي سبقت روايتها، ولكن حتماً بالأكثر إدهاشاً وهي أخيراً، **قصتنا!**

هل أن الكائن البشري، الذي هو نحن ذروتها؟ ربما. لقد تطلّب مجرد رسم حدودها التي ما تزال جدّ غامضة، مئة وخمسين سنة من الدراسة عبر

العالم أجمع. وتنقص بعد فصول كبيرة. وهناك عدد من المناقشات حول كيفية جمع كل العناصر التي كشفتها الدراسات، وتفسيرها. وكثيرون من الاختصاصيين يعارضون في السبب الذي من أجله نرى الحيوانات جميعاً، باستثناء الإنسان، مفرطة التخصُّص بحيث لا يسعها التطور.

بالوسع القول إن الإنسان هو الأقلّ تخصُّصاً من بين جميع المخلوقات الحية؛ الطبيب العامّ (الطبيب الذي لا اختصاص له). وهذا هو اللّغز الكبير الذي يصطدم به النشوئيون [المؤمنون بمذهب النشوء والارتقاء].

إننا نجهل لماذا يواصل جنس ما، **جنسنا**، الكفاح من أجل أن يغدو أكثر قوة، وأكثر حكمة، وأكثر معرفة. سيذكّرنا البعض بأصولنا الحيوانية؛ مع ذلك، نحن جميعاً تقريباً نشعر في قرارة نفوسنا، أنه يتعيّن علينا مواصلة جهودنا واتخاذ خيارات. وأنه يتعيّن علينا التسامي على مخاوفنا، وعلى سذاجتنا، وعلى كسلنا. ويتعين علينا تقوية خاصّية تعجُّبنا، وإرادتنا على الإدراك، والتصرف. إن العلامة الأكثر تشجيعاً في صحتنا هي، ولا ريب، أننا ما نزال بعد قادرين على الخروج من القوقعة الخانقة للانجازات التقنية لكي ننظر حوالينا بالشعور بعدم الرضا وجميع أنواع المطامح.

ما هو منشأ سمة الطبع هذه المشتركة في نوعنا؟ هل يُعقل أن تكون غريزية، وأن نكون ورثناها من كائنات فوق بشرية كانوا يمتلكونها شخصياً؟ في سياق جميع بحوثي واستكشافاتي حول **«الأسرار القديمة»**، أجد نفسي هكذا عائداً إلى هذا السؤال الكبير.

على ذلك، إذاً، أنا أغوص الآن، في الأعمال الانثروپولوجية التي لها نزعة مؤسفة لأن تكون متجاوَزة بسرعة ـ بغية أن أُعيد ثانيةً إلى الذاكرة نظرية النشوء والارتقاء المطبَّقة على البشرية (ولكن هل هي تطبّق في نهاية المطاف؟!).

حتى سنة ١٨٥٩، كان الجميع تقريباً يعتقدون أن الحيوانات والنباتات

كان لها دوماً المظهر عينه، وأنها ظهرت على الأرض بشكلها الراهن. حينذاك نشر العالم الطبيعي الانكليزي تشارلز داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) كتاباً زرع الاضطراب في علم الأحياء (البيولوجيا) جميعاً، وزعزع الإيمان الذي كنا نكنّه للتاريخ التوراتي في ما خصّ التكوين.

إن كتاب داروين «**حول منشإ الأنواع بطريقة الانتقاء الطبيعي**»، أثار ضجة. فقد بيعت نسخ الطبعة الأولى في يوم واحد. في هذا الكتاب، يوضح المؤلف أن الأنواع التي نعرفها هي نتيجة تطوّر الأنواع القديمة المختلفة جداً.

يقيم داروين نظريته على ملاحظات ثلاث: **أولاً**: إن الأفراد يختلفون في داخل النوع نفسه. بعضهم أكبر، وبعضهم أسرع في الركض، وآخرون أيضاً لديهم نظر أفضل، وعنق أقوى، أو أظافر أطول؛ **وثانياً**، إن معظم المخلوقات الحية تتناسل (تتوالد) بوفرة، ولكن الصغار، الأضعف لا يعيشون؛ **وثالثاً**، إن أولئك الذين يبقون أحياء ويتناسلون هم، إذاً، من وجهة نظر إحصائية، أُولئك الذين تقدم تغيُّراتهم الشخصية ميزة. إنهم يمثّلون «ثبات الأجدر»، أولئك الذين هم أكثر تكيُّفاً مع محيطهم أو بيئتهم.

في خلال آلاف الأجيال، يتلقّى الأفراد خصائص وراثية يحسّنونها بدورهم. وهكذا، تؤول تحوُّلات بطيئة إلى توليد أنواع جديدة.

غزيرة هي البراهين على تطوُّر الأنواع. فالأحافير (أو المستحجرات) تمثّل مليار سنة من السجلات والوثائق. وقد أتاحت دراسة الأجنّة اكتشاف وجود بنىً بدائية لدى الحيوانات الأكثر تطوراً. وان جسمنا نفسه فيه بقايا أو آثار أعضاء تتيح الحياة في الماء، وتسلُّق الأشجار. وقد قارن البيولوجيون بنىً مماثلة لدى جماعات من الحيوانات ذات النسب، واستخلصوا من ذلك مَنْ كان لها فرع مشترك في شجرة الحياة النَسَبية (شجرة النَسَب). وأخيراً، حوالى سنة ١٩٥٠، جعل اكتشاف نقل الدليل الوراثي الكروموزومات بوساطة

الـ D.N.A. ممكناً القيام بخطوة كبيرة إلى الأمام بالنسبة إلى العلم الجديد كلياً الخاص بالبيولوجيا الجُزَيْئية، متيحاً لها تفسير العملية الوراثية.

[راجع الهامش الخاص بالعالم كريك في نهاية الفصل الأول، بالنسبة إلى الـ D.N.A.].

مع ذلك، فإن نظرية داروين لا تسمح بعرض أو تحليل قفزة غامضة حدثت في حقبة حديثة نسبياً، في تاريخ تطور الحياة وتوالدها.

في خلال ثلاثة مليارات سنة، تُرجمت قصة التطور بكفاح ملحمي ودائم لتحسين الأنواع. وهكذا شكّلت قوى الطبيعة العمياء الحياة. ففي العالم الذي سبق ظهور الإنسان، لم يكن هناك مخلوق يتمتع بذاكرة، أو هو قادر على مواجهة المستقبل. وكانت للأجسام الحية، بمثابة إرادة وحيدة، إرادة الزحف، والعثور على شق أو صدع، وحجرة، وعشّ للجوء إليه في هذا الجبل من المادة الفاقدة الحياة. ولم يكن بوسع أيّ مخلوق حيّ أن يبكي على ضريح مخلوق حيّ آخر.

ثم إنه حدث انفجار صامت صغير.

في داخل الطبقات السميكة من جمجمة قرد كبير، تلقّت كتلة صغيرة من المادة النُخامية شرارة حياة، وراحت تتطوّر بأقصى سرعة.

وتمّ التحوُّل بصمت؛ صمت من طبيعة الصمت عينه الذي تخرج فيه الفطريات الكبيرة من التربة، ليلاً، في فُرجات الغابة. إن هذا العضو الرائع الذي سيحرر أو يطلق كل الطاقات في الكون، ويعلّمنا، مع ذلك، الرحمة، والحب، كبر بسرعة فائقة في القِحف (العظم الذي فوق الدماغ) الصغير الآن وقد أطلق نموَّه، على ما يظهر، شيء ما غير متوقَّع.

كيف ظهر دماغ الإنسان؟

لقد طرح هذا السؤال البسيط جداً، سنة ١٨٦٩، الْفرِدْ رَسِل والاس

(١٨٢٣ ــ ١٩١٣) معاصر العالم الطبيعي الشهير تشارلز داروين، وهو أحد مؤسسي الجغرافيا الحيوانية ونظرية الانتقاء الطبيعي.

ومذ ذاك، ما فتىء هذا السؤال يقلق النشوئيين. ولمّا تلقّى داروين المقال الذي طرح فيه والاس هذا السؤال، كتب «لا!» في الهامش ورسم ثلاثة خطوط تحت هذه الكلمة التي دوّنها بأحرف البداية الكبيرة، مضيفاً سلسلة من علامات التعجّب.

في نظر داروين، كان النمو المفاجىء للدماغ البشري عائداً إلى لعبة غير منتظمة للانتقاء الطبيعي، بالكيفية نفسها بالنسبة إلى ملايين الأجسام التي تعمر العالم. بالنسبة إلى والاس لم يكن ممكناً توضيح الذكاء البشري بغير التدخّل المباشر للقوى الكونية.

وانتهى الأمر بداروين بعد كل حساب، إلى الإقرار بأن مبدأ الانصلاح المحدود، أي فكرة أن الحياة لا يمكن أن تتطور إلاّ في إطار الكفاح ضد أشكال حياة أخرى أو التكيُّف مع البيئة، قد قُلب، في ما خصّ الإنسان، رأساً على عقب، على نحو مفرد. وأعلن أن عضواً من مثل العين أو الجهاز الهضمي لا يمكن أن يبلغ حدّ الكمال أو الإتقان إلاّ بالنسبة إلى استعمال معيّن في بيئة معيّنة. ومن أجل أن يفسّر داروين كيف نجح الإنسان في إطار الانتقاء الطبيعي في الحصول على دماغ يتجاوز كثيراً جميع الأدمغة الأخرى، اضطر إلى استدعاء فكرة صراع الإنسان الطويل ضد الإنسان، والقبيلة ضد القبيلة.

غير أن الأركيولوجيين لم يكتشفوا قط سوى أدلّة قليلة جداً على صراعات بين مقدّمات (= رتبة من الثدييات منها البشرية والقردية) وأي أُحفور بشري يسمح بالتحقُّق من مراحل التطور التدريجية. وحدها بعض حفنات من العظام والأسنان المحطمة تروي لنا قصة المقدّمات التي تمتد على مليونيّ سنة. ولتعقيد الأمور بعد أكثر، فإن هذه الأحافير مصدرها يقع على مسافة آلاف الكيلومترات.

إنّ هوة تنفتح، إذاً، ما بين الإنسان والقرد. فعمد أنصار داروين، على ذلك، إلى ردم الهوة بإقحامهم فيها عدداً ما من القبائل البدائية الحديثة، مهمتها تمثيل «الدرجات الناقصة» من سلّم تطور البشرية، وقد كان محكوماً على هذه القبائل بالاختفاء أو الزوال ـ بحسب ما أعلنه المنظّرون ـ بسببٍ من دفاعها دون البشري.

بالنسبة إلى معاصري الملكة ڤكتوريا (١٨١٩ ـ ١٩١١) الانكليزية، بدا ذلك كله منطقياً، ولا ريب. ففي نظرهم، لم يكن ثمّة أيّ شكوك في أن «أجناساً قاصرة، مجرّدة من القوانين» كانت بيولوجياً، أدنى من الإنسان الأبيض، وعاجزة تماماً عن الارتفاع إلى شرف المظلة أو القبعة العالية. وقد وضعوا حتى خطأً بعض الأجناس فوق مستوى القرد على نحو قليل، وحسب، واعتقدوا أنها لم تكن تطلق سوى قباع (مدّ الصوت والنَفَس في الخياشيم) والقوقأة أو «النقنقة» على طريقة الشمپانزي.

حوالى تلك الفترة، كتب والاس مقاله الاحتجاجي. لقد أمضى سنوات طوالاً في أوساط السكان الأصليين في الجزر الاستوائية، وكان يعرف أن نمط حياتهم القائم على القطاف أو جني الثمار لم يتطلّب قط منهم قدرات عقلية أو فكرية كبيرة؛ ومع ذلك، فقد أذهلته حيوية ذكائهم، وكتب:

«إن المتطلبات الذهنية لدى الهمجيين الأدنى كثيراً من أمثال الأستراليين أو سكان جزر أدامان الأصليين. . . لا تتجاوز مطلقاً المتطلبات الذهنية لعدد لا بأس به من الحيوانات كيف أمكن أن ينمو عضو ويتطور إلى ما يتجاوز كثيراً حاجات النوع الذي يخصّه؟

«إن الانتقاء الطبيعي ما كان ينبغي أن يمنح الهمجي إلا دماغاً «بالكاد» أرفع من دماغ القرد؛ والحال أن ما يمتلكه ليس أدنى إلا قليلاً جداً من دماغ الشخص المتوسط من أفراد مجتمعنا المثقف. . . أداة تطورت بكثير من التقدم بالنسبة إلى حاجات صاحبها.».

وذهب والاس، بعد، إلى أبعد من ذلك، فدحض الرؤية الداروينية للإنسان بملاحظة أن قدراته الفنية، والرياضية (الحسابية)، والموسيقية، ليس لها أي علاقة بالصراع من أجل الحياة أو التكيُّف مع الوسط. وقد أكّد أن شيئاً آخر قد تدخّل، وأن عنصراً روحياً مجهولاً قد أسهم في تكوين دماغ الإنسان.

وردّ داروين بقوله: «أنا لست البتة من رأيك، وآسف للأمر»، ولكن لم يقدّم أي معارضة جدية بالنسبة إلى والاس. واكتفى ببعض الأفكار حول وراثة تأثيرات العادة، وهي اليوم فكرة يدحضها العلم. ولكن ذلك بدا كافياً، ونسي عالم العلم تحدّي والاس، وبقي، ليس من غير أي جدارة، ثابتاً في مواقعه.

غير أن سؤال والاس المقلق عاد لكي يلاحقنا.

لقد عرفنا أن الإنسان البدائي لم يظهر قط البتة في الأصقاع النائية في استراليا، وأميركا الجنوبية، ولكنه ذهب إليها في خلال الهجرات. والحال هذه، فإن الشمس نفسها مثل شمسنا تدفىء هاتين القارّتين، والبحار نفسها تحيط بهما. فإذا ما كان الإنسان ظهر بمثل هذه الطبعية التي يريدون أن يبيّنوها، فلماذا لم يُحدث هذان المختبران الكبيران للتطور اللذان هما هاتان القارتان الاثنتان؟

ويبدأ بالتوضح، إذاً، أن ظهور الإنسان لم يكن محتّماً، ولا مفرّ منه. لعل «قوّة عليا» تدخلت في الأمر، وفقاً لما يقترحه والاس.

فضلاً عن ذلك، لقد قادتنا البحوث الأركيولوجية بعيداً جداً في حياة البشرية من غير أن تكشف لنا الصلة المحتملة ما بين الإنسان والمقدِّمات الأخرى. ونعلم الآن أن البشرية هي أقدم كثيراً ممّا كنا نعتقد.

بعد أن أمضى العالمان الأركيولوجيان البريطانيان لويس وميري ليكي ثلاثين سنة على أربعٍ، في كشط أعماق البحيرات من عصر ما قبل التاريخ في

إفريقية الشرقية الغنية بالأحافير، اكتشفا الجمجمة المتحجرة لمخلوق ينتسب، من دون أي جدل، إلى الإنسان. ولقد حطّم ضغط الطبقة الصخرية في خلال العصور الجمجمة إلى أكثر من أربعمئة قطعة هشة وسريعة العطب إلى حدّ كبير. وقد قضى الزوجان ليكي سنة كاملة في إعادة تكوينها؛ وهي مهمة تعادل إعادة تجميع قطع صدفة بيضة سارت فوقها شاحنة ـ على حدّ تعبير أحد الأركيولوجيين.

وقد عمّدا اكتشافهما باسم «**رجل إفريقية الشرقية**» (Zinjanthrope)، بحسب الكلمة العربية [**الزنج**] التي تشير إلى هذا القسم من القارة الإفريقية. وسرعان ما اعتُمد في أوساط العلماء التصغير المألوف Zinj (**الزنج**) للإشارة إليه. وكان الزنج لافتاً للاهتمام لسببين اثنين:

من جهة، لقد عُثر عليه بين الأدوات الحجرية المقطوعة أو المنحوتة. لم يكن **الزنج**، إذاً، يكتفي بما يقع بين يديه بل كان يفكّر، ويشكّل الحجر. ومن جهة أخرى، دلّت الطريقة الجديدة في التأريخ «الپوتاسيوم/ الأرجون»، في جامعة كاليفورنيا، في سنة ١٩٦١، على أن **الزنج** كان مسجًى في نعشه الصخري قرابة مليونين من السنين!

إذا كانت «ساعة» التوقيت بالنشاط الإشعاعي في الجامعة مضبوطة، فإن تاريخ إنسان العصر الحجري سيكون قد تراجع نحو مليون سنة قبل العصر الجليدي.

كان رأس **الزنج** مختلفاً جداً عن رأس الإنسان الحديث بحيث أننا إذا ما صادفناه اليوم في الطريق، حليقاً، ومرتدياً ملابس، فإننا سنتراجع مذعورين. فوجهه لم يكن يشكّل خطماً ناتئاً مثل وجه القرد. كان مسطحاً نوعاً ما، على صورة مجرفة، بفكّ ثقيلة تتيح له تحطيم العظام. وكان جبينه منحنياً كثيراً إلى الخلف إلى درجة يبدو معها أنه مسحوق، وبالتالي، فإن قحفه لا يمكن أن يستوعب إلاّ دماغاً معادلاً لنصف دماغنا.

وكانت أفكاره، على نحو أكثر، من باب الحدس أو المصادفة السعيدة، ولكنه كان يفكر. وكان هناك ظاهرة أخرى تميّزه كذلك من سائر أشكال الحياة. فهذه كانت متكيفة مع الوسط. وهو كان معمّماً أو مطلقاً. لم يكن له أسنان معوجّة أو أظافر، أو جناحان، أو مخالب، أو أشواك، أو منافس. وبدلاً من الركض على أربع كان يقف منتصباً تقريباً. وكان يتنقّل ببطء وتثاقل على الأرض مثلما وهو يتسلّق الشجر، كلما اتفق له ذلك. لكم هو أمر غريب أن يكون قد بقي حيّاً!

ولا نجد أي أثر للنار في الأماكن التي خيّم فيها في العصور السابقة للتاريخ؛ لعلّه لم يكن يعرف كيف يستخدمها. وإنه لمؤكد تقريباً أنه لم يكن يعرف الكلام.

بعد **الزنج**، أول مختصر للمخلوق دون البشريّ إن لم يكن بشرياً، في السجلات والوثائق والطبقات الجيولوجية، لم يعد هناك أبسط قطعة من العظام البشرية في متناول النظر طوال مليونيّ سنة على الأقل.

لقد عُثر على آثار أدوات حجرية بدائية ستدلّ على أن شكلاً من **شبيه الإنسان** (Genus Homo) كان موجوداً في ثلاث قارّات في خلال النصف الأول من العصر الجليدي. ولكن بالنسبة إلى الانثروبولوجي، تبقى هذه الحقبة جميعاً مغمورة بضباب سميك. فهنا وهناك، في قلب صحراء عمرها آلاف السنين، يحسب أنه يلمح أو يستشف خيالاً (أو صورة ظلّية) ذا حركات بطيئة، ووجه بدائي نصف همجي، ولكنه لا يشاهد أي علاقة لتطور **شبيه الإنسان**.

ولا يكتشف أثراً للإنسان إلاّ بعد مليونيّ سنة من عصرنا تقريباً، ويتعلّق الأمر بأحفور قد يكون بشرياً، اكتُشف في كهف بالقرب من پيكين، في الصين.

هناك، كان لدى صيّاد من العصر الحجري فكر فطن متطور كفاية لكي يصنع حجراً بحسب شكل مفيد، ويحمله معه عندما يذهب للصيد. وأفضل

من ذلك بعد، لقد تعلّم أن يحمل معه لساناً صغيراً من نار لطرد الشُقر (أي الحيوانات المتوحشة ذات الشعر الأشقر كالأُسود، والظباء، والأيائل) من كهفه وتدفئته.

وفقاً للعالم الانثروپولوجي كلارك هوويل، فإن استخدام إنسان پيكين المعتاد للنار يدلّ على مخلوق «ذي بصيرة كافية لكي يبقي تحت يده مؤناً من المحروقات، ويارع نوعاً ما لكي لا يدع نيرانه تنطفىء». مع ذلك، إذا كان قد تطلّب مليون سنة تطوُّر الإنسان من الزنج إلى إنسان پيكين، فإن مليوناً جديداً من السنين لن يكون كافياً، عادةً، لجعله ما قد غدا عليه الآن.

في مؤلفه الضخم **«قصة الحضارة»** يقرّ المؤرخ الكبير وِلْ ديورانت (١٨٨٥ ـ ١٩٨٠) ويعترف بالقول:

«لقد وُضعت مجلّدات هائلة مخصصة لإعلان معارفنا وإخفاء جهلنا في ما خصّ الإنسان البدائي... ليست الثقافات البدائية بالضرورة أسلاف ثقافتنا؛ وكذلك، قد تكون البقايا المنحلّة لحضارات أرفع تلفت وقت تراجع الثلوج...

«... إذا نحن تقبّلنا النظريات السريعة العطب في العلم المعاصر، فإن المخلوق الذي اكتسب، وهو يتعلم النطق، ميزة الإنسان كان ينتمي إلى أحد الأنواع القابلة للتكيُّف التي تكون قد بقيت حيّة بعد هذه القرون الجليدية، في خلال «المراحل الواقعة ما بين دورين جليديين» بينما كانت الثلوج تتراجع (وبقدر ما ندري، قبل ذلك بكثير)، اكتشف هذا الجسم الغريب النار، وتعلّم صنع الأسلحة، والأدوات، وشقّ بذلك السبيل إلى الحضارة.».

هوذا، إذاً، ما يضفي بعض المحترمية (كون الشيء محترماً أو جديراً بالاحترام) على الفكرة التي سبق لي أن قدّمتها في سياق هذا الكتاب: إن زيارات و/ أو بذوراً يعود الفضل فيها إلى تدخُّل جنس (= عِرْق) غريب عن منظومتنا الشمسية قد تكون هي السبب في قفزات البشرية الكبيرة إلى الأمام، أعقبتها حقب طويلة من الركود أو التقهقر.

لنواجه الآن هذا الطرح بالمعارف التي لدينا عن **مخلوقات من جنس الإنسان** (بشريات) سبق لنا وصفها.

كان **الزنج وإنسان پيكين** كلاهما من جنس الإنسان، **وهما مزوّدان بدماغ صغير**. وفي أثناء الفترة الطويلة جداً الفاصلة ما بينهما، **طرأ قليل جداً من التغييرات في حجم الجمجمة والبنية الجسدية في النوع**.

غير أنه، كما يلاحظ الدكتور ديورانت، **في خلال حقب واقعة ما بين دورين جليديين**، قام أحدهم باكتشاف ثوري: **النار**. إن **مأثرة فكرية مماثلة** كانت، ربما، جزءاً من السياق الطبيعي للتطور، ومع ذلك، **لم يفعل قط أي مخلوق حيّ آخر مثل هذا القدر**.

ولكن، على الجملة، لعلّ أحداً هبط من السماء، **علّم البشريات استخدام النار**. ومن يدري لعلّ جالية من الكائنات المتحضرة **عاشت على الأرض في خلال آلاف السنين التي دامتها الحقب الواقعة بين دورين جليديين** التي نجهل، عملياً، كل شيء عنها؛ ولعلّها اضطرت إلى الهرب لمّا جاء العصر الجليدي التالي ليدمّر المستعمرة ويزيل كل أثر لها. ولعلّ النار هي الإرث الوحيد، أو على الأقلّ، الأكثر دواماً الذي خلّفته هذه الكائنات لساكني الأرض ـ أيّ من تلقّفها، وحفظها، ونقلها لوضعها حيثما ستكون ذات فائدة.

إن إنسان نياندرتال ـ نوع **الإنسان** الذي عُرف تالياً، المختلف جداً عن **الزنج وإنسان پيكين** ـ قد يكون تماماً خلفاً منحلاً من جالية روّاد الفضاء المحتملة. **في** رأيي، بالوسع أن نتصوّر جيداً أن **إنسان نياندرتال** هو النتيجة المتأخرة لتهجين حدث ما بين روّاد الفضاء والشبيهين بالإنسان الذين سبقوهم.

إن لدينا، على الأقل، شبه اليقين أن بشر نياندرتال لم يكونوا يترجّحوا على غصون الأشجار مثل أسلافهم المفترضين ـ القرود. ووفقاً للتحليلات

التشريحية، كانت أيديهم وأرجلهم جدّ محدَّدة لكي تكون نتيجة تطوُّر أولئك الذين لهم سلف ساكن الأشجار في بضع مئات الآلاف من السنين.

لقد منح وادي نياندرتال، في ريتانيا (المنطقة الممتدة على نهر الراين، من الحدود الفرنسية إلى الحدود الهولندية)، في ألمانيا، حيث عُثر على جمجمة وبعض العظام، هذا الإنسان، اسمه. ومنذ ذلك الحين، عُثر على بقايا مئة وخمسة وخمسين من هذه البشريات الشديدة الشبه في ثمانية وستين مكاناً مختلفاً في أوروپا، والشرق الأدنى، وفي أمكنة سواها. إذاً، إن لدينا فكرة متماسكة ومفصّلة عن إنسان نياندرتال.

ضئيل، وقصير وسمين، لم يكن طوله أكثر من متر وخمسة وستين سنتيمتراً، في المتوسط. ولكن هوذا التفصيل الذي جعلني أفكّر في احتمال وجود إسهام (أو مشاركة) مورِّثات (جينات أو عناصر وراثة) غريبة: إن القحف ذا الجبين المنخفض كانت سعته ١٦٠٠ سنتيمتر مكعّب، إي ما يزيد بنسبة مرة ونصف عن سعة قحف الزنج وإنسان پيكين، وأكثر من سعة قحفنا بمئتي سنتيمتر مكعب!

مثّل علماء الإحاثة (علم الإحاثة هو علم يبحث عن أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة كما تمثّلها المتحجرات أو المستحاثات الحيوانية والنباتية) الأوائل إنسان نياندرتال على صورة حيوان أشقر، ثقيل، منفتح اللبَبَ (موضع القلادة من الصدر)، وجهه لا ذقن فيه. غير أننا اليوم، بلغنا الفكرة القائلة إن بشر نياندرتال لم يكونوا أغزر منا شعراً (متى فقدوا وبرهم أو شعرهم ولماذا، وهذا سرّ غامض آخر)، ولم يكونوا قط دوماً بهائم حمقاء.

ينزع الاختصاصيون المعاصرون، حتى، إلى التأكيد أننا إذا حلقنا شعر إنسان نياندرتالي، ومشطنا شعره، وألبسناه بذلة حسنة التفصيل، فإن بوسعه أن يتنزّه في شارع الشانزليزيه في باريس، من غير أن يجتذب الأنظار كثيراً.

كان **إنسان نياندرتال** يسلخ الحيوانات، وينتزع الجلد من اللحم غير الضروري، ويبسطه، ويمطّه، ويسمّره فوق العشب، فإذا ما جفّ، كان يرتديه لكي يدفئه.

لم يكن يصنع، وحسب، أدوات، ولكنه كان يصنع أدوات لصنع أدوات أخرى. وكان لديه شفرات بشكل منشار لقطع الحطب أو نشر العظام، وأزاميل، ومضارب، وشفرات محزَّزة مثبّتة بين مقبضين اثنين مستديرين من الرماح. وكان يستخدم كذلك، على وجه الاحتمال، أدوات من خشب متنوعة أصبحت، بالطبع، غباراً منذ زمن طويل!

كان **إنسان نياندرتال**، على غرار الإنسان الحديث، أيمن (يستخدم يده اليمنى). في الواقع، إن الجهة اليسرى من دماغه (تلك التي تحكم الجهة اليمنى من الجسم)، كانت أكبر من الجهة اليمنى.

ولكن، بينما أن الأجزاء الخلفية من الدماغ، التي تحكم النظر، واللمس، والرشاقة الجسدية، هي جدّ متطورة، فإن الأجزاء الأمامية، أجزاء التفكير واللغة، هي صغيرة، نسبياً. لقد كان دماغ بشر نياندرتال بكبر دماغنا، صحيح، ولكنه كان ذا تكوُّن مختلف. هذا **الإنسان** كان حتماً ذا عقلية تختلف كثيراً عن عقلية الإنسان [بوصفه نوعاً بيولوجياً] (Homo Sapiens) كما اخترنا أن نشير إليه.

من جهة أخرى، أتاحت دراسة مطوّلة إظهار أن **إنسان نياندرتال** كان يُطعِم ويُؤوي العرجان والمشوَّهين من أبناء نوعه. وكان يدفن موتاه في جحور كان يحفرها في الأرض، ويقفلها بحجارة مسطحة.

إن أحد الهياكل العظمية المشهورة أكثر من سواها هو هيكل عظمي لشاب يبدو أنه وُوري الثرى بحنان حقيقي. كان ممدَّداً في وضعة الرقاد، الرأس فوق الساعد، الذي كان يستند هو نفسه إلى كومة صغيرة من الصوَّان المجمَّع بدقة وعناية لكي يكون بمثابة وسادة.

وفي وقت معيّن، شرع بشر نياندرتال، في الاعتقاد بحياة مستقبلية (هل أن الفكرة جاءتهم من زوّار فوق بشريين؟). إن غالبية قبورهم تضمّ فأساً أو أدوات متنوعة، كما لو أنهم كانوا يعتقدون أنهم قد يحتاجون إليها.

والأمر المذهل أكثر، والمؤثر، هو العثور في أحد الأضرحة على كدسة من غبار الطلع من ثمانية أنواع من الأزهار، على الأقلّ: أنواع صغيرة ذات ألوان فاقعة. ولا يمكن أن يتعلّق الأمر بنزوة من الطبيعة. فلقد كانت المغارة عميقة جداً، وكان ينبغي أن يضعها هناك شخص ما. ويبدو، من جهة أخرى، أنه في خلال الحقبة الجليدية الأخيرة، ربما تسلّق أحدهم الجبل، ومهمته قطف أزهار من أجل الموتى.

لعلّ بشر نياندرتال قاموا بأسفار، ووجدوا ملجأ في الكهوف والمغاور، بالقرب من نيرانهم، قبل أن يتوزعوا في أوروبا. وفي خلال الثمانية آلاف سنة من وجودهم، إذا ما صدّقنا العظام التي عثرنا عليه، فإنهم لم يصابوا بغير تعديلات طفيفة جداً.

وحوالى سنة ٣٥٠٠٠ قبل الميلاد اختفوا كلياً، أو على الأقل، نحن لم نكتشف قط أي هياكل عظمية حديثة أكثر. ربما هم احتفظوا حتى النهاية بجبينهم المنخفض، كما لو أن القحف كان يحبس دماغهم.

وجاء، من بعد، نوع آخر من المخلوقات: **إنسان كرو ـ مانيون،** المختلف كذلك عن **إنسان نياندرتال،** مثلما كان هذا الأخير مختلفاً عمن سبقوه المعروفين. **وإنسان كرو ـ مانيون،** لا يبدو أنه ينتمي، بوضوح، إلى أُسرة النياندرتاليين نفسها ذات الجبين المنخفض، وواقية الوجه المدارية البارزة، والجسامة البدنية القصيرة. يمكن أن يكون كل ذلك منفّراً بالنسبة إلى القادمين الجدد. وقد أورد السر هاري دجونسون، العالم الانثروپولوجي البريطاني، هذه الفرضية الجريئة، ولكن التي لا تقلّ جدارة بالاهتمام: «إن الذكرى العرقية الغامضة لهذه المسوخ ذات المشية الشبيهة بمشية الغوريلا،

ذات الدماغ الماكر، وذات الميول المتوحشة، يمكن أن تكون أوحت بشخص الغول الميثولوجي.».

في خلال السنوات الثلاثين الأخيرة، نزع عدد من الاكتشافات إلى دحض رواية داروين المبسّطة عن تطور بشري في خط مستقيم. وأجمع معظم الأنثروپولوجيين على الاعتقاد بأن **إنسان نياندرتال** يمثّل «فرعاً ميتاً» من شجرة نسب البشرية.

إنه هو من يحمل إلينا أول مثل على الحساسية الدينية والاجتماعية لدى الإنسان. ويبدو، بعد أن هُزىء منه واحتُقر زمناً طويلاً من حيث أنه رمز لوحشية دون بشرية، أننا بتنا اليوم نعتبره، على الأقلّ، ابن عمّ لنا. ذلك بأن من منّا يرفض أن ينكر نسيباً له كائناً يواري موتاه الثرى في ضريح يزيّنه بتقديمات من الأزهار؟

ليس لدينا أي وسيلة لمعرفة ما إذا كان دماغه الشخصي هو ما تحوَّل في خلال الليالي الجليدية أم إذا كان، في مكان ما، قد اختلط بعرق ما تضاعف في ما بعد على حسابه، أم إذا كان قد مات، أو قد استؤصل أو أُفني. إننا نعرف، وحسب، اننا نفقد كل أثر له، وأن جنساً مختلفاً جداً نسمّيه **الإنسان (بوصفه نوعاً بيولوجياً) أو إنسان كرو ــ مانيون** (اكتُشفت عظامه في كهف يدعى بهذ الاسم «كرو مانيون» بالقرب من آيزي، في دوردونيا، في جنوبي غربي فرنسا) ظهر على المسرح العالمي ما بين ٣٥٠٠٠ و٢٠٠٠٠ سنة قبل عهدنا الميلادي.

إن جنس إنسان كرو ـ مانيون، بصفته سلف الإنسان الحديث، هو في أصل جميع الحضارات التي ورثناها.

وقد عُثر على عدد كبير من بقايا هذا النوع في فرنسا، وفي ويلز، في انكلترا، وفي ألمانيا. وهي تدلّ على شعب ذي قامة حسنة وجميلة، وقوة رائعة، وكانت قامته تتباين ما بين متر وثمانين سنتيمتراً ومترين. وكان أفراده

يتميّزون بوجه قصير ذي ملامح متغضّنة، وجبين عالٍ، ولهم دماغ كبير، على نحو مدهش، طالما أن سعة قحفه كانت تراوح ما بين ١٥٩٠ سنتيمتراً مكعباً و١٧١٥، في حين أن سعة قحف الإنسان الحالي هي ١٤٠٠ سنتيمتر مكعب. هل أنهم جاءوا من كوكب آخر؟

لقد اعتقد العلم زمناً طويلاً، وخصوصاً في مجال بيولوجيا التطور، أن الطبيعة لا تسير بقفزات واسعة أو كبيرة، ولكن المخلوقات الحية تتحوَّل تدريجياً في خلال عمليات جد بطيئة. فإذا ما أخذنا بهذه النظرية، يكون بشر كرو ـ مانيون قد قضوا مئات القرون من أجل اكتساب الذكاء والبراعة اللذين كانوا يتمتعون بهما عندما تعرّفنا إليهم.

مع ذلك، لم يُعثر على أي أثر ـ سواء أكان ذلك عظاماً أو أشياء ـ من مثل هذه الحقبة الانتقالية، إن بشر كرو ـ مانيون يبدون أنهم ظهروا على حين غرّة، من دون أي تحذير.

وعقب ظهورهم، لن يتغيّروا مطلقاً. إن إنسان اليوم، قاهر الذّرّة، ورائد الفضاء، الذي يتجاوز سرعة الصوت، ليس لديه جسم أو دماغ يختلف كثيراً عن جسم هؤلاء الأسلاف ودماغهم، الذين عاشوا منذ عشرين ألف سنة، والذين حلّوا محلّ البشر النياندرتاليين في كهوف أوروبا. إن التطور، في الواقع، توقّف مع ظهور **إنسان كرو ـ مانيون**.

نحن، إذاً، أمام شعب غنيّ بالمواهب المتنوعة، ولا شيء، يشير إلى أنه اكتسبها بالتدريج. ولا يسعني أن استنكف عن التفكير في أن مشاركة أخرى بالجراثيم إنما هي، ربما، في الأساس والمنشإ ـ ما لم يهبط هذا الشعب على الأرض على هذه الصورة لكي يتكاثر فيها ويستعمرها. ولكن دعونا نستعرض هذه المواهب.

إن المواد الأولية التي كانت في تصرُّف أسلاف هؤلاء البشر ستساعدهم على صنع مجموعة كاملة من الأدوات الجديدة: المضرب على شكل صدفة،

أصبح مجرفة أو مغرفة؛ والحجر الخشن أمسى مبرداً؛ والحجر المستدير اتّحد مع المقلاع لكي يغدو سلاحاً للصيد يبقى حتى موجوداً بعد العصور القديمة الكلاسيكية.

وشكّل **إنسان كرو ـ مانيون**، وهو غير مكتفٍ بالحجر، والعظام، والخشب، والعاج لكي يصنع أجراناً، وفؤوساً، ومناجر [للتمليس] ومثاقب، وسكاكين، وأزاميل، وهرّامات، ورماحاً، وسنادين، ومناقيش [للنقش والحفر]، وصنانير، وأوتاداً وأسافين، ومخارز، وعلّاقات، وبلا أدنى ريب، الكثير، بعد، من الأشياء الأخرى.

وكان لديه مصابيح للإنارة في أعماق الكهوف، وأكواب صغيرة من الصلصال الرملي ملأى بالشحم الذي يُحدث الضوء وهو مشتعل. ولا شيء يُثبت، بالطبع، أن المغاور كانت المكان الوحيد لسكناه. (مثله مثل بشر نياندرتال، نحن نشير إلى بشر كرو ـ مانيون باسم «**بشر الكهوف**»، ذلك بأننا عثرنا على بقاياهم وآثارهم في الكهوف، ولكن المبرِّر يقوم، ربما وحسب، على حقيقة أن العظام وحدها ـ عظام أولئك الذين عاشوا، أو الذين ماتوا، في المغاور هي التي استطعنا العثور عليها).

وكان يتمتّع بموهبة لا سابقة لها، وهي حفظ أثر الأحداث الأمر الذي أتاح له انتظار عودتها. وقد اكتُشفت هكذا، محفورةً على عظام أو حجارة تعود إلى ثلاثين ألف سنة، الآلاف من المذكرات التي أغرقت، طوال قرن من الزمن، الأركيولوجيين في الحيرة.

وحديثاً جداً، أشار ألكزندر مارشاك، من جامعة هارڤرد الأميركية، إلى أن هذه النقوش أو الكتابات الفريدة في نوعها لا بدّ أنها شكّلت نوعاً من التقويم الزراعي مقترناً بتقويم قمري. والكتابات هي أحياناً مزيّنة برسوم تمثّل أحداثاً طبيعية، بحيث أن صاحب العَظْمة أو الحجر المحفورين كان يعرف متى ستحدث التغييرات في الفصول، أو تحركات الطرائد، أو هجرتها.

والغريب في الأمر، أننا على وجه الخصوص، إنما نعرف إنسان **كرو - مانيون** عبر فنّه.

لقد اكتُشف رأس صغير من العاج منحوت بزينة رأس أنيقة، وتماثيل صغيرة من الصلصال - مع أنه ليس هناك أي من شعوب العصر الجليدي يصنع الخزف -، وإبراً من عظام كانت تتيح الخياطة الدقيقة، طالما أن أحد الأركيولوجيين استطاع القول إنها كانت «تفوق كثيراً تلك المصنوعة في عصور أحدث، وحتى سابقة لما قبل التاريخ، وحتى عصر النهضة في أوروبا. فالرومان، مثلاً، لم يصنعوا قط إبراً تقارن بإبر تلك الحقبة.».

بعد ظهيرة أحد الأيام، خلال صيف سنة ١٨٧٩، اكتشف الجيولوجي والأركيولوجي الهاوي الإسپاني مرتشيلّينو دو سوتيولا، مغارة فسيحة في عقار له في ألتاميرا[١]. وكانت أنقاض منهارة ترسّخت بالتكثفات أو الترسُّبات الكلسية المتحجرة في أسفل المغارة قد سدّت بإحكام مدخلها في خلال آلاف السنين.

ولكن حديثاً، كشفت إقامة مبانٍ جديدة في تلك المنطقة التي استدعت استخدام الديناميت لتسوية الأرض، عن المدخل القديم السابق. ودفع الفضول مرتشيلّينو إلى التنقيب في الأنقاض.

وفي ذات يوم، رافقته ابنته البالغة من العمر خمس سنوات، وبما أنها لم تكن مكرهة على الانحناء كأبيها للتقدم داخل المغارة، رفعت عينيها نحو السقف، وهتفت:

ـ ثيران! ثيران! تعال سريعاً، يا أبتاه!

وألقى الأب الرفش من يده، وارتقى الركام والردم، ودخل المغارة حيث وقفت الصغيرة في شبه الظل، وأشارت إلى السقف.

وقرفص، ورفع مصباحه، وأحسّ بتسارع قلبه بين جوانحه. كان يرى

ثيراناً عادية، وثيراناً أميركية من الفصيلة البقرية، لها عند الكتفين شبه سنام، ويُعرف الواحد منها باسم بَيْسون من عهد ما قبل التاريخ، مرسومة بدقة باللون البنّي، والأخضر، والأحمر، والأسود [فن الزخرفة، بالألوان].

وعدّ سبعة عشر رسماً، من رسوم الثيران، في أوضاع واقعية لا تُصدَّق: متركّنة جيداً على قوائمها، أو هي تكشط الأرض؛ جريحة، على وشك السقوط أو التمرُّغ بالتراب؛ وفي وضعة الرقاد، أخيراً.

ولمّا تقدم بعد أكثر في استكشافه في العمق، اكتشف عشرات الحيوانات الأخرى مرسومة على الجدران والسقوف: ظبية ذات رقة حلوة، وحيوانات عملاقة، وآيائل ذات قرون خشبية، وخنازير برّية مندفعة.

وكانت للألوان النضارة نفسها، والتألق عينه اللذان يكونان في اليوم الأول للرسم. فلمّا مسّها بإصبعه، التصق بها بعض الطلاء.

وسرعان ما فُتن هذا الإسپاني بسحر الرسوم من العصر الجليدي. كان يعرف أنها يجب أن تكون قديمة جداً. فأغلبية الحيوانات كانت تنتمي إلى أنواع انقرضت منذ زمن بعيد إذا لم تكن قد غادرت أوروپا الغربية منذ آلاف السنين. ولدى مدخل المغارة، نبش أدوات من النوع عينه كتلك التي عُثر عليها في كرو ـ مانيون، في فرنسا: مضارب، ومخارز، ومثاقب، وإبر للخياطة، وكل المجموعة الضرورية للبيت من العصر الجليدي.

وكرّس دون مرتشيلّينو ما تبقّى له من أيام في هذه الدنيا لخدمة الأركيولوجيا الصخرية. وعندما نشر سنة ١٨٨٠ تقريراً عن اكتشافاته، اصطدم بتشكك الأركيولوجيين. وإذا كان بعضهم قد أولوه شرف زيارة ألتاميرا، فإنما كان ذلك من أجل التضليل بالمظاهر والدجل. واتُّهم دون مارتشيلّينو نفسه بأنه وظّف فناناً بارعاً لتنفيذ الرسوم، ذلك بأنه، في آخر الأمر، لا يُعقل أن يكون همجيون قادرين على إبداع أعمال بمثل تلك الروعة. وكان على رأس المتشككين الاختصاصي في عصر ما قبل التاريخ العالم الفرنسي أ. كارتاياك.

وتحدّثوا أيضاً عن مؤامرة الغاية منها إفقاد «العلم الحديث» المتعلّق بعهد ما قبل التاريخ سمعته أو قيمته. ودانه مؤتمر المشتغلين بهذا العلم الذي انعقد في لشبونة، بالإجماع. وقد قضى نحبه سنة ١٨٨٨، وسط الهزء والسخرية. ولم يُبرّأ سوتيولا من تهمة التزوير إلا عقب اكتشاف رسوم مماثلة في جنوبي غربي فرنسا (١٨٩٥ ـ ١٩٠١). فقد ظل الجحود والتكفير مستمرين طوال عشرين سنة. ثم إن الأركيولوجي الفرنسي هنري بروي (Breuil) (١٨٧٧ ـ ١٩٦١)[٣] الذي سيدعى «أبا الرسوم الصخرية» والاختصاصي في الرسوم في الكهوف في عهد ما قبل التاريخ في كل من أوروبا وإفريقيا اكتشف فناً مماثلاً في كهوف معترف بها، عموماً، أنها تنتمي إلى عهد ما قبل التاريخ بفضل الأدوات المصنوعة من الصوان غير المصقول، والعاج، والعظام المصقولة التي وُجدت فيها.

وبعد ذلك اكتُشف أكثر من مئة مغارة مزيّنة بالرسوم من العصر الحجري، والتصاوير، والمنحوتات؛ في فرنسا، واسپانيا، وإيطاليا، وفي الأُورال (في روسيا). واعترف المشتغلون بعهد ما قبل التاريخ في النهاية، بأن الفنانين الذين قاموا بهذه الرسوم، إنما عاشوا، على وجه الاحتمال، في نهاية العصر الحجري القديم، في الحقبة التي كان فيها بشر كرو ـ مانيون وافري العدد.

وفي سنة ١٩٤٠، وغير بعيد عن لاسكو، في دوردونيا، في فرنسا، وجدت جماعة من الطلاب، كانت تتزلج بوساطة مزلقة صخرية (المزلقة هي عجلة على مزلاجين طويلين من معدن) الرسوم نفسها في حديقة حيوان حقيقية تعود إلى عهد ما قبل التاريخ. ومن بين هذه الأشكال الصارخة بالحقيقة في «لوڤر» الفن «البدائي» هذا، نجد ثيراناً ذات حجم هائل (حتى خمسة أمتار بالطول)، وخيولاً صغيرة القدّ خفيفة الوزن، و«خيولاً صينية» رهيفة سوداء، وصفراء (سمّيت كذلك وفقاً للرسوم التي نفّذت في الصين في عهد سلالة تانغ، وهي حقبة تميّزت بالرهافة والإفراط في الدقة)، وإفريزاً من الأيائل ذات القرون الكبيرة وهي تسبح في مياه النهر، ومسخاً ميثولوجياً

جسمه جسم برنيق (فرس النهر) وله قرنان مستقيمتان طويلتان. وبخطين اثنين جريئين أو ثلاثة خطوط جريئة، كانت تولد حياة الحيوان، وسلوكه، ونبله، وأحياناً، خط واحد (أم أن الخطوط الأخرى قد مُحيت؟) يعرف كيف يبدع حيواناً حيّاً تماماً وناشطاً.

كانت رسوم لاسكو، في مجملها، تدلّ على دقة كبيرة، ورهافة كبيرة بحيث أننا لم تمسك عن التفكير، ليس من دون حزن، في أن الفن، في هذا المجال، على الأقلّ، لم يتقدم قط في خلال تاريخ الحضارة. إن هذه الأعمال تمثّل الظاهرة الجمالية الأولى البشرية. كيف اتفق أنها نفّذت بمثل هذه المهارة الفائقة؟

ويخطر في البال سؤال آخر في هذا الصدد: السؤال عينه الذي طرحه من قبل والاس: لماذا وكيف شرع الإنسان في سلوك حياة ذات غنىً فكريّ وفنّي تتجاوز بكثير الكفاح البسيط من أجل الحياة؟ من أين استمدّ موهبته؟

نحن نجهل كيف ظهر الفن في حياة الإنسان، تماماً كما نجهل كل شيء عن ظهور اللغة. إن الرسم فن معقَّد يفترض قروناً من التطور الذهني والتقني. وإذا ما أخذنا بالنظريات السائدة اليوم (وهو أمر خطر دوماً)، نعتقد أن الرسم قد جاء بعد النحت، وأنه حصيلته. إن الرسم هو النحت (فن صنع التماثيل) ناقص بُعداً. ولدينا عدد كبير من الأمثلة التي تُثبت أن بشر كرو ـ مانيون كانوا نحّاتين ماهرين.

لقد عُثر في كهف فرنسي على عدة مقابض تزيينية منحوتة من قرون الرّنّة (الحيون اللبونّ المجترّ من فصيلة الأيليات)؛ يمثل أحدها عملاً من الروعة بحيث يعتبر نقّاد فنيون أن النحات كان خلفه أجيال من التقاليد والتطور التدريجي. وفي تشيكوسلوفاكيا، نُبش، في جملة ما نُبش من الآثار الأخرى التي يعود تاريخها تقريباً إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد، تماثيل من حجر لحصان برّيّ، ورنّة، وماموث.

ويقرّ الدكتور ولْ ديورانت بحيرته:

«إن كل النظريات التي تهرع إلى تفسير التاريخ على أنه تدرُّج بطيء إنما تنهار، إذا ما فكّرنا في أن هذه الرسوم وهذه التماثيل ليست، ربما، غير كَسْرٍ متناهٍ في الصغر من الفن الذي كان يعبّر عن حياة الإنسان البدائي، أو يزخرفها. ولقد اكتشفنا دوماً الآثار في الكهوف والمغاور، في منجىً من العوامل الجوية؛ ولا يستتبع ذلك بالضرورة أن البشر في عهد ما قبل التاريخ لم يكونوا يمارسون مهاراتهم ومواهبهم إلا في الكهوف؛ لا شيء يقول إنهم لم ينحتوا بانضباط ودقة ومثابرة بقدر ما يفعل اليابانيون، وأبدعوا تماثيل ومنحوتات ذات شأن وأهمية بقدر المنحوتات اليونانية، ولماذا يكونون قد اكتفوا بالجدران الصخرية؟ لعلهم رسموا على الخشب، والأنسجة، وعلى كل شيء.. ولعلهم نفّذوا تحفاً فنية رائعة تفوق القطع الهزيلة التي وصلت إلينا.».

أعطتنا دراسة الرسوم الصخرية فكّرة عن الطريقة التي كانوا يشتغلون بها، كانوا يبدأون برسم مخطط إجمالي بوساطة صوَّانة مستدقة. وقد اكتشفنا كذلك واحداً من «الرسوم الأولية» (المسوَّدات، المخططات) لرسم في ألتاميرا على بلاطة من حجر؛ وهو يمثل تمثيلاً واقعياً عدة ظباء. وثمة رسم أوّلي آخر سيطلعنا على شيء، بعد، أغرب من الرسوم في حدّ ذاتها.

في سنة ١٩٠٣، اكتشف مشتغلون في شؤون عصر ما قبل التاريخ، في منطقة فون ـ دو ـ غوم، في دوردونيا، في فرنسا، تكويناً جدارياً كهفياً يمثل الحيوان المعروف باسم بيسون، هائل الحجم مرسوماً بأصالة بالغة. والحال أنه في سنة ١٩٢٦ تُكتَشف في مغارة تقع على مسافة ثلاثمئة كيلومتر من هناك، لوحة أردوازية حُفر عليها الرسم الأولي الذي استُعمل نموذجاً لحيوان البيسون في فون ـ دو ـ غوم.

رسم أوليّ «بالكاد» تظهر حدوده مرسومة. كان، إذاً، مثمّناً كثيراً بحيث احتفظ به واحد من بشر كرو ـ مانيون بكل عناية جعلته يتجاوز عشرة

آلاف سنة أو عشرين ألف سنة دون أن يلحق به أي تلف.

هل كانت هناك تجارة فنية في تلك العصور السحيقة؟ لن نعرف ذلك على الإطلاق، بلا أدنى ريب. غير أن المسافة التي تفصل ما بين الرسم الأولي والعمل المُنْجَز، تسمح بالاستنتاج أنه قبل آلاف السنين، كان بشر كرو ـ مانيون يقومون بأسفار طويلة. أفليس مذهلاً ومؤثراً في آن تصوُّر أن أمراً من بشر كرو ـ مانيون كان يستطيع تكبُّد مشاق اجتياز المسافات ليس بحثاً عن قوته أو عن أدوات نافعة، ولكن من أجل لوحة من الأردواز تافهة، ظاهرياً، مكسوة بالنقش الأثري؟

ربما كان فنانو كرو ـ مانيون يذهبون إلى المدرسة لصقل موهبتهم... ففي ليموي، في جنوبي غربي فرنسا، اكتُشفت مئة وسبعة رسوم إعدادية (أي كروكيات) محفورة على بلاطات حجرية، بعضها كان سيّيء التنفيذ ويحمل تصحيحات، الأمر الذي يبعث على الاعتقاد بتدخُّل أستاذ. وفي مغارة أخرى، اكتُشف أنبوب من عظم الرّنة مملوءاً صبغاً، وفي مغارة ثالثة، اكتُشفت لوحة ألوان حجرية ما تزال مغطاة بمُغْرَة (تراب صلصالي يستعمل في التخضيب) حمراء... بعد مضي مئتي قرن من الزمن عليها.

وإذا لم يعرف بشر كرو ـ مانيون كيف يحصلون على اللونين الأخضر والأزرق، فلقد صنعوا اللونين الأسود والبنفسجي الغامق انطلاقاً من أكسيدات المنغنيز. ولعلهم كانوا يحصلون على الأصباغ السوداء من فحم الحطب أو سِناج الشحم المحروق (أي سواد الدخان). ومن ركاز (معدن غير خالص) الحديد، كانوا يصنعون الألوان البنّيّ، والأصفر البرتقالي، والأحمر وذلك بطيّه، ما بين حجرين قبل أن يمزجوه بدم الحيوان، وعصارات النباتات، أو الشحم الحيواني. وأحياناً، كانوا يمزجون المُغْرة والودك (= شحم الأمعاء) الذي يصنعون منه أقلاماً بطريقة اللف.

كان الرسامون الذين يبسطون ألوانهم طبقات سميكة، يستخدمون لذلك طرائق متنوعة: بوساطة فراشٍ وريش للرسم من وبر، ورِيَش للنقش، أو

عساليج (= غصون دقيقة ملساء)، وبوساطة أختام من حزاز الصخر أو بهق الحجر (= نبات يعلو الصخور)، أو من الطحلب المضغوط، وبالأصابع، أو بقـذف الطـلاء الملون على الجدار بالنفخ في عظمة مجوّفة أو في قصبة.

ومهما يكن الأسلوب المستعمل، فقد كانت الموضوعات مرسومة، عموماً، بلمسات جريئة، وأكيدة، ونادراً ما يُدخَل عليها بعض اللمسات (رتوش). إذاً، منذ ثمانية عشرة ألف سنة، عرفت الفنون تفتُّحاً حقيقياً، وكان الفنانون كثراً. ولعله كان بينهم محترفون، ويدفع هواة الفنون أثمان اللوحات فراءً أو طرائد، ولعله كان هناك أيضاً عباقرة مجهولون وبائسون.

إنه مع تقهقر المَجْلدات الكبيرة الأخيرة، حوالى سنة ١٠٠٠٠ قبل عهدنا الميلادي، توقّف فجأة فن الرسم على الصخور في العصر الحجري. وليس من شك في أنه مع تدفئة المناخ، غادر البشر الكهوف والمغاور لبناء ملاجىء من خشب على طول الأنهار، وحول البحيرات. وقد تعلّموا أن يزرعوا الأرض، ويدجّنوا الحيوانات، فاستقروا هكذا أكثر فأكثر. وعندما بلغ حوالى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد، أوائل التجّار المتوسطيون السواحل الغربية، كانت الرسوم الصخرية الأكثر حداثة قد انقضى عليها تسعة آلاف سنة. وكانت قد نُسيت التقنيات، والأسلوب، والإلهام قبل زمن طويل. وهكذا تكون قد اختفت كلياً وإلى الأبد، إحدى أولى الحقب في التعبير الفنيّ وأكبرها.

غير أن الحضارة لم تكن إلاّ في خطواتها الأولى.

يا للتناقض!

إن الحضارة هي نظام اجتماعي يشجع الإبداع الثقافي. إنها تبدأ حيث تنتهي الفوضى واختلال الأمن. إن بعض العوامل يُحتمل أن تساعد على ظهور الحضارة أو على النقيض، على تأخيرها، مثل الحقب الجليدية. ولا شيء يفيد أن موجات الصقيع الكبيرة لن تعود مجدداً فتدفع الحضارة إلى حدود الكوكب، ولا، من جهة أخرى، أن تستيقظ ثانيةً في ذات يوم البراكين

والهزات الأرضية التي خفّت وطأتها، وخمدت في الوقت الذي شيّدنا فيه مدننا، فتفنينا، أو ألاّ يجرفنا الطوفان.

من يستطيع القول كم من حضارات قد اختفت على هذه الصورة، لعشرات الآلاف من السنين خلت، تحت الثلوج، أو المياه أو الطفح أو الحمم (ما تقذفه البراكين عند ثورانها من المعادن المصهورة الملتهبة)؟ فإذا كانت جاليات من روّاد الفضاء قد جاءت وانتشرت في فترات من خمسين مليون سنة، فليس لدينا أيّ وسيلة لمعرفة ذلك... مع أنه مسموح لنا أن نظن ذلك إذا ما أخذنا في الاعتبار، مثلما فعلت شخصياً، التحوّلات المفاجئة في البشرية.

يقول الدكتور ديورانت: «ليس في وسعنا تقدير المنجزات البشرية، بصورة ملائمة. إننا نظن أن الزمن قد دمّر الآثار التي كان يمكن أن تردم، جزئياً، الهوة الموجودة بين الإنسان البدائي والإنسان الحديث.».

لقد كتب لورين آيسلي، العالم البارز، وأستاذ الأنثروپولوجيا في جامعة بنسلڤينيا الأميركية، الكثير عمّا اخترتُ أن أسمّيه، «وفقاً لما يقوله هو شخصياً، الظاهرة المضادة لطبيعة» الإنسان؛ مضادة للطبيعة، بمعنى أنه ليس هناك شبيه أو مماثل على الكوكب... فإذا ما غزرت النظريات، فإننا، في الواقع، نعرف أموراً جدّ قليلة عن الأسباب التي من أجلها غدا الإنسان إنساناً. إنه حيوان ذو تفرُّد نادر. ولم يحدث قط شيء مماثل لظهور الإنسان في خلال تطوّر الأنواع، إن لم يكن فعل التكوين أو الإبداع ذاته. إن الإنسان، الكائن غير الكامل والزائل، يحمل في ذاته وميضاً غامضاً: وميضاً أو لمعاناً قادراً على التخلّي عن العالم والسير نحو الموت مرفوع الرأس في سبيل أمور غير ملموسة من مثل الحقيقة والحب.».

وبطريقة عادية أكثر، يعترف العالمان البيولوجيان الأميركيان المعاصران ر.أ، تشانس، وأ .پ، ميد في مقال لهما مقدّم إلى ندوة علمية: «لم يُقدَّم أي شرح ملائم قط لتفسير أسباب كبر حجم دماغ الإنسان.».

إن سرّ (أو لغز) دماغنا يستحق التعمُّق في موضوعه أكثر؛ إن دماغ الإنسان يتطور في خلال الطفولة الأولى، ذلك لأنه لا تتوفر له الإمكانية في خلال الحياة الجنينية. وفي الحقيقة، إن رأس الطفل الوليد سيكون كبيراً جداً فلا يُسمح له بأن يولد.

في خلال سنته الأُولى، يتضاعف حجم دماغ الطفل ثلاث مرات، وهذه القفزة التي لا تصدّق، والتي لا يمكن مقارنتها بشيء ممّا نعرفه في العالم الحيواني، تمنح الإنسان خصائصه المحدَّدة.

إن دماغ الطفل هو مطواع أو لدن، على نحو فريد، وسريع في استخلاص الدروس من العالم المحيط به؛ وهو يختلف في ذلك عن دماغ الحيوانات التي تُقبل إلى العالم بمخزونها من الغريزة، وتتعلم شيئاً قليلاً في ما بعد. (حتى لدى الأشكال الأعلى من اللافقاريات، والحشرات الاجتماعية، فإن التصرفات شبه الإجمالية هي غريزية). إن ما يصوغ الدماغ البشري، في الواقع، هو الاختبار.

هناك أيضاً، نلاحظ فارقاً غريباً في ما بين الإنسان وسائر الأنواع: **الطفولة!**

يتميّز الرضيع بعجز بدائي ينبغي أن يحكم عليه بالموت السريع في ما لو لم يكن قانون «البقاء للأصلح» يسيطر على سائر القوانين جميعاً. إن عجز الطفولة الأولى والطفولة يدوم وقتاً أطول لدى الإنسان منه لدى أي مخلوق آخر. يتعيّن عليه أن يهضم في خلال هذه الفترة جملة كبيرة من المعلومات وأنماط السلوك؛ ويتعيّن عليه أن يتقن الأداة السحرية التي هي اللغة.

لقد اضطر الإنسان [بوصفه نوعاً بيولوجياً] إلى مواجهة هذا الوضع بإحداثه روابط عائلية دائمة. وعلى نقيض أغلبية الحيوانات التي تمثّل حياتها الجنسية طابعاً عَرَضياً أو موسمياً، أنشأ الإنسان، في خلال مئات الآلاف من السنين، روابط عائلية شبه دائمة.

وإذا ما اختلفت الحياة العائلية قليلاً بحسب المجتمعات، فهي دوماً معظّمة أو مشرّفة بالاهتمامات والعناية الرقيقة التي تُغدق على أطفال الإنسان في أثناء فترة الطفولة الطويلة. ومن غير إرادة الراشدين المحبّين على التضحية بالسنوات للسهر على صغارهم، لكان الإنسان اختفى عن وجه البسيطة منذ أمد بعيد.

لماذا، منذ أن وُجد الإنسان على الأرض قبل ثلاثة مليارات سنة، وهو الوحيد الذي حقّق الروابط العائلية حول حماية صغاره؟ إن ذلك لهو واحد من أكبر الأسرار والألغاز في تطور الأجسام الحيّة.

إن وجود الإنسان يرتكز على قدرته على الحب، وكل ما تبقّى ينتج منه. وإنه بفضل مشاعر من مثل الحب، والإيثار، والحكمة، استطاع الإنسان أن يجتاز هذه المسافة مهما تكن ضئيلة، في خلال رحلة البشرية الطويلة.

ولكن الإنسان هو أيضاً الوحيد الذي لديه سمات طبع من مثل القسوة المحسوبة ببرودة، والبخل، والكبرياء، والشهوة إلى السلطة...

ودماغ الإنسان، بقدر ما هو رائع، يحتوي أيضاً في ذاته دماغاً أدنى، بقية دماغ قديم أو سابق، نقول عنه إنه أُحفور، مكيّف لمساعدة مخلوق ما في كفاحه للاقتراب من البشرية، ومنتزع، هو أيضاً، من الظلمات.

نحن ما نفتأ نحمل في داخلنا هذه الفلقة الجبهية (المتعلقة بالجبهة أو الجبين) الحويصلية، الصغيرة جداً التي بفضلها بقينا في قيد الحياة، والتي تديم فينا ذكرى المخلوق الحيواني الذي كنّاه: الخوف من المجهول الذي يعود إلى أزمنة كان المجهول يتمثّل فيها بشكل عينين اثنتين لمّاعتين تخترقان الظلمات في ما وراء النار الحامية (الواقية)، والعدوانية، والمشحوذة في خلال مليونين اثنين من ـ سنيّ التيه في عالم غير مضياف؛ وتفجّرات جنون جامحة وغير منطقية، والإحباطات، والتصرُّفات غير المعقولة.

لقد ذهبنا إلى الإيحاء بأن تطوُّر حجم الدماغ البشري قد تمّ بسرعة

فائقة، وذهب بعيداً جداً بحيث أن نتيجة ذلك كانت حقاً مَرَضية. وقد كتب الروائي الكبير وكاتب الأبحاث والدراسات المجري الأصل المتجنّس إنكليزياً والكاتب باللغة الانكليزية، آرثر كويستلر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٣) سنة ١٩٦٨ مقالاً بعنوان «الدماغ البشري، هل هو خطأ في التطور؟» فيه يلاحظ أن الطبيعة، في لحظة ذهول، مهرت الإنسان بأدمغة ثلاثة متنافرة: دماغ زاحفةٍ، ودماغ لبونٍ متدنّية، ودماغه المدهش ـ دماغ لبونٍ متفوّقة أو ساميةٍ.».

«لو لم يكن تحت أنظارنا الدليل على النقيض، فإننا كنا سنتوّقع، منطقياً، أن يتحوّل الدفاع السابق البدائي في خلال التطور إلى أداة معقّدة، مثلما هي اليد متحدّرة من المخلب، والرئتان من الخياشيم. بدلاً من ذلك، تنضّدت فوق الدماغ السابق بنية أعلى تغطي وظائفها، جزئياً، وظائف الدماغ السابق، من غير أن يوفّر له التطور السيطرةَ الأخيرة على هذا الدماغ .».

لعلّ التطور ليس المسؤول الوحيد. إنما قد يكون تراكب أو تطابق دماغ فوق دماغ آخر تماماً نتيجة تهجين ما بين الأشخاص الأرضيين دون البشريين، والبشر المتحضرين على نحو رفيع، الآتين من كوكب آخر.

إذا كانت الأمور قد جرت على هذه الصورة، فإن الأشخاص الآتين من خارج الأرض أو جوّها كانوا كائنات نبيلة، تتمتع بخيال مبدع، وفوق كل ذلك، كانت قادرة على الحب.

لعلنا ندين لهم بأفضل جانب من الطبيعة البشرية. ففي القرون الوسطى، كانوا يسمّون الإنسان **إنساناً مزدوجاً** (Homo Duplex)، نصف لحم، ونصف فكر (عقل)، ويعبّر المعنى تماماً عن قسمة الإنسان ما بين الشقاء والأمل.

يُطلعنا أطباء الأمراض العصبية على أن مناطق الدماغ الأكثر حداثة والأقل تخصُّصاً، **«المناطق الصامتة»**، هي تلك التي تبلغ النضج آخر ما تبلغ منها. ولعلّها لم تتوصل بعد جميعاً إلى ذلك؛ إن لدى بعض الاختصاصيين

في الدماغ أسباباً وجيهة للاعتقاد بأن هناك إمكانات ربما سيكشفها مستقبل الجنس. ولعلّنا نحمل شخصياً عجائب تتجاوز كثيراً كل ما نعرفه.

ثم، من يدري إذا ما كنّا قد تلقّينا عوناً خارجياً من الماضي، فذلك يمكن أن يحدث، تماماً. أن نتكلّم عن إله يهبط على الأرض أم عن إنسان موحىً إليه من جانب إله، إنما ذلك حلم رائع!

هوامش المترجم

---

(١) **مرتشيلّينو دو سوتيولا** (المتوفى سنة ١٨٨٨)، لُفت نظره الى الكهف سنة ١٨٧٥، لمّا اكتشف أنه يحتوي على عظام مجزّأة وبعض الرسوم باللون الأسود على الجدران تكشّف أنها عائدة إلى الأيّل العملاق، والحصان البرّي، والبيسون. وقد عاد الى الكهف في صيف سنة ١٨٧٩ لمزيد من الدراسة.

وعلاوة على عثوره على بقايا مستحجرة، بما فيها الهيكل العظمي لدب عملاق من دببة المغاور، وجد أدوات خاصة بالحقبة المتأخرة من العصر الحجري، وآثاراً لأصباغ سوداء وحمراء داكنة. وكانت معه ابنته ماريّا التي باتت آنذاك في الثانية عشرة من سنيّها، وسبق أن شاهدت رسوم السقف الملوّنة في كهف جانبيّ مجاور، عُرف في ما بعد باسم «مصلّى سيستين في عصر ما قبل التاريخ».

(٢) **ألتاميرا** محطة تعود إلى ما قبل التاريخ في شمالي إسپانيا، قريبة من سانتيّانا دل مار (مقاطعة سانتندير)، تضمُّ مغاور مزيّنة برسوم متعددة الألوان من العهد المجدليّ، وهو من عهود ما قبل التاريخ (الألف الثالث عشر إلى الألف الثاني عشر).

(٣) **هنري بروي،** درس في جامعة السوربون والمعهد الكاثوليكي في باريس، وبُعيد رسمه كاهناً (١٨٩٧) أنمى اهتماماً قوياً بفن العصر الحجري القديم، وكرّس وقتاً كثيراً لدراسة نماذج من عهد ما قبل التاريخ في جنوبي فرنسا، وشمالي إسپانيا، وفي خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها، في جنوبي إفريقية. وقد درّس في معهد علم الإحاثة البشرية في باريس (من سنة ١٩١٠) وفي الكوليج دو فرانس (١٩٢٩ ـ ١٩٤٧). وقد أصدر أكثر من ٦٠٠ مطبوعة مزينة بنسخة من رسوم الكهوف والمحفورات، فضلاً عن كتاباته القيّمة في الموضوعات التي أنشأت للعهود التي تناولها بالدرس نظام تصنيف ما يزال ذا قيمة خالدة.

١٥

موجزات المدى ـ الوقت

طوال البحوث التي أدّت إلى وضع هذا الكتاب، لم يفتأ سؤال واحد يقلقني. ولعلكم طرحتموه أنتم أنفسكم.

أيّ طاقة استخدمها الجهاز الآتي من عالم آخر؟

لست أعتقد أن بالوسع الاكتفاء بجواب واحد من مثل: «كانوا يتصرّفون، بلا ريب، بطاقة قادرة على توفير قوة هائلة تتيح لهم بلوغ سرعة الضوء.».

إن مركبة تنتقل بسرعة الضوء ستقضي، على الأقلّ، ثماني سنوات للمجيء من المنظومة الشمسية الأقرب من منظومتنا، والعودة منها. وبالنسبة إلى النجوم «المجاورة» التالية، ينبغي أن نحسب من عشرين سنة إلى أربعين، بحسب ما أشرتُ إليه في الفصل الثاني.

إن فكرة ألبرت آينشتاين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥) القائلة إن الزمن يقصر (أو

يُختَصر) بالنسبة إلى روّاد الفضاء ليست كافية، كذلك. صحيح أن الاختبارات قد أَثبتت أن الزمن يبطىء بالنسبة إلى روّاد الفضاء، الذين ينتقلون بسرعات هائلة، ولكن رحلة تدوم بالنسبة إلى روّاد الفضاء يوماً كاملاً أو أسبوعاً كاملاً ستمثّل عشرات السنين بالنسبة إلى سكان الكوكب، بحيث أنهم لدى عودتهم إلى بيوتهم سيجدون معاصريهم وقد كبروا وغدوا شيوخاً، أو أن هؤلاء، سيكونون قد فارقوا الحياة في هذه الأثناء.

بالطبع، إن هناك دوماً مغامرين مستعدون لقطع حبال المركب ومغادرة عالمهم الأصلي إلى الأبد. وكان يمكن أن يكفي عدد ضئيل منهم، ربما. غير أننا نحتاج إذ ذاك إلى إيجاد تفسير آخر بالنسبة إلى الأربعمئة وأربعين جهازاً غير المتعرَّف إلى هويّتها التي شوهدت في مدى عشر سنين؛ والأشياء الكبيرة المتلألئة التي كانت تظهر وتختفي، ثم تعود فتظهر ثانية في خلال القرنين التاسع عشر والعشرين؛ وخرائط العالم التي يبدو أن جغرافيّي العصور القديمة قد حققوها انطلاقاً من رؤىً جوية، كما رأينا في الفصل الثالث عشر.

لقد وجدتُ صعوبة في تصوُّر حشد من السيّاح يُقبلون ويُدبرون مرات عديدة من وإلى الكوكب المأهول الأقرب إلى الأرض، فيما لو عرفوا أنهم سيتعرّضون، لدى عودتهم إلى منازلهم في نهاية أقصر رحلات الذهاب والإياب، لرؤية المحيطين بهم وقد كبروا في السن عشرين سنة.

لست أؤكد أن ذلك مستحيل. ربما كان هناك آلاف المرشحين المستكشفين، وربما يكون هناك أناس تثيرهم فكرة أن السفر في خلال قرون في حالة إسبات، إلى أقصى حدود الإثارة.

ولكن بقدر ما أفكّر في ذلك، بقدر ما أتساءل عمّا إذا لم يسلك زوّارنا طريقاً موجزاً (= قادوميّة).

لعلهم يدركون البعد الرابع ـ لا بل بعداً خامساً أو سادساً ـ بحيث أنهم قادرون على التنقُّل في الكون في خطوط سير وطرائق تتجاوز إدراكنا.

نحن لسنا، على كل حال، إلاّ في القرن العشرين من العهد الميلادي، وآينشتاين ورفاقه أطلعونا أن الفضاء منحنٍ. من يقول لنا إنه في القرن الثلاثين أو الأربعين، لن يكون عباقرة جدد قد اكتشفوا منافذ إلى المتعدِّد الأبعاد الذي لا نعرف حتى أن نتصوّره اليوم؟

يذكرون غالباً كلمة المفكر والعالم الرياضي البريطاني برتراند رَسِلْ (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠): «ليس علماء الرياضيات بحاجة إلى معرفة ما يتكلّمون عنه.». وهذه هي الحرية التي سمحت للعالم الرياضي الآخر المجري يانوس بولييه (١٨٠٢ ـ ١٨٦٠) الذي اشتغل في الهندسة غير الإقليدسية، والعالم الرياضي الروسي نيكولاي لوباتشيفسكي (١٧٩٣ ـ ١٨٥٦) أحد مؤسسي الهندسة غير الإقليدسية سنة ١٨٢٦، بأن يتصوّرا كل من جهته، هندسات جديدة فيها الفضاء منحنٍ، والمتوازيات تلتقي. وقد اعتبرهما زملاؤهما نوعاً ما ممسوسين على نحو لَطيف. ولعلَّ جنونهما قد أحدث مئات المفاهيم عن الفضاء، وأحدهما سيتكشّف عن أنه مفيد بصورة استثنائية بانتهائه إلى اكتشاف مبدإ النسبية. فالهندسة الاقليدسية (إقليدس، عالم رياضي يوناني من القرن الثالث قبل الميلاد، وكتابه «**الأُصول**» الذي يلخص تقريباً كل المساهمات اليونانية السابقة لأرخميدس [٢٨٧ ــ ٢١٢ ق.م]، يُعتبر كتاب الهندسة البالغ غاية الجودة) ليست على وفاق مع العالم الذي نعرفه إلاّ داخل حدود محدَّدة جيداً، في الواقع، حدود اللوح الأسود. فإذا ما وسّعنا هذه الحدود، ماذا يحدث، مثلاً، متوازيات نحن نعقتد أنها لا تلتقي؟ إنما تلتقي عند خط الأفق، هذه حقيقة واقعة، سهل التحقُّق منها، وعليها يقوم كل فنّنا المنظوري.

بإحداث العلماء الرياضيين هندسات غير إقليدسية مستندة إلى طرائق جديدة في مواجهة الفضاء، أثّروا عميقاً في التفكير العلمي المعاصر. ويواجه علماء اليوم شكل الكون نفسه بعيون مختلفة. وكثيرون منهم مقتنعون بأن لا الفضاء وحده، ولكن الزمن كذلك يجب أن يكون منحنياً مثلما اعتقد آينشتاين وبعض العلماء الآخرين من أمثاله.

الفضاء منحنٍ؟ إن جهداً كبيراً خيالياً يجب أن يتيح لنا إدراكه. ومن أجل الإفصاح عن كل شيء، يجب أن يكون هذا أسهل من تصوُّر الفضاء لانهائياً، بلا حدود، بحسب الفلكيين التقليديين. هل يسعك أن تتصوَّر فضاء من غير نهاية؟ أو بعد، ماذا هناك في ما وراء الفضاء إذا ما انتهى؟

لعلّ تمثيلاً سيساعدنا على الفهم. لنمدّ غشاءً رقيقاً من المطاط فوق وعاء. إذا ما دحرجنا كُريّة خفيفة على الغشاء، فإنها تنتقل فوقه في خط مستقيم. ولكن، لنعلّق الآن بعض قطع الرصاص الصغيرة في أماكن مختلفة من الغشاء. فتحت تأثير ثقلها، ينفتل الغشاء، مؤلفاً سلسلة من الحدبات والتجاويف. فإذا ما دفعنا الكريّة مجدداً، فإنها لن تنتقل في خط مستقيم، وتنتهي، ربما، إلى السقوط في أحد التجاويف. إن الفضاء ليتطابق مع هذا الغشاء المطاطي. والشمس والكواكب تمثّل دور قطع الرصاص الصغيرة. وكل «حدث» ـ شعاعات الضوء، والمركبة الفضائية ـ هو المعادل للكريّة المتدحرجة على الغشاء. حيث ليس هناك أي كتلة، يكون الفضاء «مسطّحاً» وكل حركة فيه هي مستقيمة. ولكن في جوار الكتل الكبيرة، يتشوَّه الفضاء لكي يعطي منحنيات توثّر في مسار كل ما يجتازه.

هوذا ما كان يُسمّى في ما مضى الجاذبية أو جاذبية الأرض. ولكن، لدى آينشتاين، لا يشكِّل ذلك إلا مظهراً للفضاء. إن الشعاعات المضيئة هي ممالة باتجاه الشمس، ولكنها تتمتع، بما يكفي من «الحيوية»، لكي تنتزع نفسها من «تجويفها». والكوكب السيّار إذ يدور حول الشمس، فإنه ينتقل ماسّاً هذا التجويف عينه مثل راكب الدراجة على حلبة سباق الدراجات المنحنية. فإذا ما جازفت مركبة فضائية بالابتعاد كثيراً في داخل «تجويف»، فإنها تسقط باتجاه الكتلة التي تسبّب هذا التجويف.

هيهات! إن هذه الطريقة في إدراك الجاذبية أو فهمها تجبرنا على الافتراض أن فضاءنا ليس سوى جزء من نظام أكثر اتساعاً، مثل غشائنا المطاطي. وإن ما نعتبره فضاءً ليس، على وجه الاحتمال، إلاّ ما هو مباحٌ لنا أن ندركه بحواسّنا الناقصة. إنه من حولنا، في وجهة لا نستطيع مطلقاً أن

نشير إليها بالإصبع. إن فضاءنا لا يستطيع أن يحتويه لأنه يحتوي فضاءنا.

غير أن بإمكاننا دوماً أن نفترض أنه موجود، مثلما يفعل العلماء بالرياضيات، إذا ما نحن استعملنا فكرنا. ألسنا نفترض وجود كون ذي أبعاد ثلاثة لم يُعْطَ لنا أن ندركه في الواقع؟ نحن ندري أن الأرض ليست مسطحة، على رغم المظاهر. في نظرنا، ليست السماء سوى ستارة مزروعة نجوماً. ولكن عقلنا يعرف كيف يجعلنا نرى فيها قُبَّة يصعب سبر غورها، حيث تنسّق حركات عدد لا يُحصى من الكرات النارية.

باستثناء إدراك غامض للتضريس الأرضي الذي تسمح به رؤيتنا بالعينين، فإن عيوننا لا ترينا، في الواقع، غير صور مسطحة. حاسة لمسنا لا تكشف لنا إلاّ الأسطح. ماذا أكره، إذاً، ذكاءنا على إدراك الوجود المحسوس لفضاء ذي أبعاد ثلاثة؟ إنه الاختبار الذي هو خاصّتنا عندما ننتقل لنمرّ فوق الأشياء التي يكشفها لنا نظرنا، أو تحتها، أو خلفها.

بالكيفية عينها، أَفَلا يُجبر أيُّما اختبار تنقلات ذات أبعاد أربعة، ذكاءنا على القبول بوجود بُعد رابع غير مرئي؟ وفي حين أنه يُفلت من رؤيتنا أو نظرنا، فأنا أعتقد أن حقيقة وجوده يمكن أن تكون موضوع برهان. وعلم الهندسة هو المنطق المناضل في مصلحته.

في الهندسة، ليست النقطة، والخط المستقيم، والمسطح، والمجسّم سوى مفاهيم فكرية، حتى لو أنه وجدت معادلات في عالم الأشياء. والصلات الهندسية نفسها تتواصل في مناطق لا تحدّثنا عنها حواسّنا، الأبعاد العليا.

إن الخطوط المستقيمة نفسها، المحدَّدة بالنقاط، إنما تحدّد المسطّحات. والمسطحات المحدَّدة بالخطوط المستقيمة، إنما تحدّد بدورها المجسّمات، ولكن ماذا تحدّد، إذاً، المجسّمات؟ إن المنطق الهندسي يقودنا إلى الجواب: مجسمات أعلى؟ أشكال رباعيّة الأبعاد تظل غير منظورة منا بسبب طبيعتنا الخاصة الثلاثية الأبعاد.

لنُعطِ الأشياء تمثيلاً مختلفاً قليلاً. لنتصوَّر طرف قلم يتنقّل على مسافة معيّنة باتجاه ثابت. إنه يرسم خطاً مستقيماً. لننقل هذا الخط المستقيم عمودياً على ذاته، فنحصل على مضلّع رباعي (= رباعي الأضلاع) ولننقلْ هذا المضلّع الرباعي على ذاته عمودياً ــ صوب الأعلى أو الأسفل ــ لا فرق ــ، فإنه يحدّد مكعّباً.

ولكي ينتقل المكعّب نفسه، والحال هذه، عمودياً بكل أبعاده، فإنه يحتاج إلى منطقة جديدة من الفضاء، البعد الرابع، وفي مثل هذا النوع من الفضاء العالي، سيحدّد المكعب شكلاً خيالياً معروفاً جيداً من العلماء بالرياضيات المكعّب المفرط (hypercube أو tesseract).

بالنسبة إلى ذكاء رباعيّ الأبعاد، إنه لمن السهل على وجه الاحتمال، إدراك الظهور المفاجىء لمركبة فضائية في رحب السماء مثل اختفائها المفاجىء ــ أو حتى مسألة انتزاع برتقالة من قشرتها دون قطعها أو خدشها بأي طريقة ــ مثلما هو سهل بالنسبة إلينا إدراك أن نسحب من وسط دائرة مرسومة على قصاصة ورق طرف قلم لوضعه خارج الدائرة من غير أن نضطر إلى رسم خط على الورقة. يكفي، بالطبع، أن نرفع القلم. غير أنه بالنسبة إلى حشرة تعيش على طرف هذه الورقة الثنائية البُعد، سيبدو هذا الاختفاء مذهلاً للغاية.

في الثانية التي يرتفع فيها القلم عن السطح المسطح، فإنه يختفي في البعد الثالث. هوذا ما سيشكّل ظاهرة خفية في كونٍ ذي بُعدين اثنين. وبالكيفية عينها، إن مروراً في بُعد رابع قد يوضح عدداً من الظواهر المعتبرة خفيّة في عالمنا الخاصّ.

لعلّ هذه السفن، وهذه الطائرات في **مثلّث برمودا**، بكل بساطة، مرّت في بُعد آخر! وماذا لو أن **الأشياء الطائرة غير المحدَّدة الهويّة** أتت من بُعد آخر قبل أن تختفي؟

لقد حدس بعض الفلاسفة بوجود علاقة ما بين هذه الأبعاد العليا

والعالم الخفيّ. وهكذا كتب المفكر الألماني إمانويل كنط (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) يقول: «إذا كان ممكناً أن يكون هناك أبعاد أخرى للفضاء، فإنه لمن المحتمل جداً أن يكون الله تعالى قد أحدثها في مكان ما، ذلك بأن لأعماله كل العظمة والتنوُّع اللذين يمكن تصوُّرهما.».

وخطرت للشاعر الأميركي وولت وتمان (١٨١٩ ـ ١٨٩٢) فكرة مماثلة: «أنا لا أرتاب في أن للداخليات داخلياتها، وللخارجيات خارجياتها، وللرؤية رؤية أخرى، وللسمع سمعاً آخر، وللصوت صوتاً آخر.».

لخمسة قرون خلت، قال أحد المتصوّفين المجهولين عن الجنة التي كان يعتبرها معاصروه بمثابة مكان محدود: «إنّ الجنة لهي عالية من أسفل مثلما هي من أعلى، وعالية من أعلى مثلما هي من أسفل، ومن خلف مثل من أمام، ومن أمام مثل من خلف، وذات جانب مثل الآخر. وأيما شخص لديه رغبة حقيقية في أن يكون في الجنة، فإنه في اللحظة نفسها يكون فيها. ذلك بأن الطريقة المقبلة لكي يكون فيها، هي في الرغبة وليس في السير».

وإذا نحن استبدلنا الجنة بكوكب ناءٍ؛ فهل سيكون ذلك في متناول أناس متمتعين بإدراك كامل لتقوُّس الزمن والفضاء؟ تلك هي تماماً قناعتي.

إن الزمن لهو بُعْد، كذلك. في رأيي، لا يتعلَّق الأمر تماماً ببُعد فضائي، عموديّ بالنسبة إلى كل الأبعاد، ولكنه، مع ذلك، هو بُعْد.

إنه بُعد، لأنه من أجل تحديد موقع أي شيء ما، ينبغي توفر أربع إحداثيات، واحدة منها هي الزمن.

لنفرض، مثلاً، أنني أحاول أن أجدك. إذا كنت أعرف أنك تقيم في الركن الجنوبي الغربي من الجادّة الثانية والشارع الرقم ٦٣، فإن موقعك يُحدَّد بلغة خط العرض وخط الطول ـ أي في بُعْديّ مسطح. ولكن إذا ما ارتفع في هذا المكان مبنى مؤلف من عدة طبقات، فينبغي لي أيضاً معرفة أيّ طبقة أو «الشقة» التي تقطنها لكي أجدك. هذا هو البُعد الثالث، ولكن النيويوركيين غالباً ما يتنقَّلون. وما لم أعرف الساعة التي تكون فيها في مسكنك، فليس

لديّ أي حظ في لقائك. إذاً، يتعلّق الأمر ببُعد رابع.

كتب البروفسور والفيلسوف الروسي أندريه أوموف: «إن الوقت لا ينقضي أكثر من المدى. نحن من ينقضون، نحن الذين داخل كون ذي أبعاد أربعة. إن الوقت ليس سوى قياس للمدى بالطريقة نفسها كالطول، والعرض، والسماكة.».

إذا ما أخذنا بذلك، فسيكون الوقت قابلاً للتبادل مع سائر الأبعاد التي نعرفها. هذا، بحسب رأيي، ما عناه بذلك. لنفترض، إذاً، أنني وجدتك في مسكنك ــ في الطبقة السادسة ــ وعنّ لنا أن نعرف كم تعلو الطبقة السادسة تماماً عن الأرض. وتعجز حارسة المبنى عن الإجابة لدى الاستفسار منها. غير أنها تعرف أن المصعد ينتقل بسرعة موحَّدة هي ثلاثة أمتار في الثانية، وباستعمال كرونومتر (مقياس الوقت) لمعرفة الوقت الذي ينقضي بين طبقتك والطبقة الأرضية، نحصل على ست عشرة ثانية. فنعرف، إذاً، أن المسافة المجتازة هي ثمانية وأربعون متراً. لقد ترجمت الساعة الوقت مدىً مثلما اعتادت شعوب العصور القديمة أن تفعل هي التي كانت تقيس بمسيرة أيام المسافات التي عليها اجتيازها.

نحن نقيس المدى أو الوقت بلغة مدى ــ وقت. لسنا قادرين على قياسهما بلغة بُعد رابع، وإذا ما تقلّص كوننا جميعاً على نحو عجائبي إلى عُشر حجمه الحالي، أو بات فجأة أكبر مئة ضعف، فلن يكون لدينا، على وجه الاحتمال، أي وسيلة لكي نلحظ ذلك طالما أن جميع ما عندنا من آلات القياس سيطرأ عليها التغيُّر نفسه. وإذا ما تسارع كل شيء على نحو موحَّد (بما في ذلك العمليات البيولوجية التي تحكم حياتنا الجسدية)، فإن ساعاتنا الأسرع ستعطينا الانطباع بأنها تقيس الوقت نفسه كما في السابق.

في قلب عالمنا ذاته ذي الأبعاد الثلاثة، يتفق لنا غالباً أن نرى الوقت يتمدّد أو يتقلّص. ويُرينا المجهر، في مدى بضع ثوانٍ، حياة جرثومة في تسلسلها الكامل. والناظمة الآلية تحلّ بكيفية شبه فورية مسائل ذات تعقيد

كبير بوتيرة مليون عملية في الثانية الواحدة.

وبعض الطيور تُحدث أصواتاً تجعلها لسرعتها غير مسموعة من الأُذن البشرية؛ وقد كشف تسجيل زقزقات الصَعْوَة (نوع عصفور) استُمع إليها في حالة الإبطاء، أن هذا العصفور كان يرسل مئة وثلاثين علامة في سبع ثوانٍ. والحقيقة البسيطة، وهي أننا لا نسمع منها إلاّ عدداً معيّناً، إنما تنزع إلى إثبات أن تجهيزنا الحواسيّ ليس مكيّفاً على مقياس الوقت نفسه.

لقد لاحظنا جميعاً من الاختبار أن بعض الثواني تبدو أحياناً جد طويلة في أثناء أَلم شديد. وتلك هي الحال نفسها في أثناء حلم أو كابوس. ويؤكد بعض الذين يخضعون للتخدير أن عشر دقائق تصبح ساعات عندما تثور أعصابهم.

على ذلك، نحن نرى أن لكل من الآليات والأجسام، في تنوُّعها، مقياساً وقتيّاً خاصاً بها؛ ونحن شخصياً نختبر بأنفسنا أوقاتاً مختلفة بحسب ما نكون في حالات جسدية أو عاطفية. إن ذلك هو ردّ فعل الوسيلة التي تحدّد المقياس الزمني، مثلما يُثبت حجم الجسم المقياس الحيّزي أو المكاني. يجب أن يكون الوقت مختلفاً بالنسبة إلى النملة عمّا هو بالنسبة إلى شجرة السِكوا الحرجية العملاقة الألفية، كما هو المدى مختلف بالنسبة إليهما.

إن بوسعي الاعتقاد أن يكون الوقت مرناً، وقابلاً للضغط، إذا ما كان جزءاً من مدى أعلى. وفي محاولة لتوضيح فكرتي، ستكون تمثيلات أخرى ضرورية.

تصوُّر أنك على متن قطار. المحطات تتتابع. وأنت تشاطر مجموع الركّاب الآخرين رؤية بعض المشهد. وما إن يغادر القطار محطة ما حتى لا يعود ثمّة مسألة عودتك إليها. كما أنه لن يكون هناك مسألة بلوغك أيّما محطة على الخط قبل القطار نفسه. أنا أعتقد أن الوقت يقارَن بقطار في صميم فضائنا ذي الأبعاد الثلاثة.

لنفترض الآن أنك تغادر القطار لتركب سيارة. إن ذلك يعود إلى إحراز

الحرية في بُعد جديد. إنك قادر على العودة إلى المحطات التي سبق أن توقّف فيها القطار، وبلوغ محطات أخرى قبل أن يبلغها القطار.

في الوقت العادي، يتعيّن عليك القيام برحلة خطية بسرعة معيّنة. وفي الوقت المفرط الأبعاد، لديك إمكانية الانطلاق في أيّما اتجاه وضبط السرعة بحسب مشيئتك. بالطبع، إن ذلك شيء صعب تصوُّره لأن دماغنا ليس مفرط الأبعاد.

لنأخذ مثلاً آخر، أنت واقف في ركن أحد الشوارع، وتشهد عرضاً ما. بالنسبة إليك، تتعاقب في سلسلة ظهور واختفاء مفاجئين جوقة البوّاقين والمركبات (العربات)، والبزّات النظامية. هكذا نستطيع أن نمثّل الشعور العادي الذي لدينا عن الأحداث في عالمنا ذي الأبعاد الثلاثة.

لنفرض الآن أنك تتابع الطريق باتجاه العرض نفسه. فوفقاً لوتيرة المسير تصلك «الأحداث» التي يتألف منها على نحو أبطأ كثيراً جداً، لا بل بـ «العكس» أو مقلوبة.

لنتصوَّر بعد ذلك أنك تسير في الاتجاه المعاكس. تتتالى «الأحداث» بالنسبة اليك على نحو أسرع مرتين اثنتين.

وإذا ما سلكت طريقاً مختصراً (قادومية)، فبوسعك أن تلحق بالعرض في منتصفه، لا بل في بدايته. إن الوقت ـ وفي هذه المناسبة العرض ـ يتقوّس وأنت تجتاز هذا الخط المقوَّس.

في بُعد آخر، إنه مسموح لك بأن تشهد العرض في مجمله، من منطاد. إن الماضي، والحاضر، والمستقبل تمتزج. نحن نعرف طفلاً عجيباً: **موتسارت**(١). في سنّ السادسة، كان مشهوراً في أوروبا بأسرها. وراشداً، قال ذات يوم عن طريقته في التأليف الموسيقي: «روحياً، أنا أعانق المجموع بنظرة خاطفة واحدة، أنا لا أسمعه، في الخيال، كسلسلة متتالية ـ كما سيتقدم ذلك في ما بعد ـ ولكن دفعة واحدة، تقريباً. إن كل الابتكار يتمّ في ذاتي كما لو كان في حلم جميل.».

اليوم، لا أحد يدري كيف كان برونلّتشي[٢] ، قادراً على رفع قبّة كاتدرائية فلورنسا الضخمة في غياب كل تقنية تركيز، ولا ماذا فعل ميكيل أنجيلو[٣] لكي يرسم موضوعاته الكثيرة على جصّ رطب في قبّة مصلّى سستين: بسرعة ومهارة خارقتين للطبيعة. ولكن الواحد، كالآخر، أكّد أنه استدعى، وتلقّى، عوناً فوق طبيعي، وبالوسع التفكير في أن ذلك هو ما سمح لهما بالتعالي أو التسامي فوق حدود المدى والوقت العادية.

لعلنا، من غير أن ندري، نتمتع بجميع القدرات الحواسيّة والفكرية (العقلية) التي يمكن أن تتيح لنا أن نرى أو نحقق أشياء تبدو مستحيلة، ظاهرياً. وأعتقد، أنا شخصياً، أن تطورنا لم ينتهِ بعد.

هوذا أحد الأسباب لديّ لكي أبديه. في الفصل الرابع عشر، أشرت إلى أن الرسامين الصخريين في عصر ما قبل التاريخ لم يستخدموا قط لا اللون الأخضر ولا اللون الأزرق. ذلك بأنهم كانوا، جزئياً، مصابين بعمى الألوان، مثلما هي مصابة أغلبية الحيوانات اليوم.

قبل ألفين من السنين، وحسب، لم يكن لدى أسلافنا سوى إدراك بدائي للألوان. بالنسبة إلى زينوفان[٤] ليس في قوس قزح سوى ثلاثة ألوان: البنفسجي، والأحمر، والأصفر، وأرسطو[٥] نفسه تحدّث عن قوس قزح مثلث الألوان. ولم يكن ديموستينس [٦] يعرف غير الأسود، والأبيض، والأحمر، والأصفر. وعلى الأرجح، كان هوميروس[٧] يعتقد أن للبحر لون النبيذ نفسه. وبالكيفية عينها، ليس في الاصطلاحات التعبيرية الهندية ــ الأوروپية [صفة اللغات الأوروپية والآسيوية المتحدرة من أصل مشترك] البدائية أي كلمات للإشارة إلى الألوان.

واليوم، إذا ما كنّا ندرك أو نلتقط ألواناً أكثر ممّا كان يدرك أسلافنا، فإننا لا نرى سوى جزء مصغّر من الطيف. وكذلك نحن صُمٌّ بالنسبة إلى الأصوات الفوقية [الصوت الفوقي: اهتزاز من طبيعة الصوت ولكن تردُّدة من القوة بحيث يجعل سماعه متعذّراً] التي يسمعها الكلاب، والأصوات الخفيضة على نحو أكثر.

ولكن من الممكن أن تتأكد إدراكاتنا الحية بَعْد إذا ما تواصل تطوّرنا.

لماذا لا ينسحب ذلك على قدراتنا الفكرية والعقلية؟ لعلّنا سنكتب، مع الوقت، ما يتيح الآن لبعض الأطفال المعجزة ولبعض النوابغ والعباقرة أن يحققوا أعمالاً مدهشة واستثنائية من غير أدنى تثقُّف. ويروون أن بعض الحكماء الشرقيين قادرون على الارتفاع عن الأرض من تلقاء أنفسهم (عملية الاسترفاع). هل أن الأمر يتعلّق بكامن (موجود بالقوة) آخر من تلك الكوامن الطبيعية التي نجح أصدقاؤنا الفضائيون في تشغيلها؟

وحتى عندما ستتوقّف، بكيفية رئيسية، الموجزات عبر المدى ـ الوقت، والمرور عبر كون متعدد الأبعاد، على التقنية وليس على المواهب الاحتمالية، سأواصل الاعتقاد بأنها ممكنة. وليُسمح لي بتمثيل أخير.

في نيويورك مبنيان اثنان، ظهراً لظهر. مدخل أحدهما يطلّ على الجادّة الخامسة، ومدخل الآخر يطلّ على الجادّة السادسة. السيد وايت وزوجته يقيمان في الطبقة الرابعة من أحد هذين المبنيين الاثنين، وأحد جدران قاعة الجلوس في مسكنهما هو المتراجع (القسم من البناء المتأخر عن القسم الرئيسي) من المبنى.

ويقطن صديقاهما الزوجان بلاك في الطبقة السابعة، من المبنى الآخر، وأحد جدران قاعة جلوسهما يشكّل أيضاً الجدار الخلفي لمبناهما الشخصي. بحيث أن أُسرتين اثنتين تعيشان على بعد عشرات السنتيمترات الواحدة من الأخرى طالما أن جدار المبنيين الاثنين هو جدار مشترك. ولكن، بالطبع، لا ترى الواحدة منهما الأخرى ولا تسمعها.

عندما يزور الزوجان بلاك الزوجين وايت، يغادران قاعة جلوسهما، ويخفّان إلى باب الدخول في مسكنهما. ويقودهما ممشى طويل إلى المصعد. ويهبطان سبع طبقات. وما إن يصبحا في الشارع، حتى يضطرا إلى القيام بالدوران حول الهِدْفة (= مجموعة البيوت)، وفي نيويورك، يُعتبر ذلك

مسافة سير! وفي الطقس الرديء، يتفق لهما أن يستقلاّ سيارة أُجرة. ويدخلان المبنى الآخر، مجتازَيْن قاعة الدخول، ويصعدان سبع طبقات بوساطة المصعد، ويسلكان ممشى، ويضغطان على الجرس، وينتهي بهما الأمر إلى دخول قاعة الجلوس في مسكن صديقيهما، الواقعة على بعد سنتيمترات قليلة من قاعة جلوسهما شخصياً.

وينتقل الزوجان بلاك بالطريقة عينها التي تواجه بها حضارتنا الرحلات الفضائية؛ ينبغي، مادياً، اجتياز مسافات متعددة الأبعاد هائلة. ولكن، لنفرض أنهما يستطيعان أن يجتازا هذه السنتيمترات القليلة من الجدار، من غير إصابة الجدار بأي أذى، ومن غير أن يصابا شخصياً بأذى: ربما أقبل الأسلاف الكبار، على هذه الصورة، من كوكبهم الغامض. من يدري؟! بدلاً من اجتياز الفضاء، إذا ما كانوا قد تجنّبوه!

أَنَا أَرَى هنا تفسير ما قد يمكن أن يكون حدث في بحيرة تيتيكاكا، وفي تياهواناكو. وأحسب أنه هكذا جاء أولئك الذين بنوا المدن المبنية في سلسلة جبال الآندز، وفي مصر، والذين رسموا هذه الرسوم الهائلة في الصحراء البيروڤية، ووضعوا خريطة عالمنا قبل أن تكون الخرائطية (رسم الخرائط أو فن رسمها) ممكنة، وسيطروا على القوى الغامضة والغريبة، مهما تكن التي ظهرت في **مثلث برمودا** أو في داخل **الأهرام** في مصر. وأعتقد أن هكذا ظهر ثم اختفى كثيرون من القادة الدينيين، والكثيرون من الأنبياء وفقاً لما ترويه الأساطير؛ لقد انتقلوا جميعاً، بكل بساطة إلى أبعاد أخرى.

إن الإنسان غير كامل، ويُجمع الحكماء على قول هذا. لعلّه ليس سوى الظل الثلاثي البعد لكيانه الكامل ذي الأبعاد الخمسة.

إذا كانت تلك هي الحال، فإن الأفضل هو في الطريق إلينا. ففي يوم من الأيام، ستكون حياتنا أكثر حدّة، وأكثر نباهة، وأكثر حساسية، من حياة جميع المخلوقات المعروفة. وفي انتظار ذلك، يتعيّن علينا أن نبقى مرنين، وقلقين، ومنفتحين؛ ويتعيّن علينا أن نواصل بحثنا، وتساؤلنا حتى نهاية

مطامحنا الأكثر رفعة، وآمالنا الأكثر كذباً، وحتى في ما وراء ذلك. ذلك بأننا إذا ما عرفنا أن نبدي جرأة كافية، وأن نتابع دوماً بحثنا أبعد، بعد، إذا ما تسلّم الخيال زمام الأمور، عندئذ تتحقّق فرضياتنا الأكثر غرابة، وسنصل إلى حيث لم يكن ممكناً أن نتصوّره على الإطلاق.

إن السبيل مفتوح. إنه دورنا في العمل!

هوامش المترجم

---

(١) **ولفغانغ آميديوس موتسارت**: مؤلف موسيقي نمساوي (١٧٥٦ ـ ١٧٩١)، أحد أساطين الفن الغنائي الكبار، وصاحب عدد لا بأس به من الأوبرات الناجحة (عرس فيغارو، ودون جيوڤاني، والناي السحري، واختطاف في السراي، . . . الخ). وندين له، علاوة على ذلك، بسنفونيات رائعة، وسوناتات، وكونشرتات، للبيانو، وأعمال موسيقية دينية وحُجرية، وموسيقى رائعة خاصة بالموتى (١٧٩١). كان سيّد الميلوديا، سعى وراء الصفاء، والأناقة، والرهافة، وعرف كيف يبلغ العظمة من خلال البساطة والسحر.

(٢) **فيليبي برونلّتشي**: مهندس معماريّ إيطالي (١٣٧٧ ـ ١٤٤٦). بدأ حياته صانعاً، وقد اكتشف روعة العصور القديمة في روما، وأصبح في فلورنسا طليعيّ عصر النهضة الأوروبية الكبير (رواق مستشفى الأبرياء [١٤١٩] ـ والرواق هو ممرّ مكشوف الوجه مسقوف بعقود على أعمدة؛ قُبّة سانتا ماريّا دِلْ فيوره، مَوْهِف (أو سكرستيّا) سان لورنزو القديمة . . . الخ).

(٣) **ميكيل أنجيلو بوونارّوتي**: نحّات، ورسام، ومهندس معماري، وشاعر إيطالي (١٤٧٥ ـ ١٥٦٤). لم يعادل أحد أصالته، وقوة مفاهيمه. وتدهش أعماله في آن من حيث تنوعها وطابعها الفخيم. ومن أشهرها منحوتتا الشفقة، وداود، وتمثالا العبيد، وموسى، وضريحان لعظيمين من آل ميدتشي في فلورنسا، والتماثيل المختلفة المخصّصة لضريح البابا جول الثاني، وأفاريز مصلّى سستين، والقسم الواقع تحت قُبّة كاتدرائية القديس بطرس في روما.

(٤) **زينوفان**: فيلسوف إغريقي، مولود حوالى نهاية القرن السادس قبل الميلاد. مؤسس المدرسة الإيلية ـ وإيليا هي مدينة في ايطاليا (لوكانيا)، مستعمرة الفوسيين ذوي الشهرة التجارية في القرن السابع قبل الميلاد، وهم من إيونيا، في آسيا الصغرى؛

وإيليا وهي موطن الفيلسوفين زينون الإيلي وپارمينيدس، من القرن الخامس ق.م. اللذين يجعلان من الواجب الوجود مُطلقاً سرمدياً.

(٥) **أرسطو**: فيلسوف إغريقي يشتهر بلقب **المعلّم الأول**، مولود في اسطغرا (مقدونيا) [٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م]. كان معلّم الإسكندر ذي القرنين. كان مؤسس **المدرسة االمشّائية**. ويرتكز نظامه على مفهوم للكون، حيث يعبّر تنوّع ما يؤلفه عن وحدة كان يبرزها الفيلسوف ذو المعرفة الموسوعية في خطاب دقيق. ولأرسطو مؤلفات كثيرة في المنطق، والسياسة، والتاريخ الطبيعي، والطبيعيات (الفيزياء)، وما وراء الطبيعة (الميتافيزيا)، وهو مؤسس المنطق الصُوَري، وقد طبعت أعماله الفلسفة واللاهوت في القرون الوسطى في الغرب، وأثّر في عدد من فلاسفة الإسلام.

(٦) **ديموستينس**: سياسي وخطيب أثيني (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م): تغلّب على عيوبه الجسدية وخاصة في النطق بفضل الدراسة والمثابرة والعناد، وغدا خطيباً مفوّهاً. وقد استخدم ملكته الخطابية في المحاماة أولاً، ثم في السياسة ضد الملك فيليپوس المقدوني الذي كان يريد السيطرة على اليونان. وقد عرف النفي فترة من الزمن، ولم يرضَ بخضوع بلاده للاسكندر الكبير، ابن الملك المذكور، فشجع اليونانيين الثائرين عقب وفاة ذي القرنين. وحيال إخفاق العصيان انتحر بالسمّ.

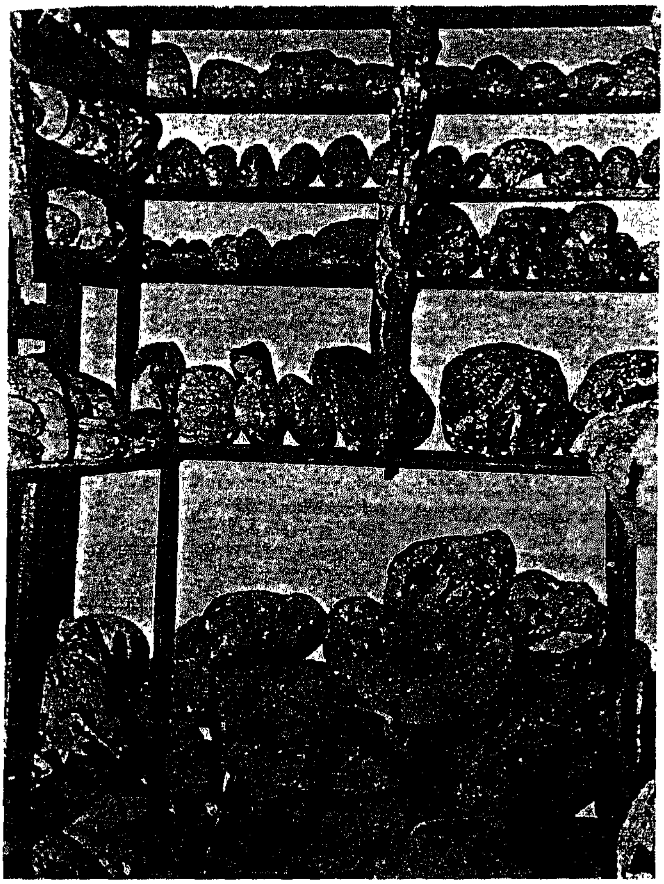
(٧) **هوميروس**: شاعر ملحمي إغريقي، يُعتبر صاحب الملحمتين الشعريتين الخالدتين **الإلياذة والأوذيسة**، اللتين أحيط وجودهما المشكوك فيه بالأساطير منذ القرن السادس قبل الميلاد. وكان المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوتس يعتبره يونانياً من آسيا الصغرى، وقد عاش في حوالى سنة ٨٥٠ ق.م. وتمثّله التقاليد امرأً عجوزاً، كفيفاً، يتنقّل من مدينة إلى مدينة، راوياً أشعاره. وقد مارست القصائد الهوميروسية التي كانت تُنشَد في المهرجانات الرسمية وتُدرّس للتلاميذ في العصور القديمة تأثيراً عميقاً في الفلاسفة، والكتّاب، والتربية. وقد احتلّت حتى القرن العشرين، مقاماً مهمّاً في الثقافة الكلاسيكية الأوروبية.

أما **الإلياذة**، فهي ملحمة مؤلفة من ٢٤ نشيداً، وتروي حقبة من حرب طروادة. وأما **الأوذيسة**، فتتألف كذلك من ٢٤ نشيداً، وفيها يروي البطل عوليس (أو أُوليس) الذي أُنقذ من الغرق على يد ألكينوس، ملك الفياسيين، مغامراته منذ مغادرته طروادة، وتنقُّله بين مختلف البلدان. وفي ذلك الحين كان ابنه تيليماك قد شرع في البحث عنه. وتنتهي الملحمة، في قسمها الثالث، بعودة عوليس إلى ايثاكا، والخدعة التي لجأ إليها للتخلّص من طالبي الزواج الذين كانوا يتودّدون إلى زوجته پينيلوپي.

ملحق مصوَّر توضيحي

أعدّه المعرّب زيادة في التوثيق

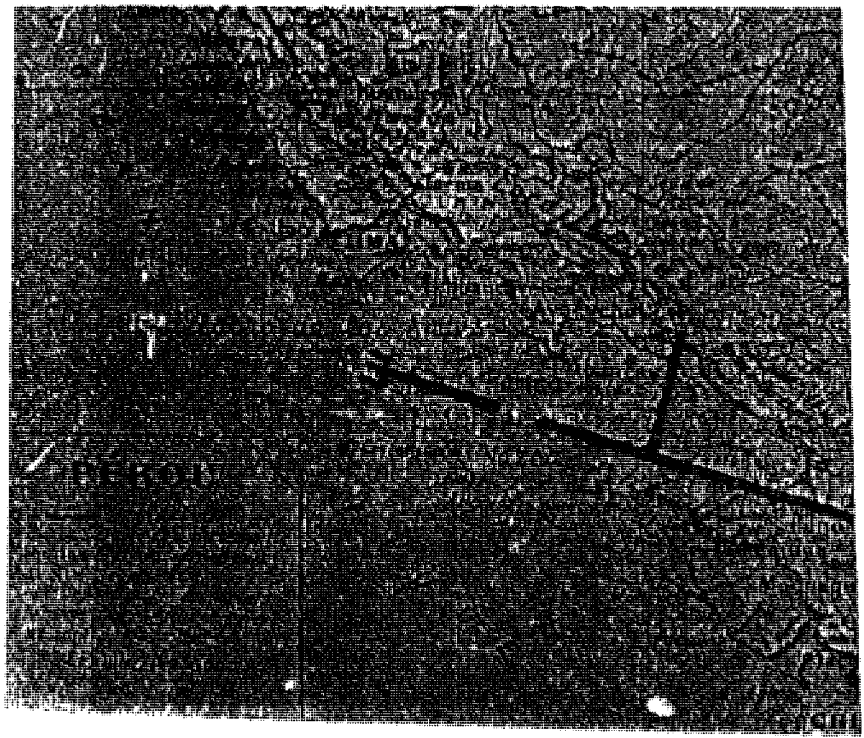
إذ إن الكتاب الأساسي غير مصوّر



آلاف الحجارة المحفورة أو المنحوتة مكدّسة في ملاذ الدكتور كبريرا، في إيكا، في البيرو.

في سنة ١٩٧٣، اكتشف روبير شارو، العالم الأركيولوجي الذي استكشف أعظم المواقع التاريخية في العالم، نحو ٢٠ ألف حجر يعود تاريخها إلى الآلاف المؤلفة من السنين. وقد نُحتت هذه الحجارة ليس بنقوش غامضة أو سرّية، ولكن بمناظر يتمّ التعرُّف إليها وتحديدها فوراً: علماء مزوّدين بعدسات مكبّرة أو مجاهر (تلسكوبات)، وأطباء يقومون بعملية تطعيم قلب، وإجراء عملية قيصرية، وخرائط للمحيطات والسماء.... وكمثل دار كتب هائلة، جُمعت هناك المعارف الخارقة للطبيعة والمتقدمة لأسلافنا المتفوّقين، الذين أقبلوا، بحسب قول شارو، من الفضاء الثاني.

«إن كل ما كان مخبوءاً قد كُشف أو هو ينكشف على مرّ الأيام، ذلك بأننا في فجر **نهاية عالم الغرب**: إن البشر ذوي الرؤية الجلية ينبغي أن يعوا ذلك» ـ يقول العالم شارو هذا...



خريطة البيرو

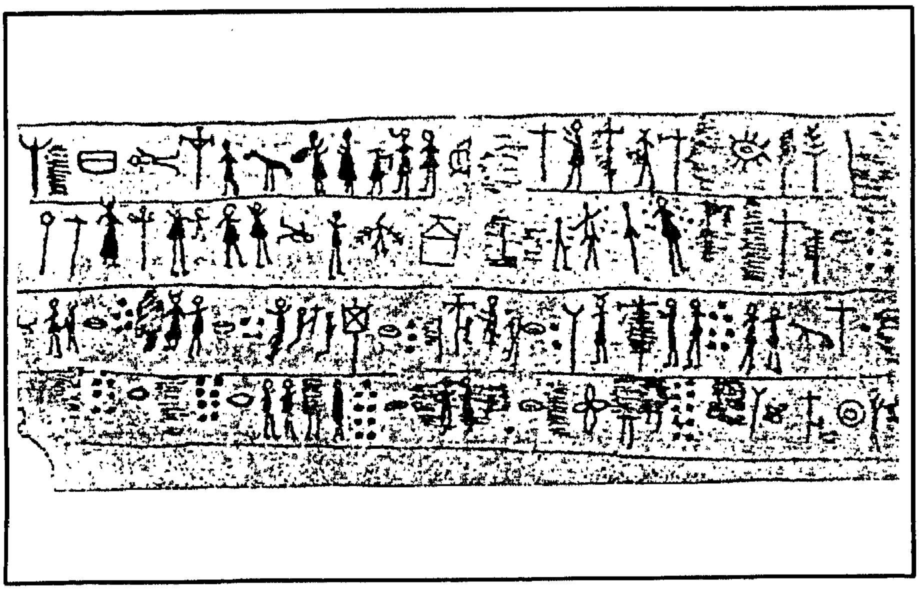
المحور الشمعداني للآندز ـ إيكا ـ نائكا ـ تياهواناكو. هذه المواقع الأربعة المقدسة هي قائمة على خط مستقيم بدقة يُبعد المصادفة.

أما **الشوكة الثلاثية**، نهاية **الخط المقدّس**، فهي محفورة على تلة انحدارها المتوسط هو ٣٨ درجة، بحيث أن قممها المثلثة تتجه نحو السماء باتجاه محدّد تماماً.

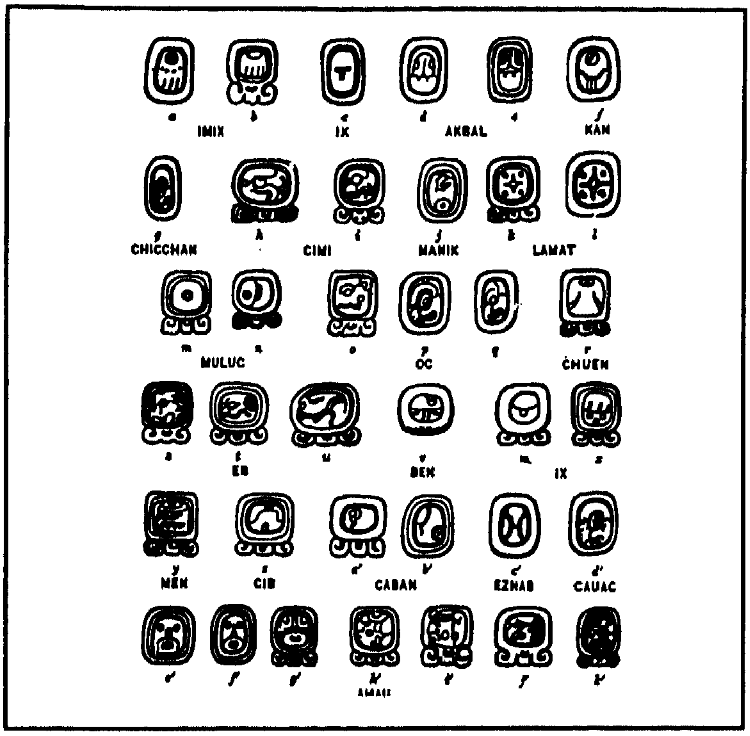
فإلى ما تؤشر الشوكة الرمزية في المحيط الهادىء؟



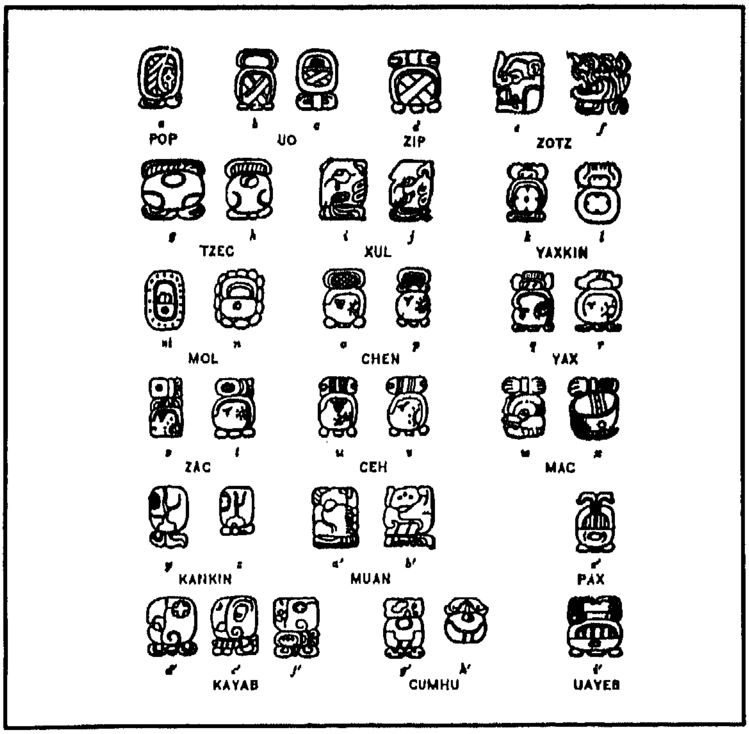
علامات هندسية في الأرض بالقرب من نائكا، في الپيرو.



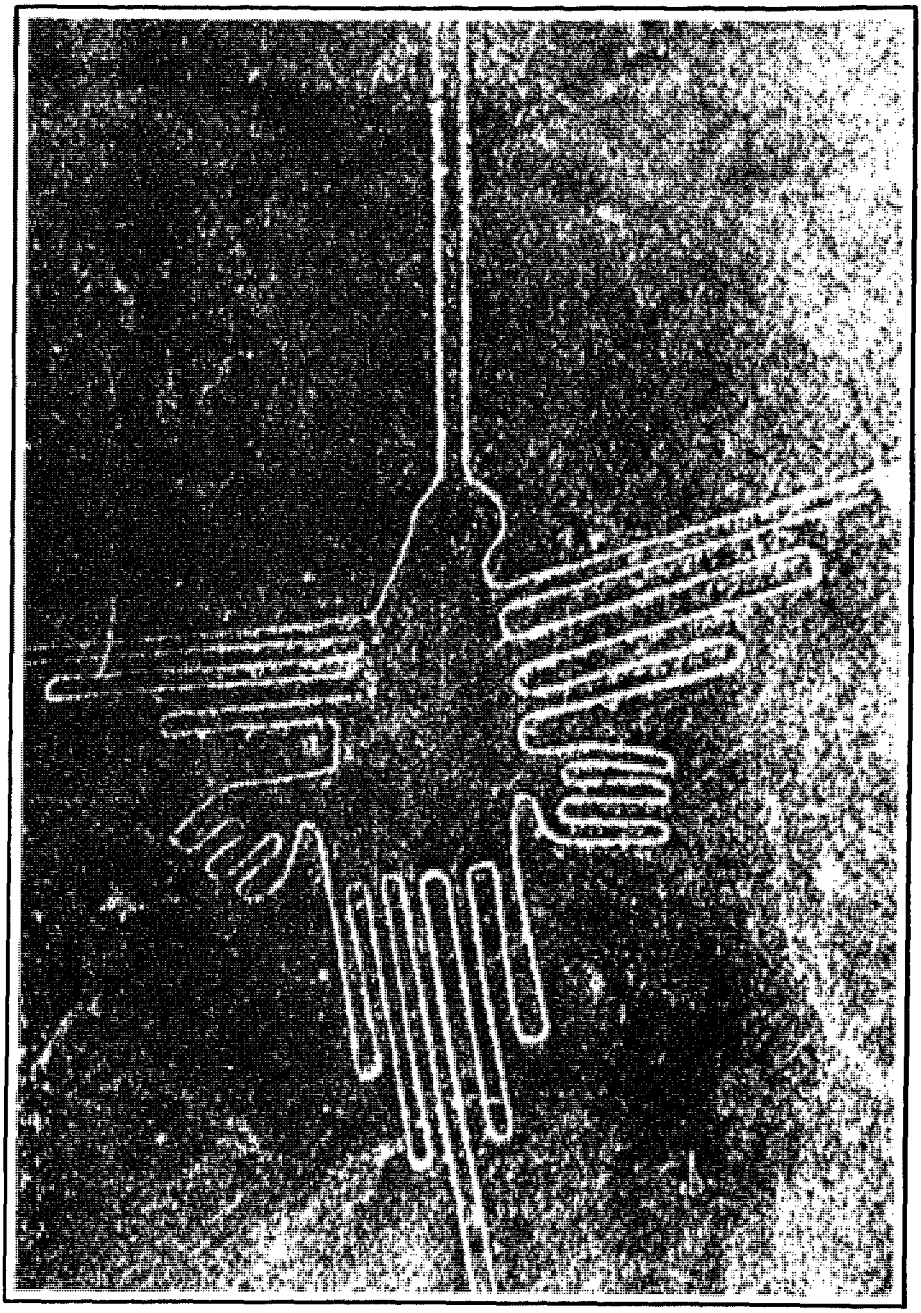
عُثر على نماذج كثيرة من كتابات شعب الإنكا تراوح ما بين أسلوب «لوحات التشوير» (= وضع إشارات الطُرق» [على أقداح من خشب تسمّى كيروس]. والرسوم الرمزية العائد تاريخها إلى ألفيتنا (= ١٠٠٠ سنة، أو عشرة قرون).



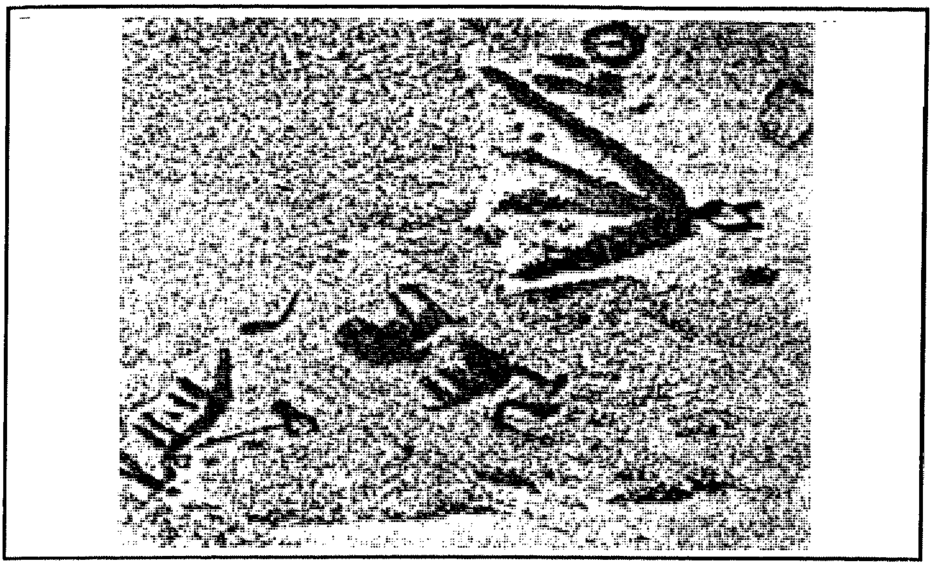
حروف هيروغليفية لشعب المايا: علامات عشرين اسماً للأيام. ونرى أن لبعض الأيام علامات متشابهة.



حروف هيروغليفية لشعب المايا تمثّل أسماء الأشهر. وكانت السنة مقسّمة إلى ١٩ جزءاً هذه أسماؤها.

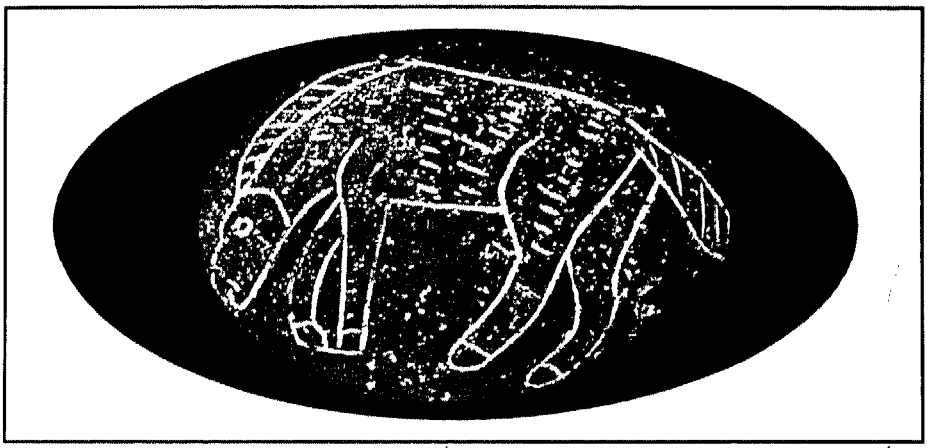


البيكافلور (الكوليبري) هو الطُرَيْس أو الطنَّان ـ عصفور صغير زاهي الريش طويل المنقار قوته الحشرات ورحيق الأزهار. (الصورة التقطتها «مصلحة التصوير الجوي القومية» في البيرو).



إلى اليسار: الطائر المعروف باسم الكندور (نسر جبال الآندز الضخم). إلى اليمين: الإنسان واللامة. في الوسط، حيوانات يُفْتَرض أنها جِمال، نصف ممحاة.

(الصورة التقطتها «مصلحة التصوير الجوي القومية» في الپيرو).

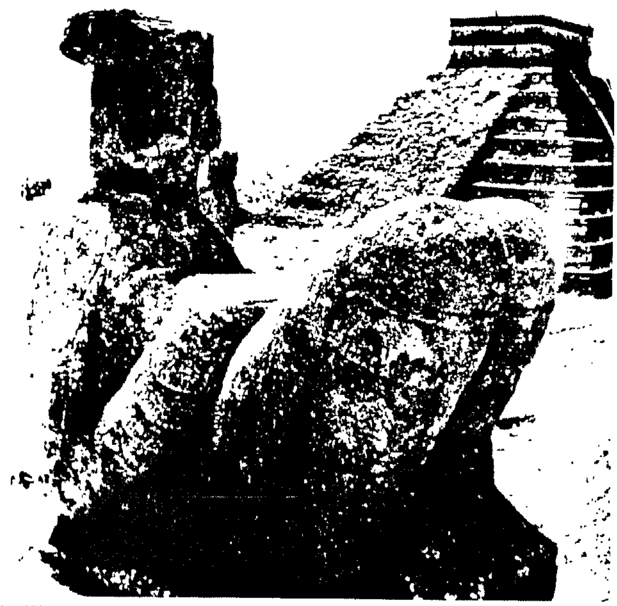


أفَرَأُ التِّيبت (حيوان من الفصيلة الخيلية)، أم أُخْدُر (نوع من الحُمر الوحشية)، أم حصان برّي؟

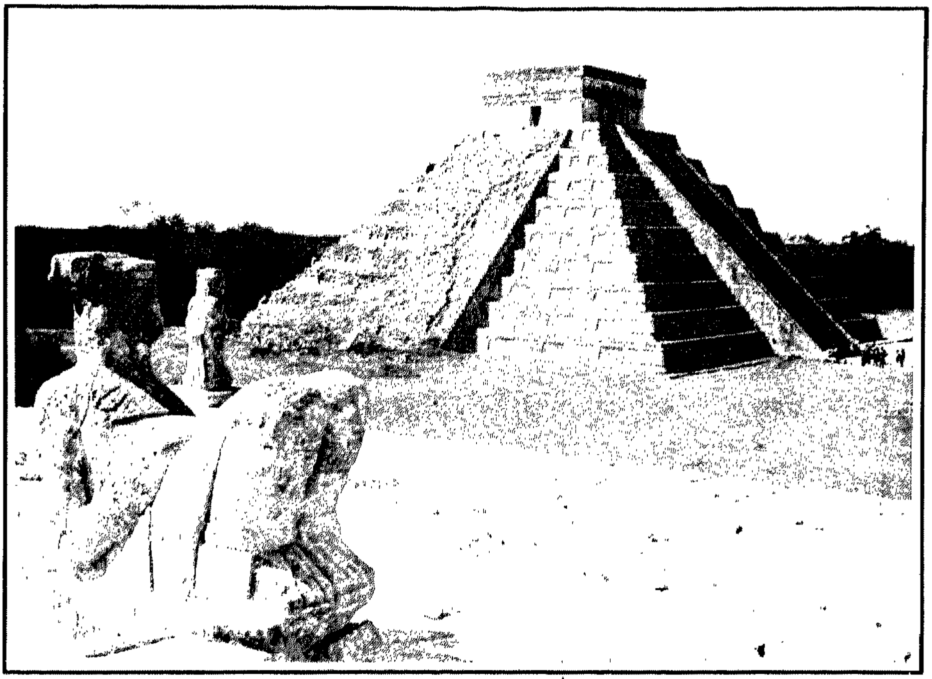
كان الحصان يعيش في أميركا منذ ٢٠ ألف سنة، ثم اختفى نوعه. وقد أدخله المغامرون الإسپان، من الذين نزلوا أميركا، مجدداً إلى الپيرو والمكسيك في القرن التاسع عشر. ويعود تاريخ هذا الاسم إلى نحو ٢٠ سنة على الأقل، وإلى ٣٥٠ سنة على النحو الأحدث.



كوپان:
جزء من الآثار المذهلة التي خلّفها شعب المايا.



جزء من آثار مدينة شيشن إيتزا في أمبراطورية المايا القديمة في يوكاتان. تأسست في القرن السادس، ونمت تماماً بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر.



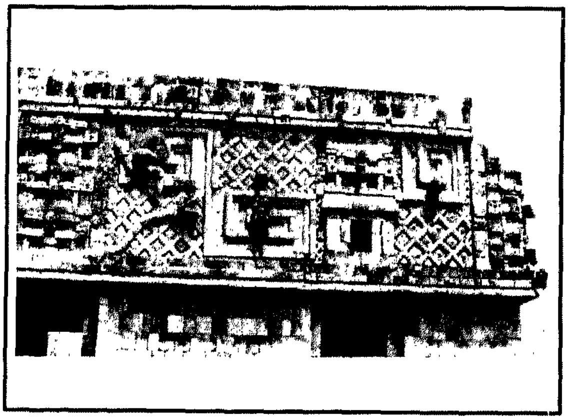
هرم مكرّس للإله كوكوكلان، من آثار شعب المايا.



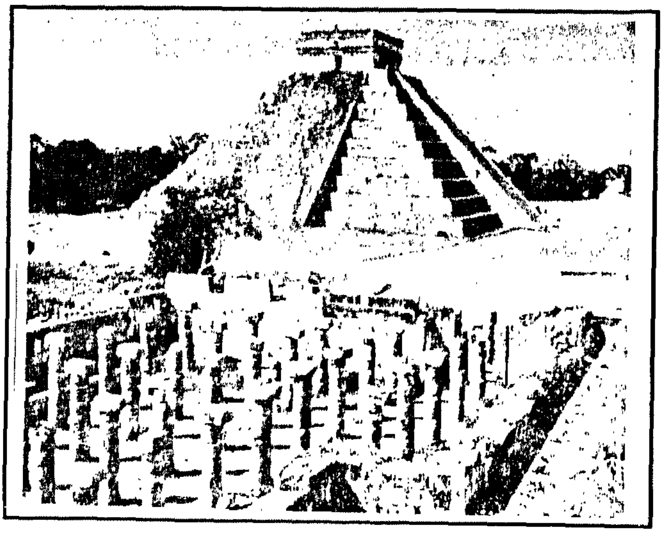
جرّة طقسية من صنع الشعب الذي قطن المكسيك (وادي أوكساكا) قديماً ويعرف باسم **الزابوتك**. وقد بلغت حضارته **الثيوقراطية** (التربُبية، أي الحكومة الإلهية التي يشرف عليها رجال الدين) الذروة في العصر الكلاسيكي [٣٠٠ ــ ٩٠٠]، وكان مركزها الأساسي مونتي ألبان، بالقرب من أوكساكا... وتشهد آثارها [العمارية، والنقوش المحفورة، والمواد الجنائزية] على ديانة معقّدة وفن مرهف ومصقول.



من الرسوم الجدارية ذات الزخرفة الملونة العائدة إلى الحقبة ما بين القرنين السابع ـ التاسع، في موقع **بوناماك**، في المكسيك.



إفريز (طُنُف) يزيّن واجهة أحد مباني **موقع نون** في أوكسمال (يوكاتان، المكسيك).



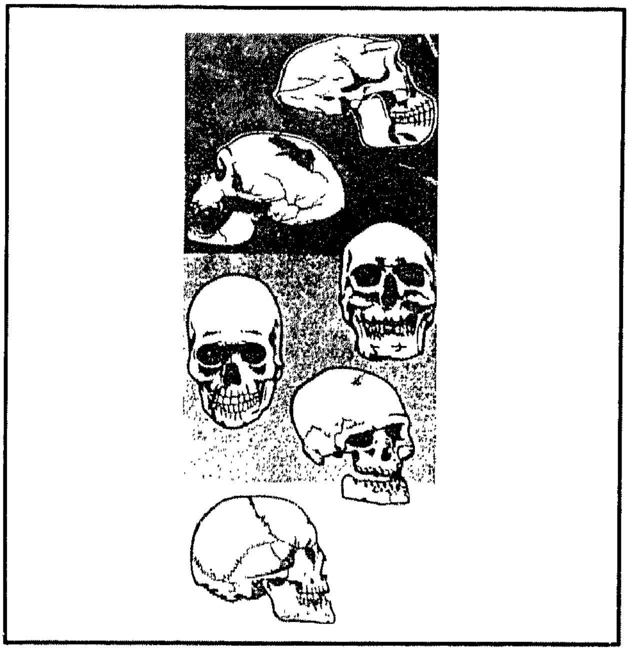
شيشن إتزا: المدينة القديمة في أمبراطورية شعب المايا (في المكسيك) التي تأسست في نحو القرن السادس الميلادي، تقوم فيها **القلعة** (في الخلفية)، وأمامها صف من الأعمدة.

إنسان جاوه، هو أحد الرئيسات (مطلع الدهر الرابع).

إنسان نياندرتال، ظهر في خلال الحقبة البيجليدية الأخيرة.

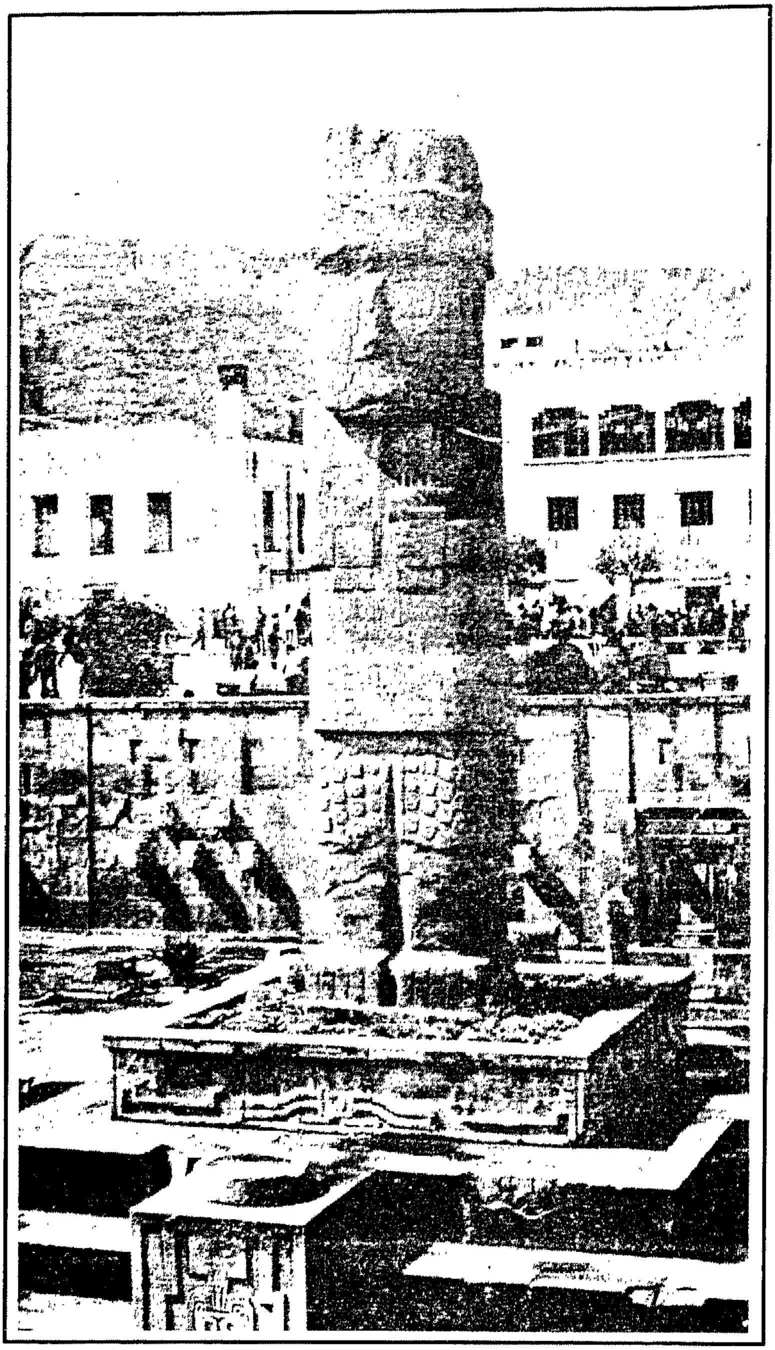
أجناس غريمالدي، وكرو - مانيون، وشانسيلاد، تمثّل الإنسان في عصور ما قبل التاريخ.

جمجمة إنسان اليوم.

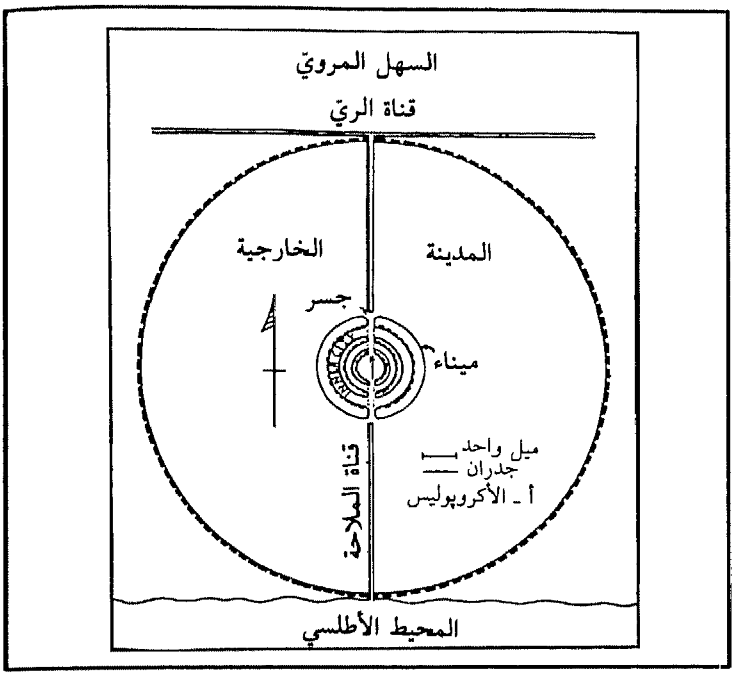


شعوب ما قبل التاريخ وأدواتهم

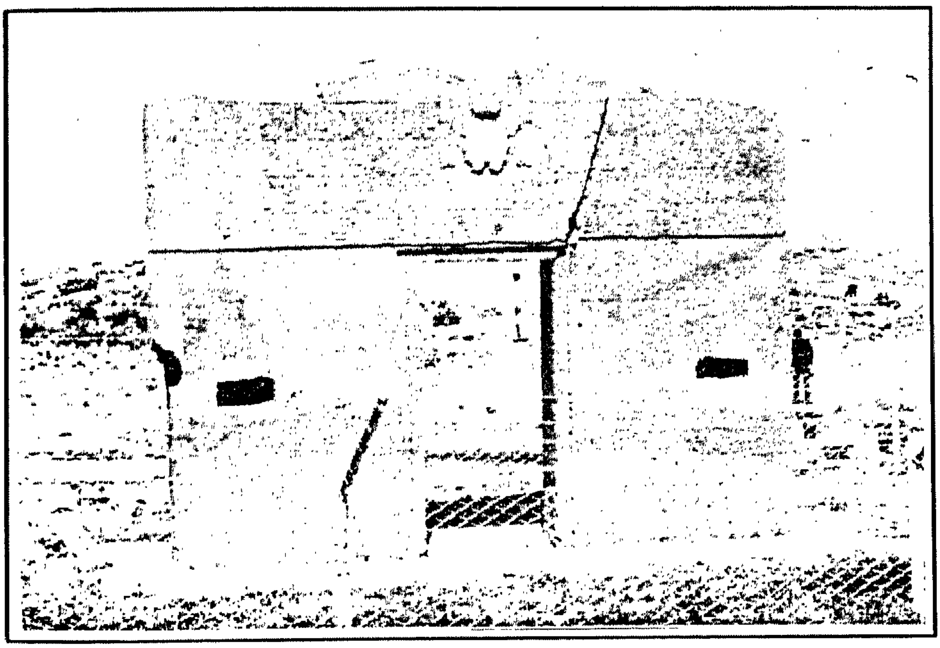




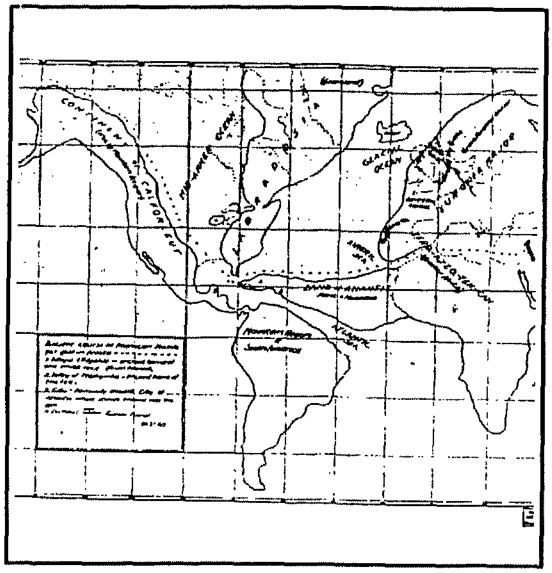
مَنْليث ــ وهو حجر ضخم مُفرد يكون عادة على شكل عمود أو مِسلَّة ــ في تياهواناكو.



مدينة أطلنتيس، كما وصفها أفلاطون.



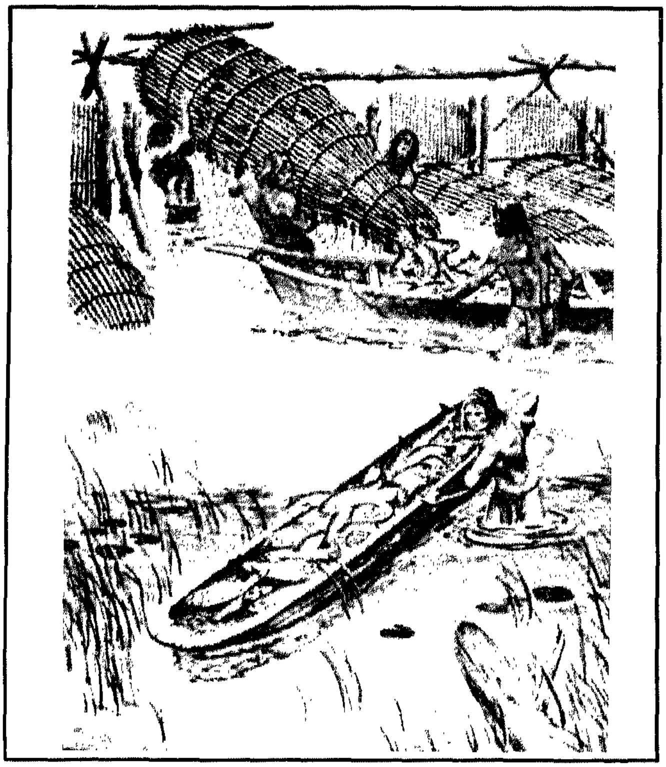
«بوابة الشمس» في تياهواناكو، في بوليڤيا.



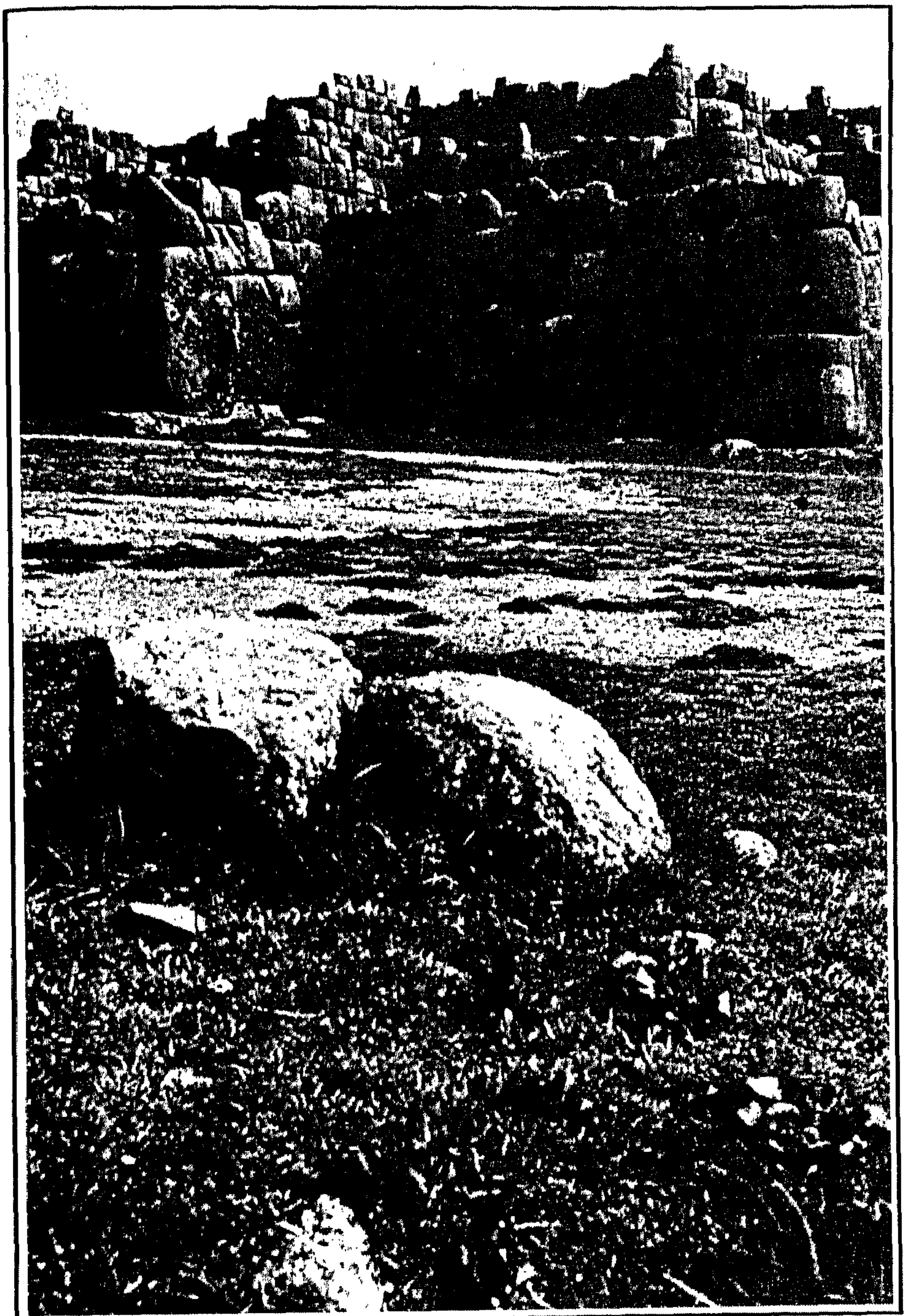
خريطة أطلنتيس من رسم البروفسور ولتر مارتن.



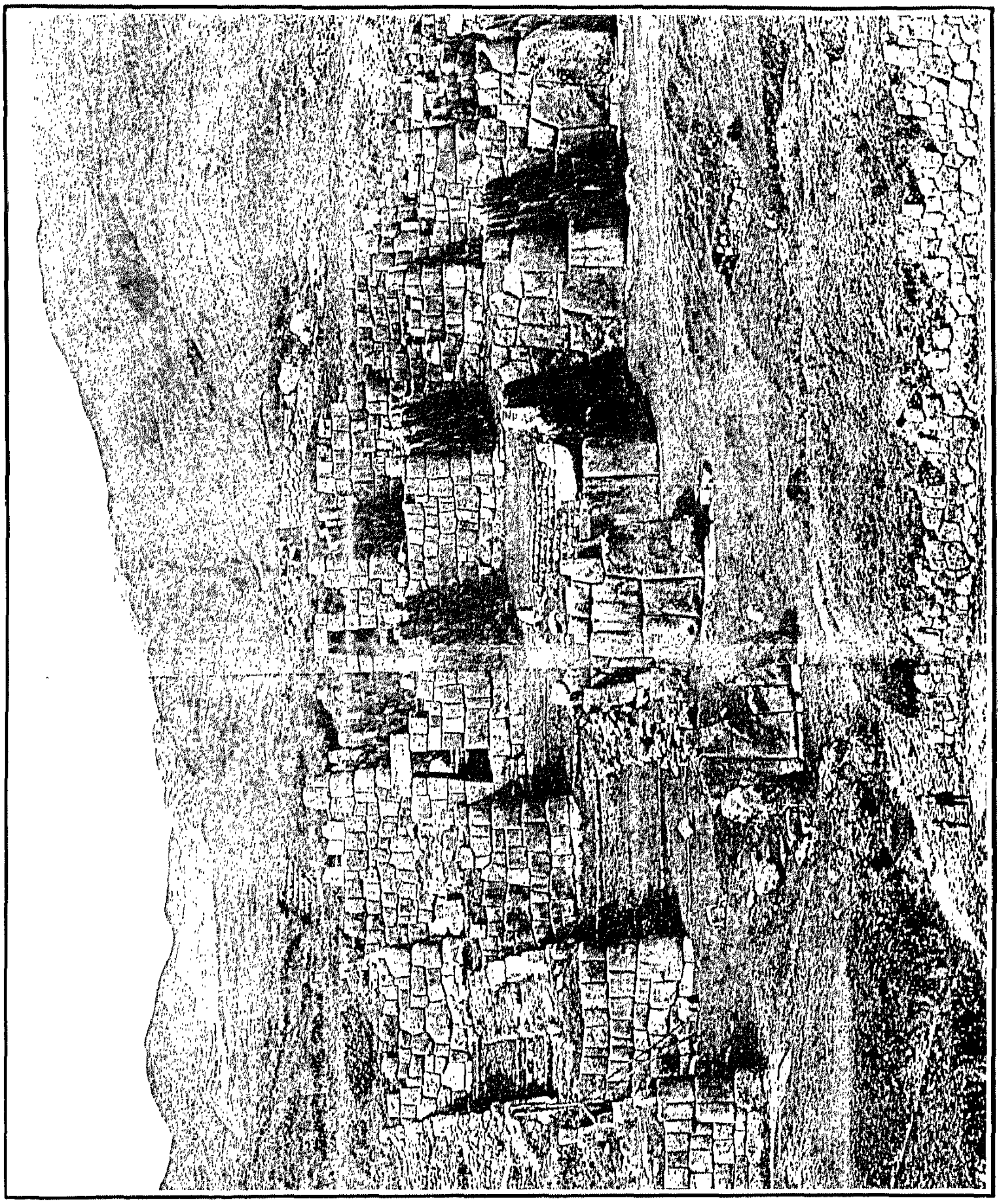
حجر منحوت يُعزى إلى أطلنتيس (٤٠ قرناً قبل الميلاد)، اكتشفه الدكتور كابريرا وروبير شارو.



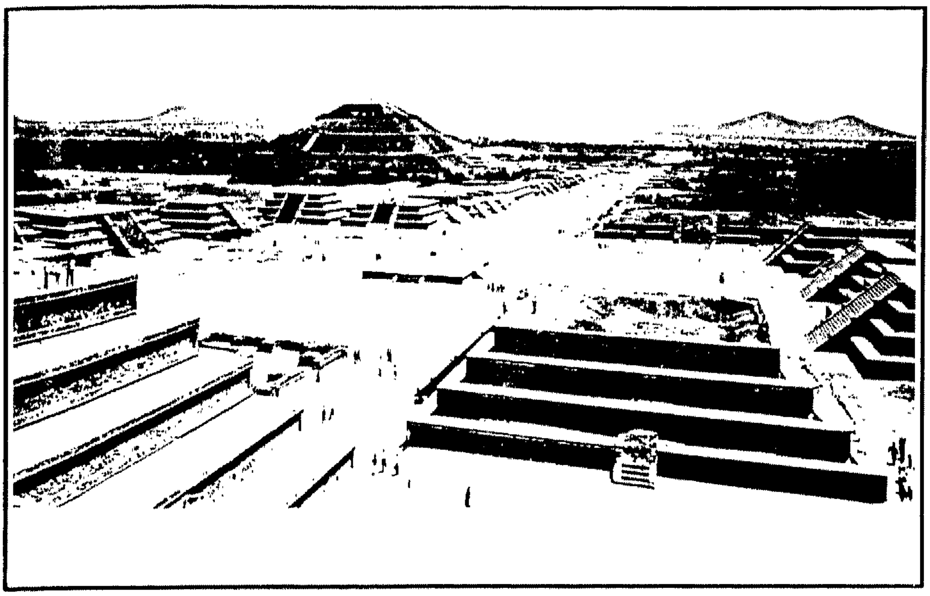
كانت شعوب منتصف العصر الحجري تستخدم أفخاخاً وشراكاً مصنوعة من قصب لصيد السمك.



ساكساهوامان: أحد الجدران المبنية بطريقة «أسنان المنشار»، بحجارة ضخمة لامتساوقة، منحوتة بدقة، ومركّبة الواحد منها فوق الآخر.



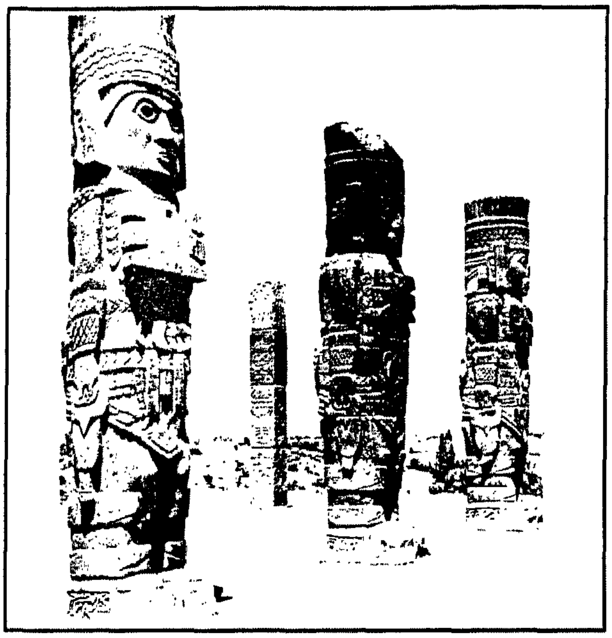
ساكساهوامان: الجدران (أو الأسوار) المبنية بطريقة «أسنان المنشار» في الحصن الرئيسي من قلعة هذه المدينة.



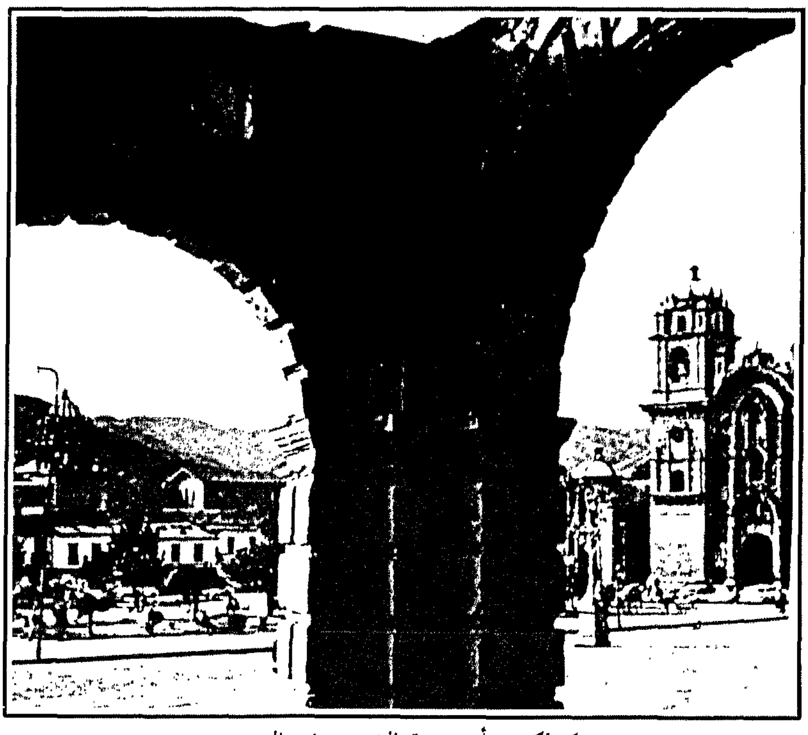
تيوتيهواكان: مدينة ازدهرت في المكسيك ما بين سنة ١٠٠ ق. م. إلى سنة ٦٥٠ أو ٧٠٠ م. ويُرى **هرم الشمس** في الخلفية اليسرى.



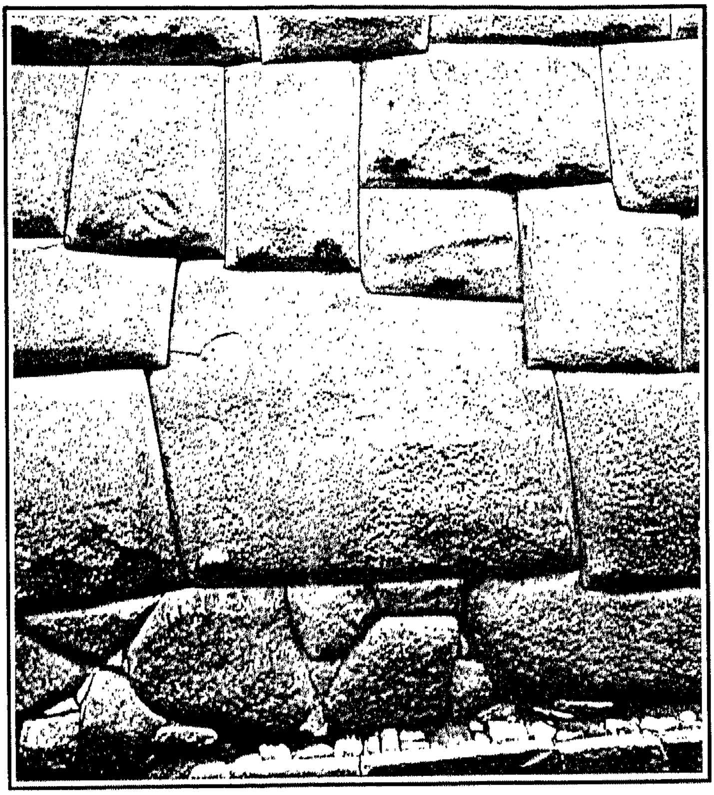
جدار مزيّن أو مزخرف في **تولا**، في المكسيك الوسطى، وقد كانت عاصمة التولتيكيين.



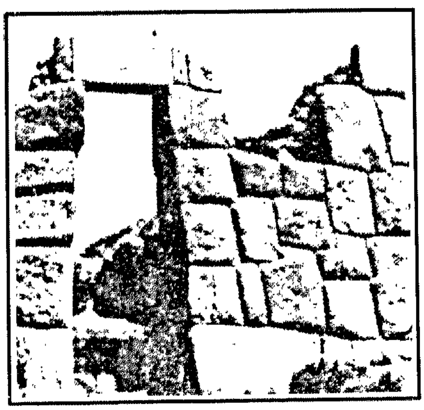
تولا، مدينة مكسيكية تقع على بعد ٥٠ ميلاً من مدينة مكسيكو، تنتصب فيها منليثات (حجارة ضخمة مفردة تكون عادةً على شكل مسلّات أو أعمدة). كانت ذات يوم قاعدة لمعبد تولتيكي.



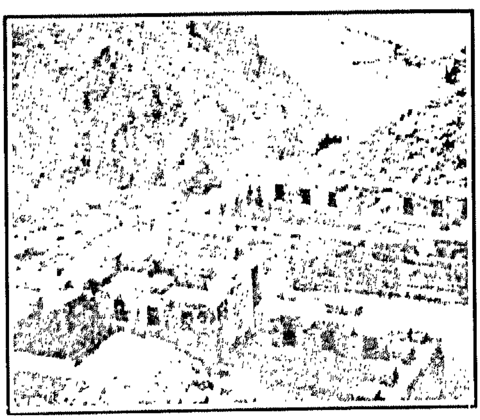
كوثكو، أو مدينة الشمس في البيرو.



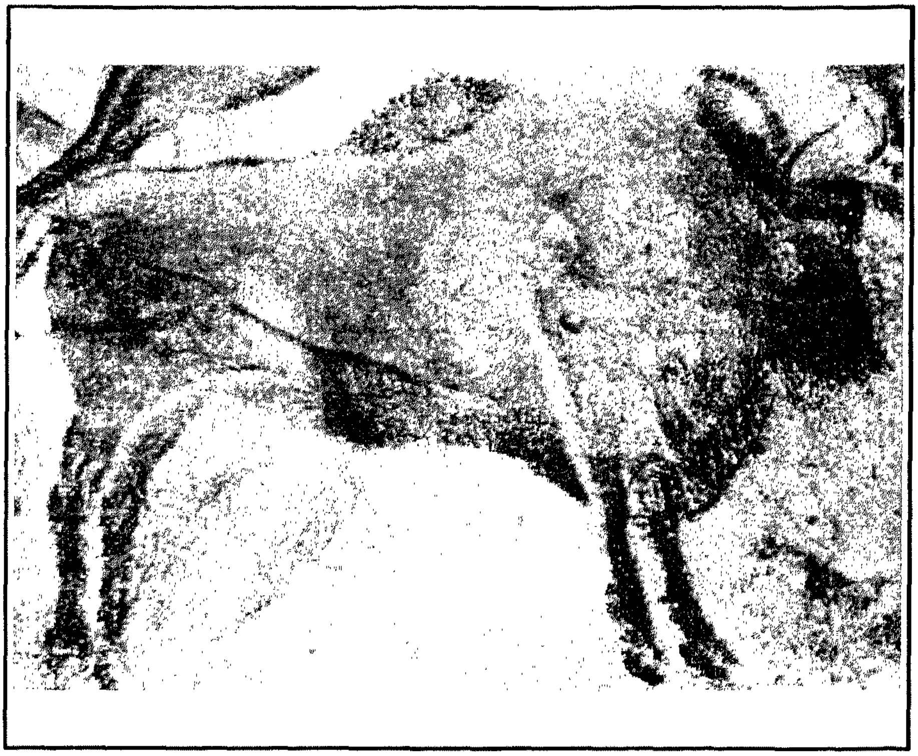
كوثكو: الحجر المسمّى «ذو الزوايا الاثنتي عشرة» المركَّز في مبنى يعود إلى حقبة الإنكا الأخيرة. وتقنية البناء ماهرة ومتقنة إلى حد كبير.



إنكا : أطلال من حضارة الإنكا .



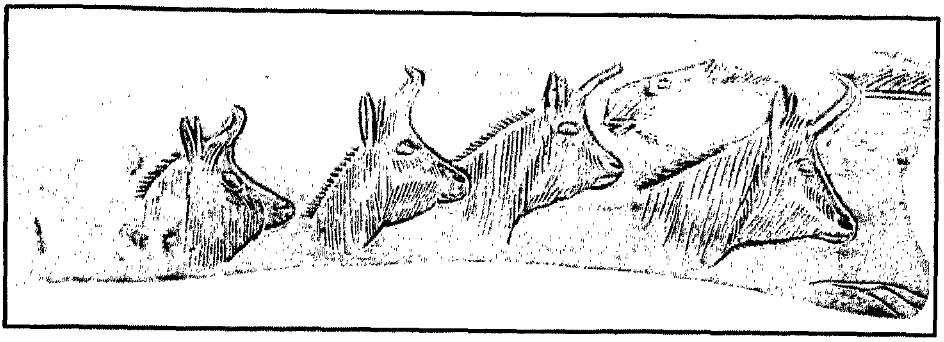
كوثكو: أطلال قرب كوثكو.



بَيسون: محفور ومرسوم بالألوان على جدار في كهف ألتاميرا، في إسپانيا



أيَــــل، مــرســوم بـالفرشاة، في كهف نـيو، فـي فرنسا.



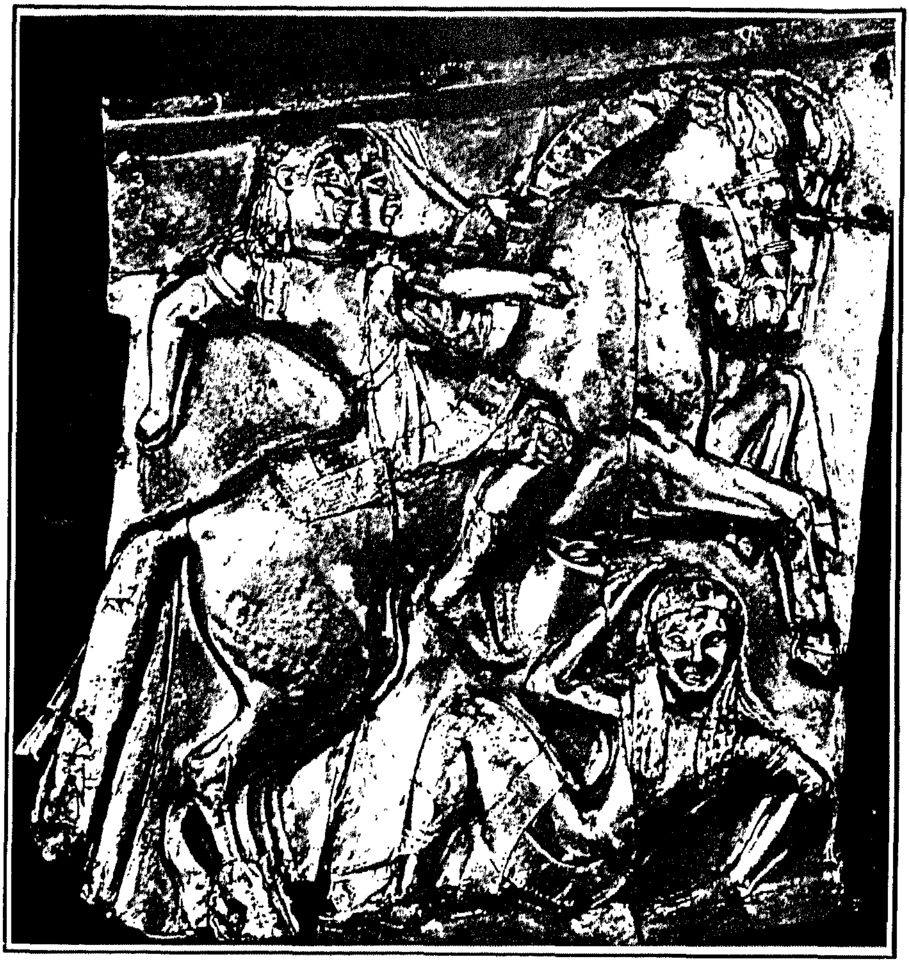
نُحِتت رؤوس الحيوانات الأربعة هذه في قرن وعلٍ (أو شعبة منه) عُثر عليه في كهف غوردان، في فرنسا.



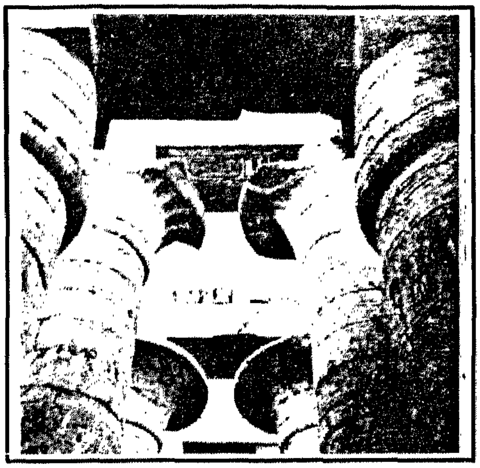
مغاور لاسكو: مشهد يمثّل رؤوس أيائل.



جياد صغيرة وبقرة قافزة، لوحة شهيرة ملوَّنة في كهف لاسكو، في فرنسا.



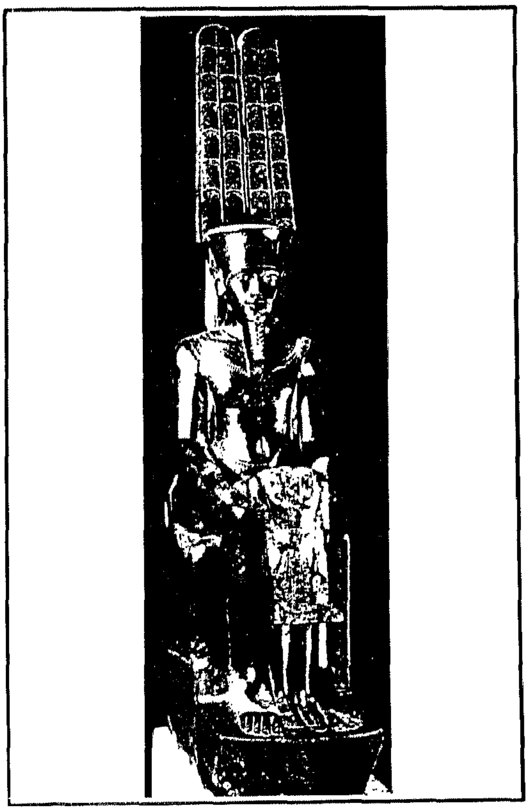
منحوتة **أمازونيات** يخضن غمار معركة، معروضة حالياً في «المتحف البريطاني»، في لندن.



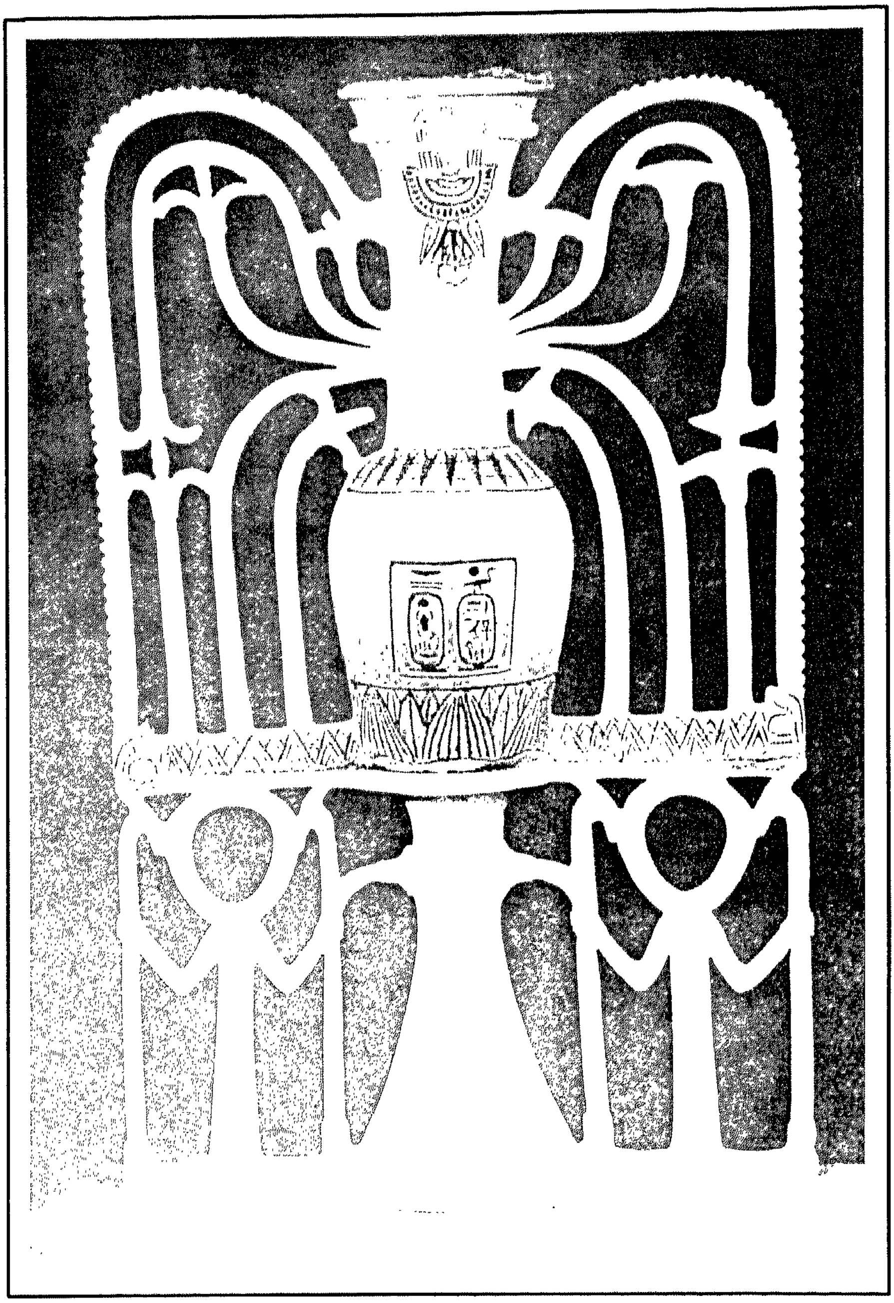
تيجـان **الأعمدة** والعتبـات العليـا للبهو المعمَّد الضخم في **معبد أمون** الكبير في **الكرنك**.



أخناتون، تفصيل للتمثال العمودي المصنـوع من الحجر الرملي في **معبد أتون في الكرنك**، حوالى سنة ١٣٦٠ ق.م.



تمثال من الغرانيت للإله أمون.



آنية من المرمر أحيطت بعناصر زخرفية تمثل بعض المعاني الدينية من عهد توت عنخ أمون .



العرش المصفّح بالذهب للملك توت عنخ أمون .



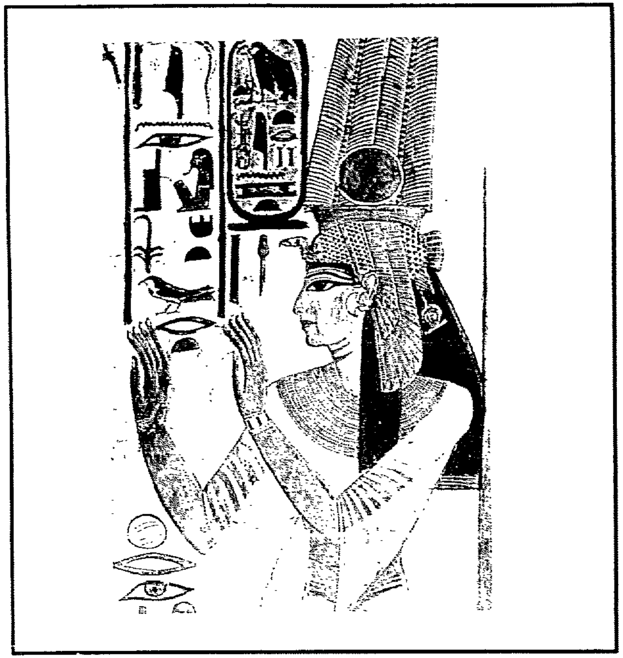
صندوق من مقبرة توت عنخ أمون من الأسرة الثامنة عشرة.



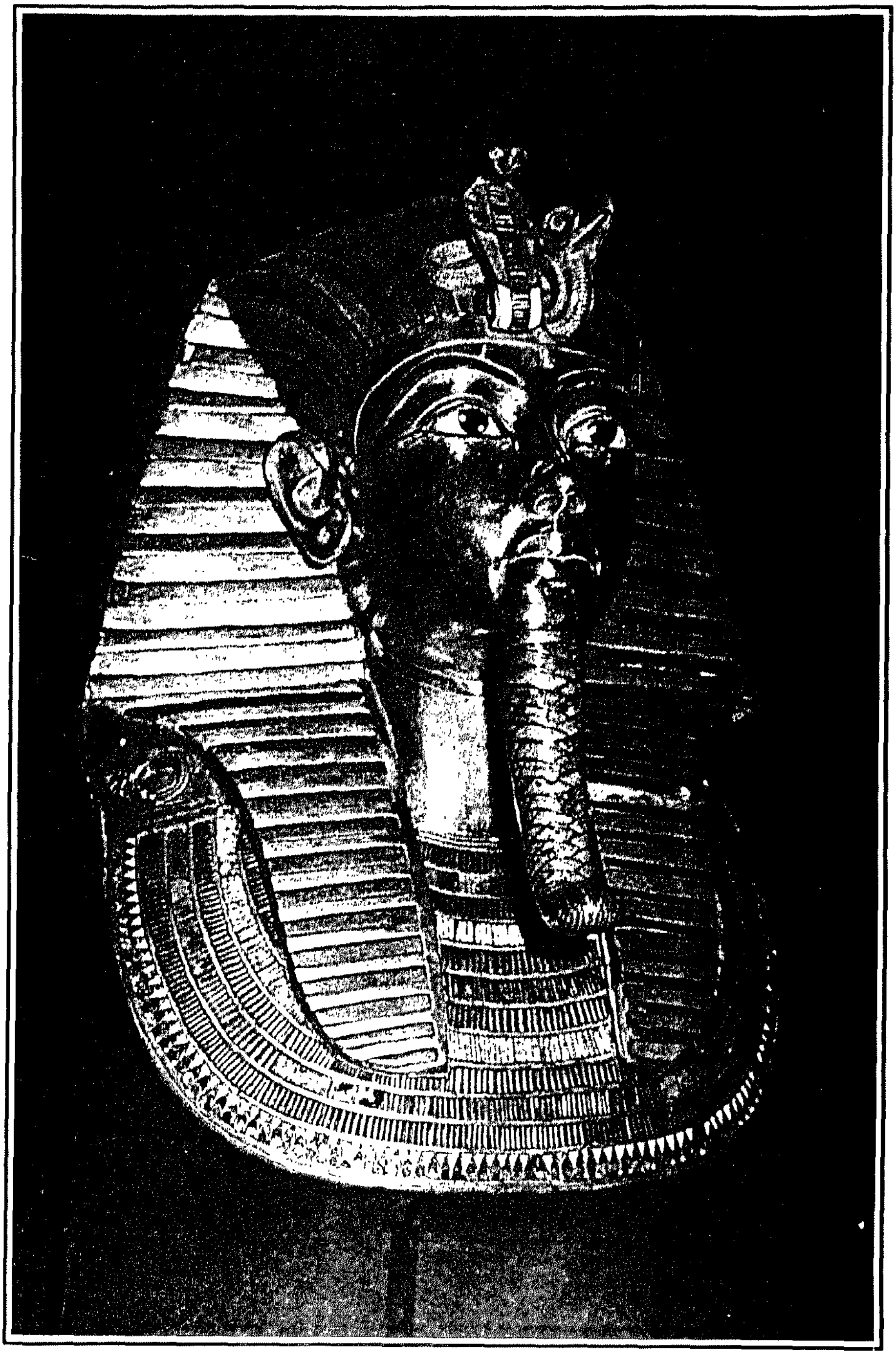
١ ـ رسم جداريّ في أهرام الجيزة لمركب مصنوع من قضبان البرديّ المجدولة.



٢ ـ من كنوز توت عنخ أمون (متحف القاهرة).



٣ ـ نفرتيتى زوجة أمينوفيس الرابع (نحو ١٣٦٠ ق.م).(رسم جداريّ في وادي الملكات).



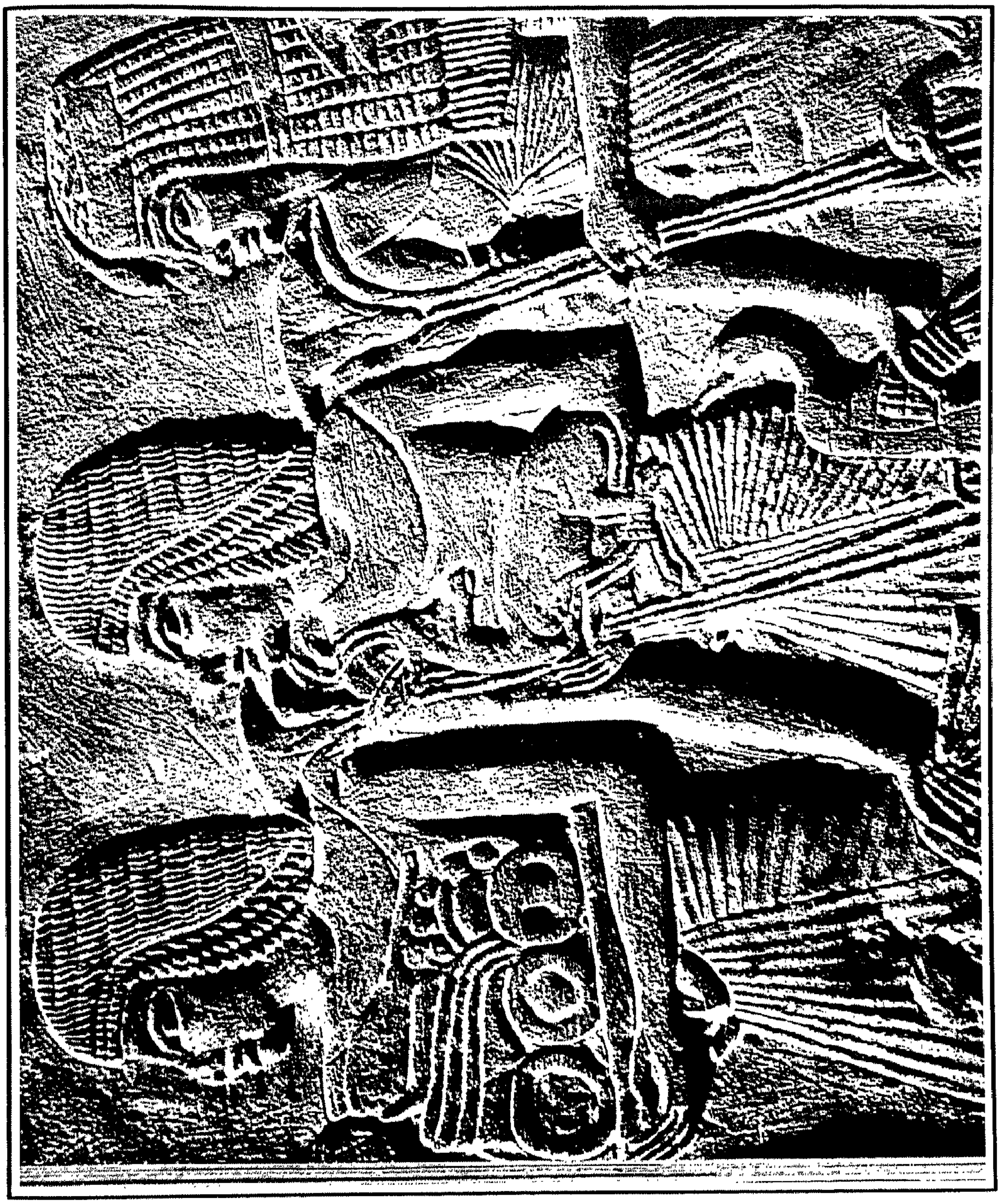
القناع الذهبي للملك توت عنخ أمون.



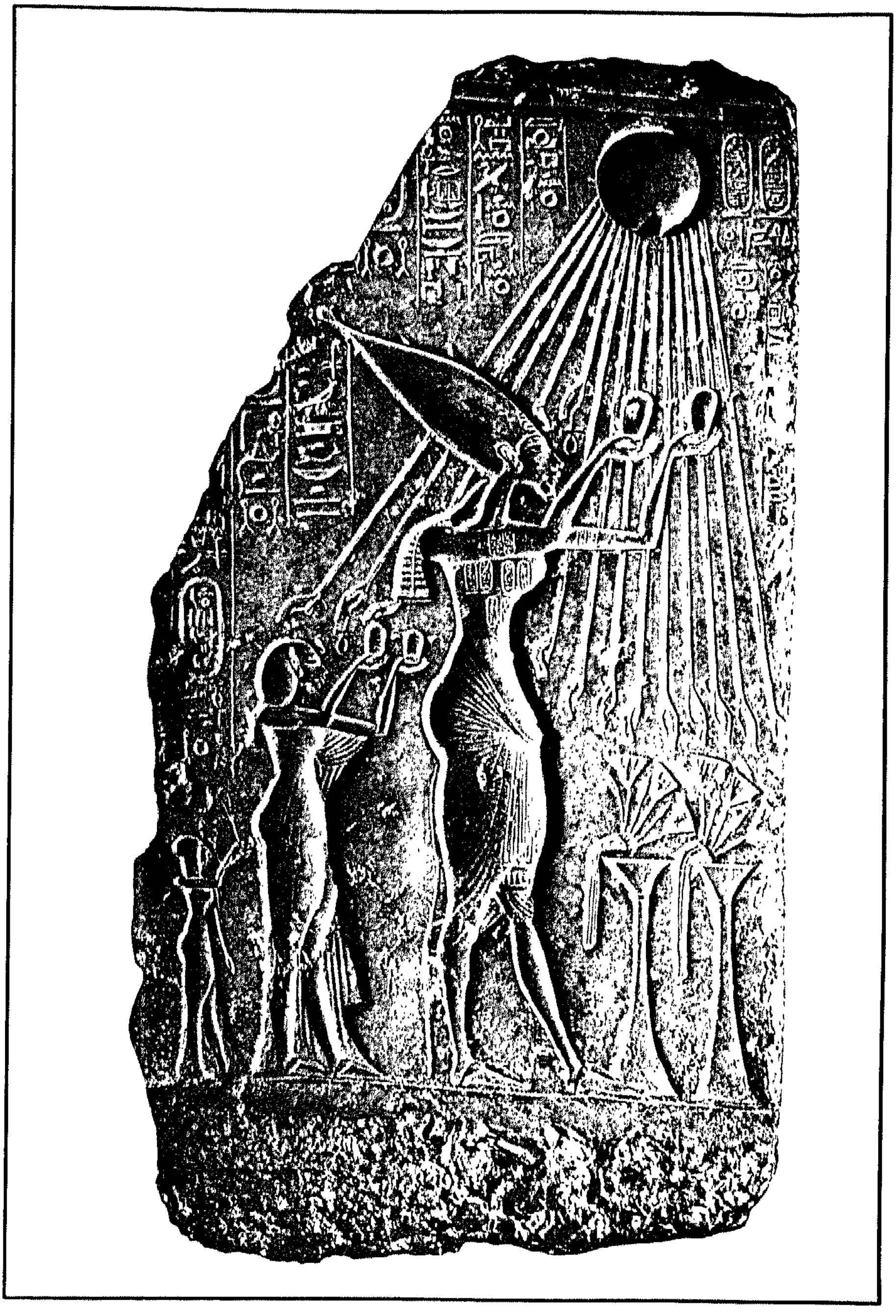
تابوت الملك توت عنخ أمون من الذهب.



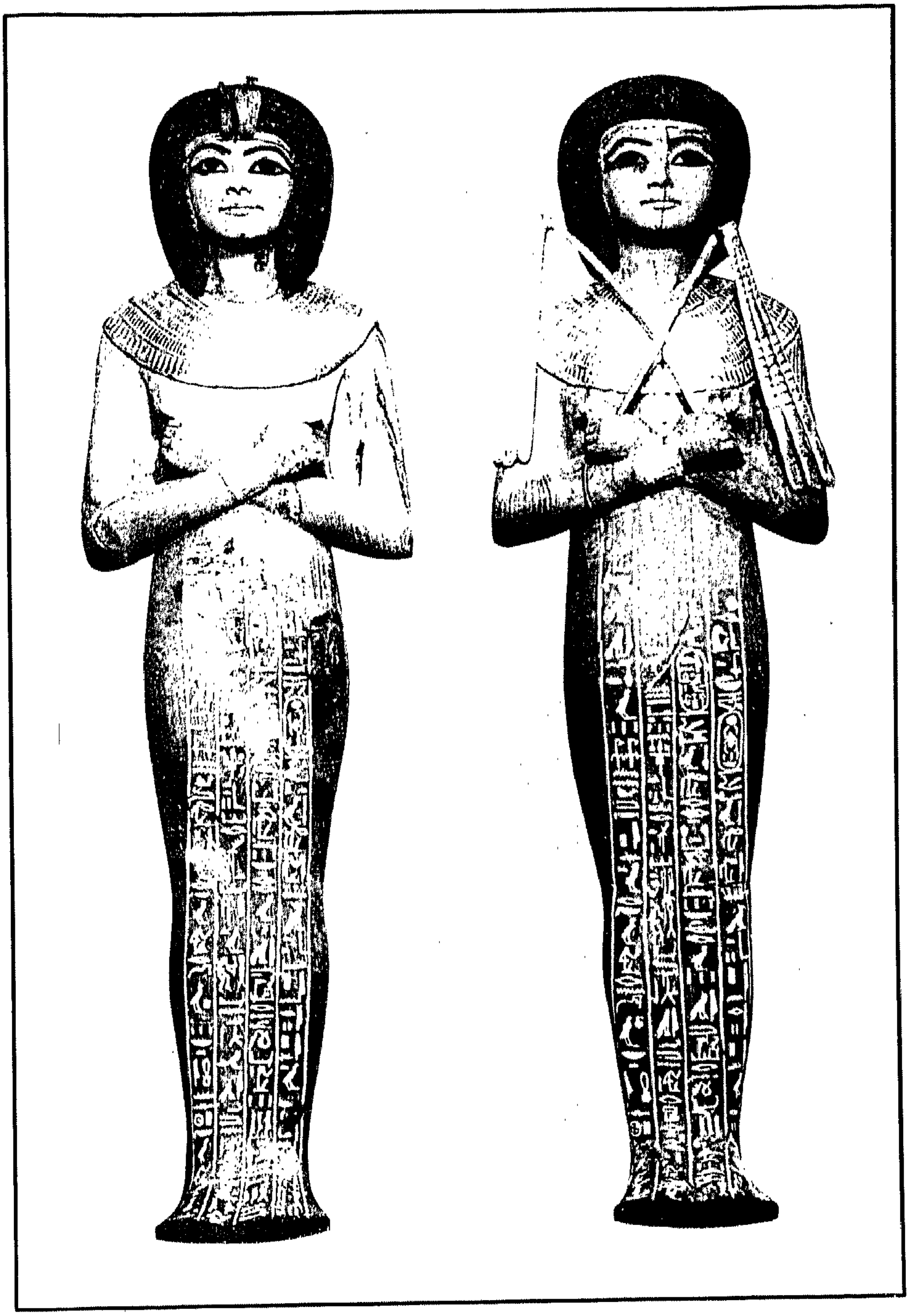
رأس توت عنخ أمون الطفل منبعثاً من زهرة لوتس.



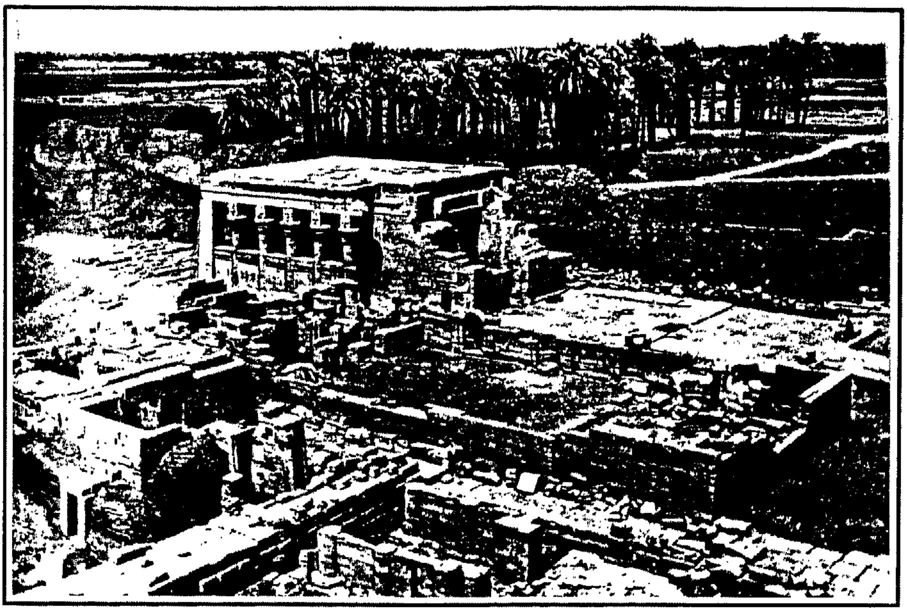
لوحة من الحجر الجيري الأبيض تمثل عدداً من حاملي القرابين (القرن ١٤ ق. م.)



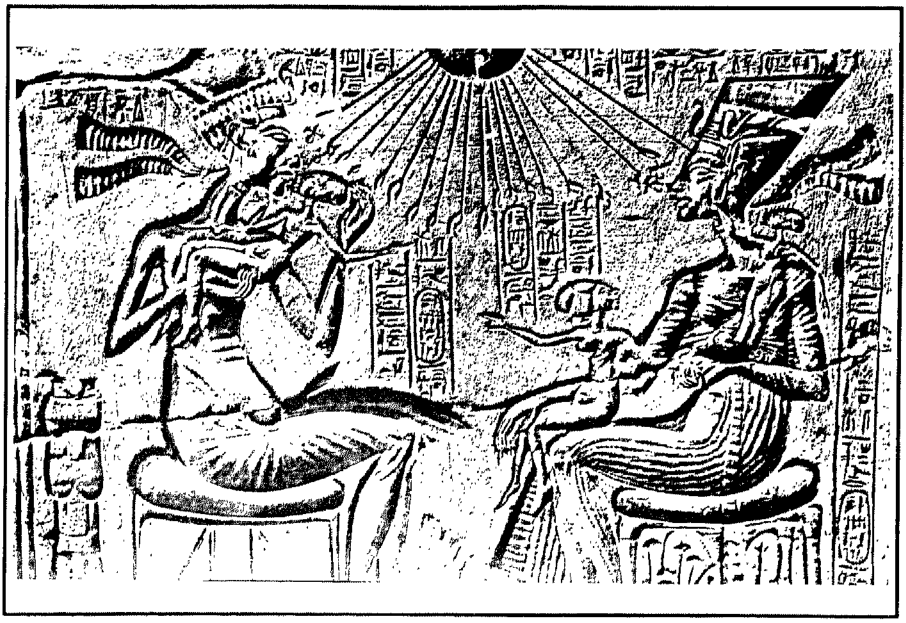
أخناتون وأسرته يقدمون القرابين لإلّهه الأوحد أتون (الأسرة الثانية عشرة ـ القرن الرابع عشر ق. م.).



تمثالان من تماثيل الأوشيبيّ للفرعون توت عنخ أمون.



معبد دندرة في قِنّا، في مصر العليا. ومع أن قنا ليست على الساحل، فقد كانت مركزاً تجارياً عبر البحر الأحمر.



نحت جيري نافر لأخناتون ونفرتيتي وأولادهما، (القرن الرابع عشر قبل الميلاد).



لـوحـة تـمـثـل كـتـابـة هيروغليفية.



إمحتوب (يقرأ رقّاً من البرديّ).



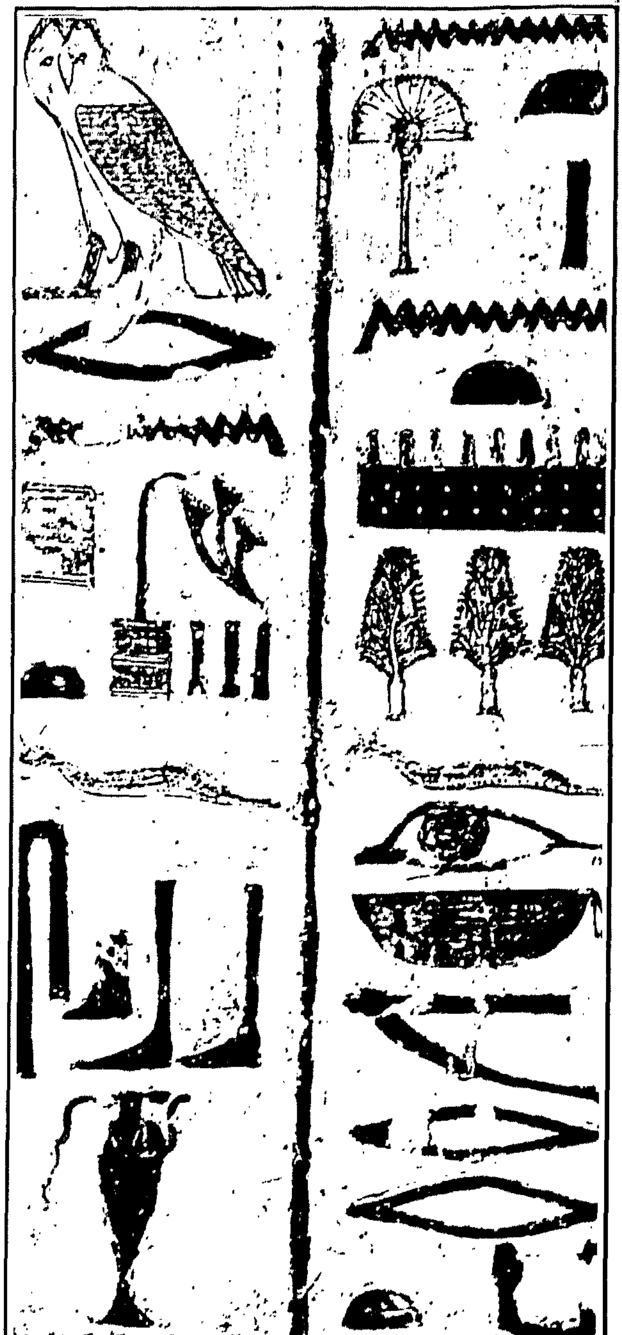
إيـزيـس وحـورس: تمثال برونزي صغير من العصر المصري المتأخر.



أوزيـريـس: تـمـثـال برونزي صغير من العصر المصري المتأخر.



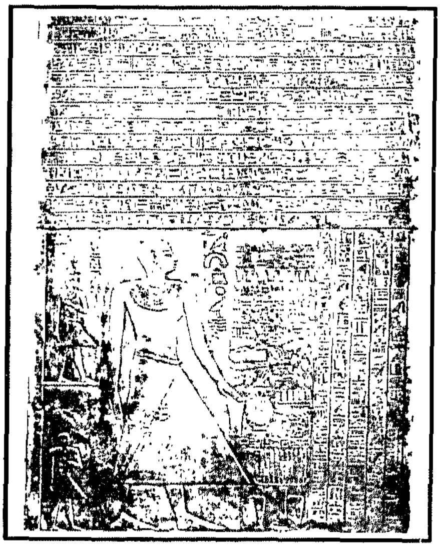
أمحوتب



نموذج من **الكتابة الهيروغليفية** المصرية
(حوالى سنة ١٥٠٠ ق. م.).



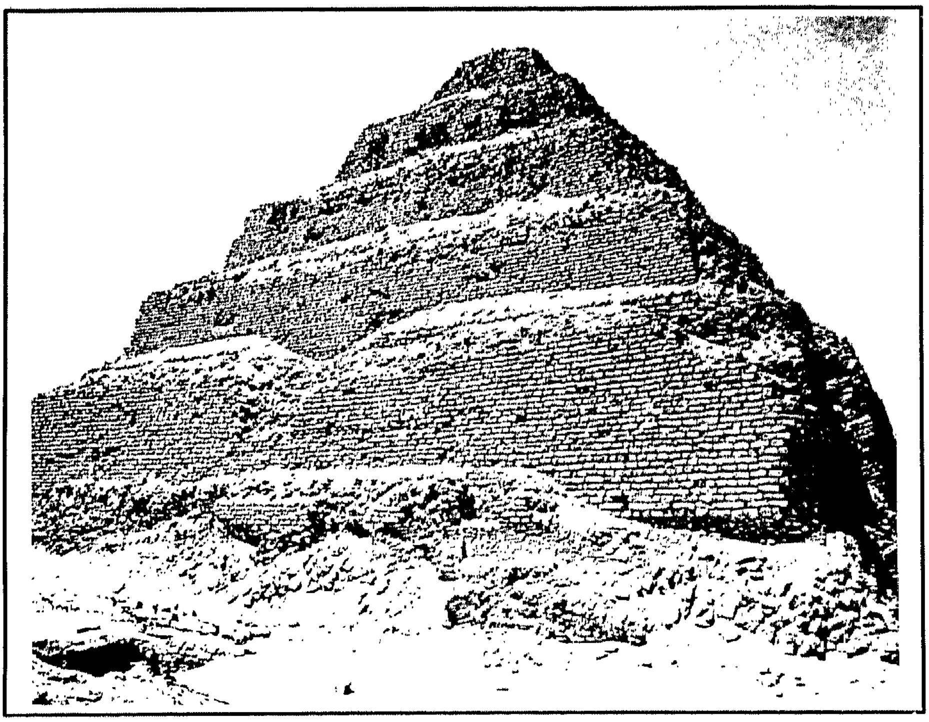
الكرنك: معبد أمون.



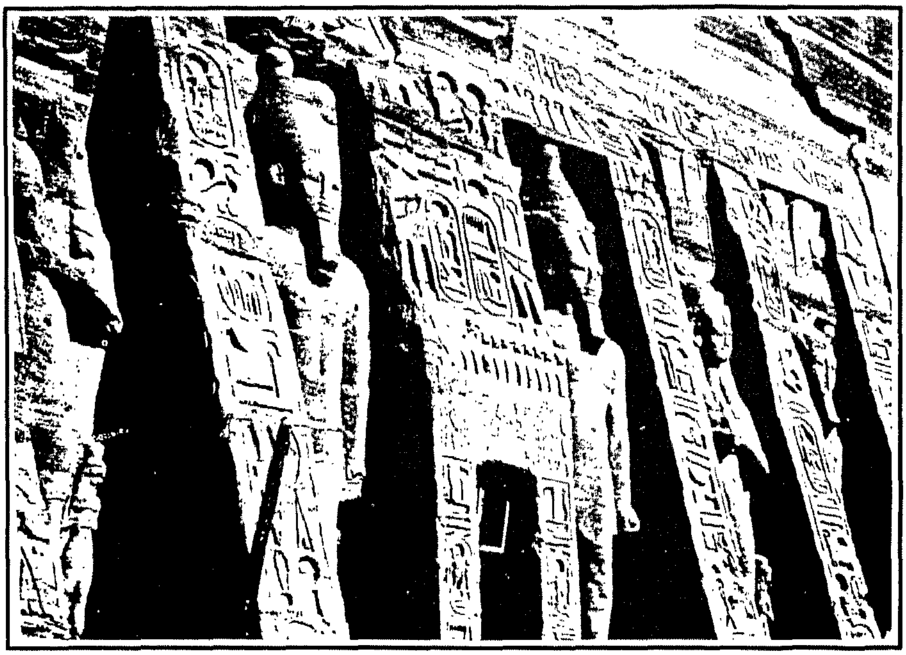
بلاطة مصرية، من **طِيبة**، من الحجر الكلسي (الجيري) تصوّر مستشاراً ملكياً وخدمه، مع سرد لسيرته المهنية، بالكتابة الهيروغليفية (السلالة الحادية عشرة، حوالى ٢١٠٠ ق. م.).



هرم خوفو في الجيزة، بالقرب من القاهرة، مع أبو الهول في الخلفية.



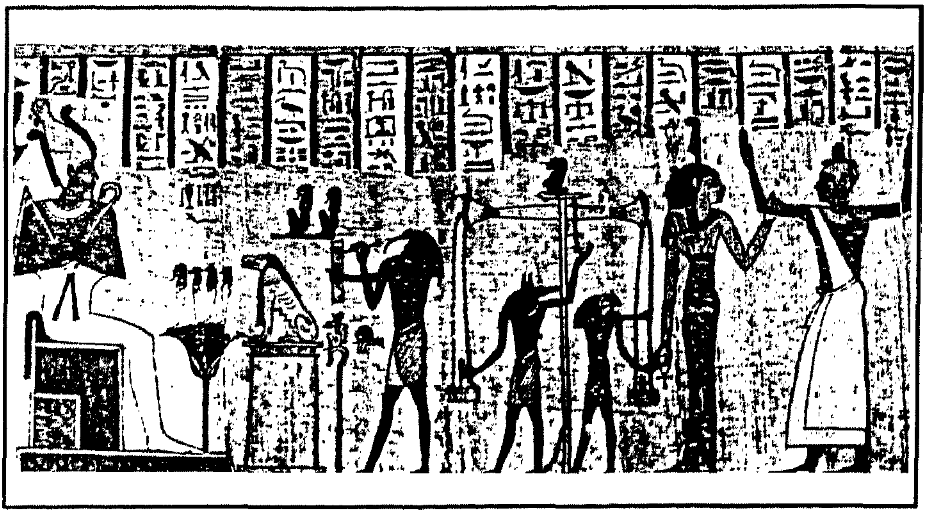
هرم سقّارة المدرّج.



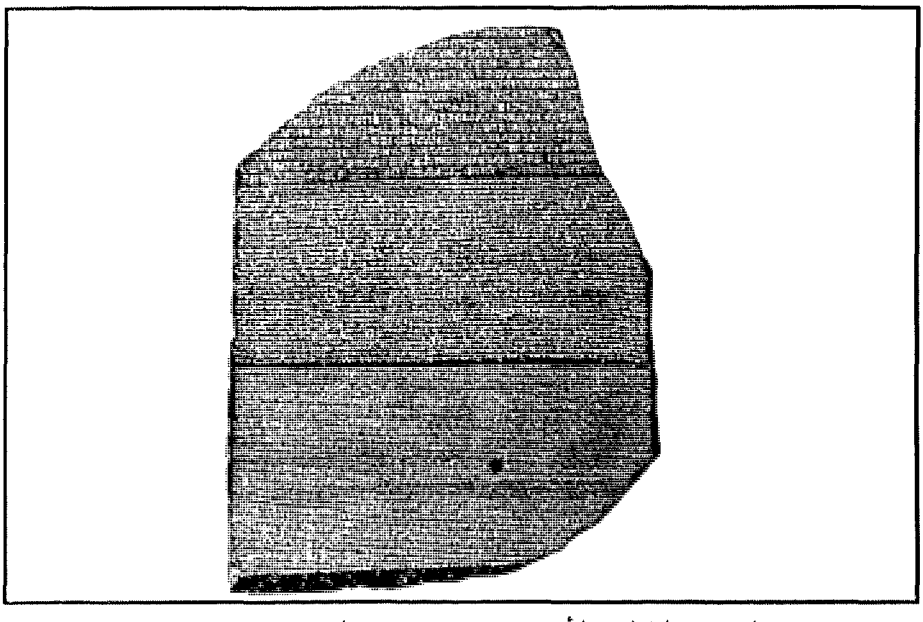
واجهة معبد أبو سنبل، المنحوتة من جُرَفٍ مشرف على نهر النيل.



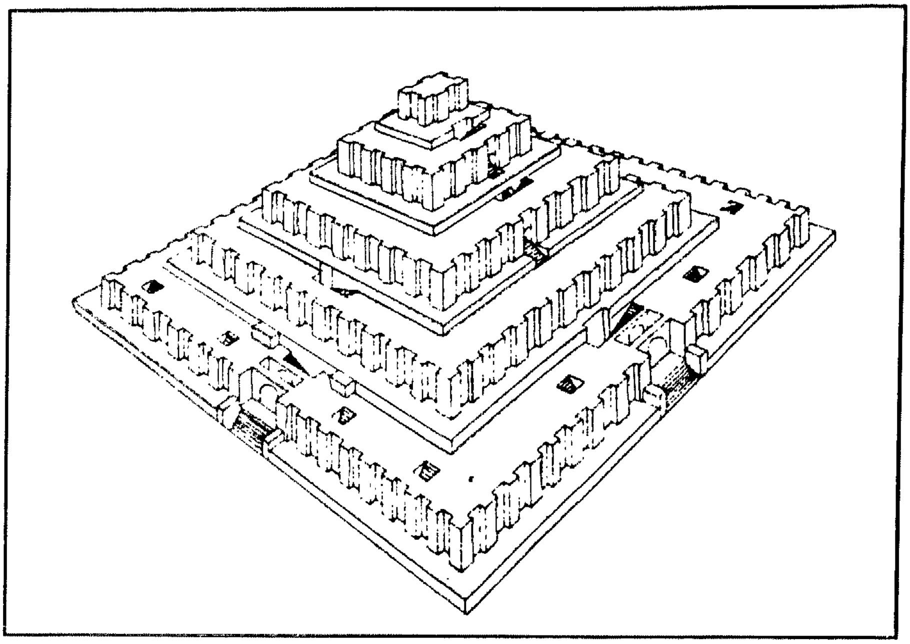
معبد الأُقصر في طِيبة، وقد بناه أمنحوتب الثالث.



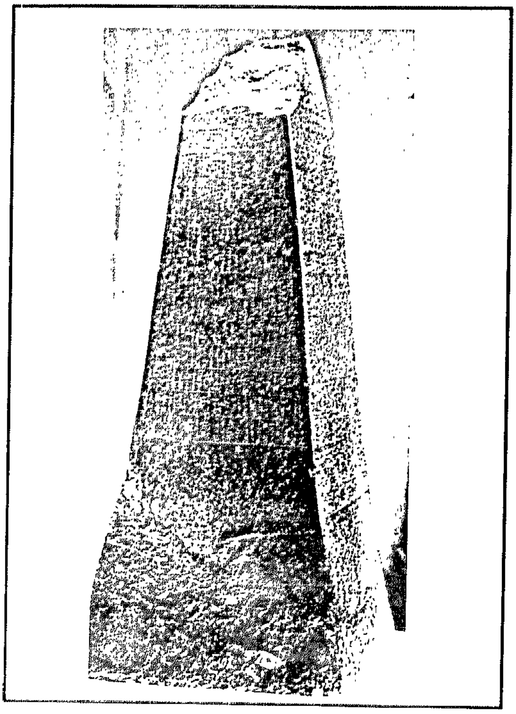
كتاب الموتى: ترقى محتوياته ـ وهي نصوص تتألف من رقًى وتعاويذ وترانيم دينية إلى سنة ٢٤٠٠ ق.م. ـ كان قدامى المصريين يضعونها إلى جانب المومياء أو فوق النعش لتكون دليل الأموات في رحلتهم إلى العالم الآخر.



حجر رشيد: قطعة من البازلت الأسود اكتشفه جنود نابوليون بونابرت سنة ١٧٩٩، عليه كتابة باللغات الهيروغليفية [في القسم الأعلى]، والديموطية [في القسم الأوسط]، واليونانية [في القسم الأدنى]، تعبّر عن شكر الكهنة لبطليموس نحو سنة ٢١٠ ـ ١٨١ ق. م. وقد استعان به شامپوليون لفكّ رموز الكتابة الهيروغليفية. ورشيد هي مدينة في البحيرة على فرع رشيد، شرقي الإسكندرية.



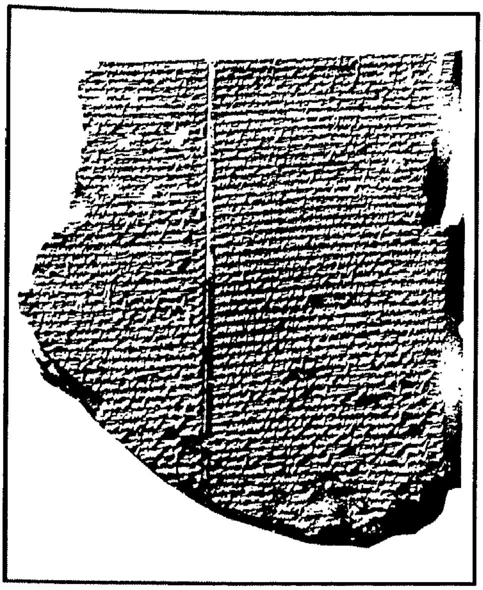
الزِقُرات: مبنى مدرّج، هرمي الشكل ذو هندسية معمارية ودينية مميّزة في المدن الرئيسية في بلاد ما بين النهرين من حوالى سنة ٢٢٠٠ إلى ٥٠٠ قبل الميلاد.



مسلّة أكادية: من بناء الأكاديين الذين قطنوا في أواسط بلاد ما بين النهرين (العراق) حوالى الألف الثالث قبل الميلاد.



تمثال سابق للحثيّين يعود إلى ما بين سنة ٢٣٠٠ وسنة ٢١٠٠ ق.م.

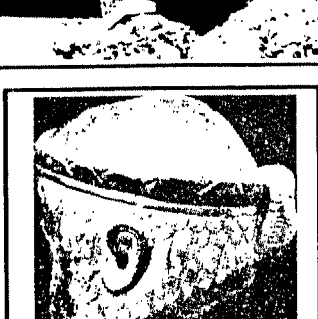


جزء من لوح صلصالي من **نينوى** (بلاد ما بين النهرين)، يعود إلى حوالى سنة ٦٣٠ ق. م، وهو بالكتابة المسمارية، مع الرواية الأشورية للطوفان.



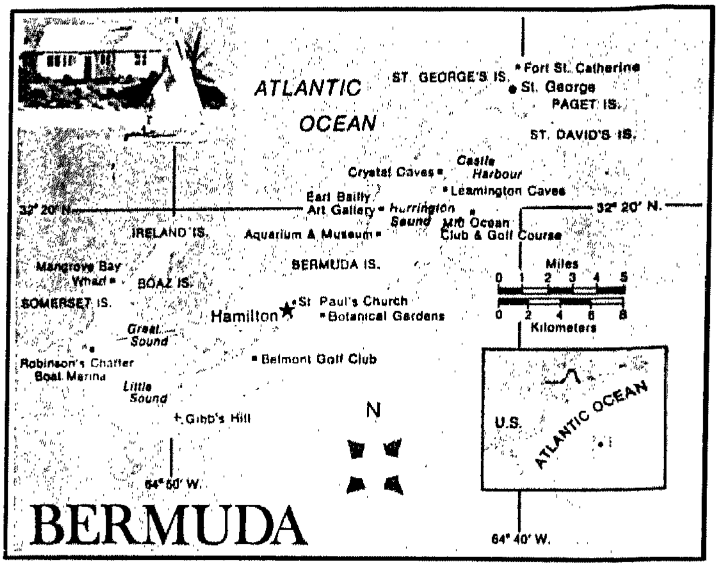
الجنائن المعلّقة، في بابل،

في بلاد ما بين النهرين.

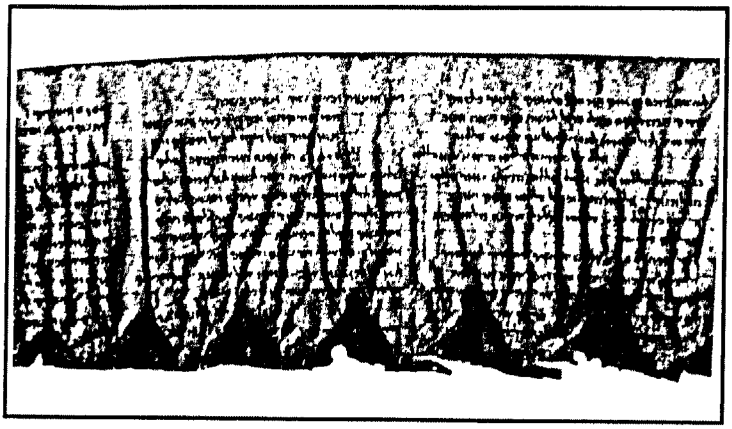


حفريّات أور:

خوذة أمير.



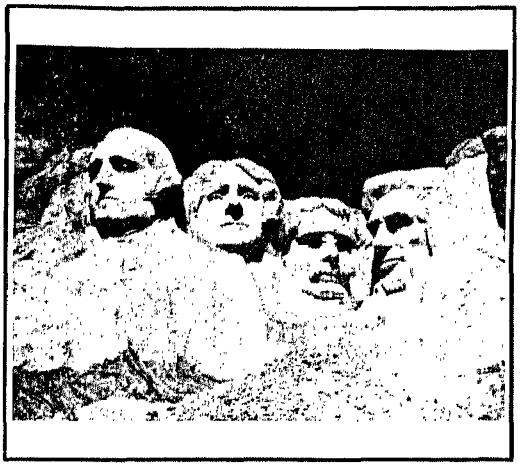
جزر برمودا.



مخطوطات البحر الميت: هي المدارج الرَقّية والبَرْدية التي اكتُشفت في قُمران الواقعة على الساحل الشمالي الغربي من البحر الميت.



الخط المسماري: نموذج نادر منه منقوش على حجر من معالم الحدود يعود تاريخه إلى عهد البابليين (في بلاد ما بين النهرين). ومبتكرو هذا الخط هم السومريون.



منحوتات جبل رشمور: رؤوس الرؤساء الأميركيين الأربعة ـ جورج واشنطن، وتوماس دجيفرسون، وأبراهام لنكولن، وثيودور روزفلت، منحوتة على القمة البالغة ١٨٢٩ متراً علواً. وكل رأس منها هو بارتفاع نحو ٦٠ قدماً. وقد بدأ العمل في النحت سنة ١٩٢٧ وانتهى سنة ١٩٤١، عقب ست سنوات من العمل الفعلي.



اسكوت كارپنتر

[سنة ١٩٦٤]



منحوتة «**العذراء والطفل**» للنحّات الإيطالي ميكيل أنجيلو.

الفهرس